الورقة الحمراء

المجلس الأعلى للثقافة



المشروع القومى للترجمة

146

تأليف الكاتب الأسبانى: ميجيل دي ليبس

ترجمة وتقديم : على عبد الرؤوف البمبى

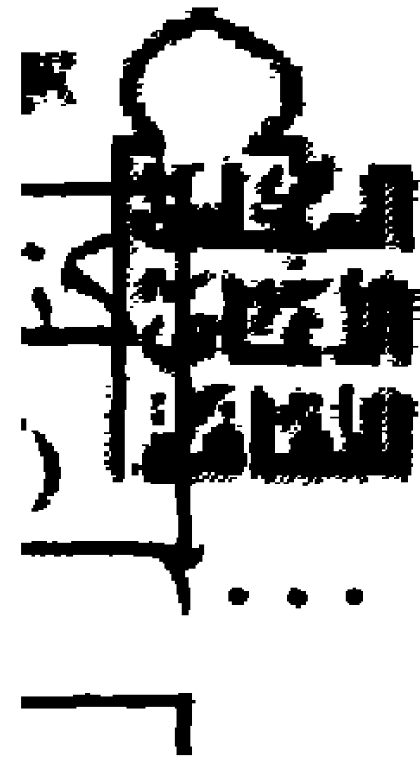
المشروع القومى للترجمة

الورقة الحمراء

القصة الفائزة بجائزة مؤسسة خوان مارش

تأليف الكاتب الأسبانى
ميجيل دى ليبس

ترجمة وتقديم
د. على عبد الرءوف البمبى



الورقة الحمراء

هذه هى الترجمة الكاملة لرواية: "الورقة الحمراء" [الطبعة الثامنة- ١٩٨٨]، للكاتب الأسبانى "ميچيل دى ليبس"

Miguel Delibes: La hoja roja, Destinolibro, Barcelona, 1988 [octava edición]

النزعة الإنسانية فى رواية «الورقة الحمراء»

للكاتب الأسبانى: **ميجيل دى ليبس**

بقلم د. **على عبد الرءوف على اليمبى**

١- الروائى الإنسان:

يتفق عامة النقاد على أن القرن العشرين هو بمثابة عصر ذهبى جديد بالنسبة للأدب الأسبانى. ولم يأت هذه الاتفاق من فراغ لأن الحقائق تشير إلى أن هذا الأدب قد اتسم فعلا بالنمو والثراء منذ السنوات الأولى للقرن الحالى. فقد ظهر فيه أساطين فى العلم والأدب وتعددت المدارس والمذاهب الفنية والأدبية ذات الملامح المحددة والتأثيرات العميقة. وإذا كان فن الشعر هو الذى سيطر على الساحة الأدبية فى أسبانيا خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين، فإن فن الرواية قد طغى على بقية الأجناس الأدبية الأخرى مع بداية النصف الثانى للقرن الحالى بتناميه المتلاحق والسريع، واستيعابه لكل الاتجاهات الحديثة التى ظهرت فى أوروبا والأمريكتين (وبخاصة اللاتينية).

ويعتبل ميجيل دى ليبس (Miguel Delibes)- الذى نقدم له هذه الرواية - من أفضل الروائيين الأسبان الذين ظهروا بعد الحرب الأهلية [١٩٣٦- ١٩٣٩] حتى يومنا هذا، بل إنه أقرب من غيره إلى ثقافة وعادات وتقاليد الإنسان العربى لأنه كاتب يلتزم بالأخلاق ويهتم بكل ما هو أصيل

وعفويّ، بالإضافة إلى تدينه الواعي والعميق.. وكثير من النقاد يصنفه ضمن أفضل ستة روائيين ظهروا بعد الحرب الأهلية الأسبانية، وهناك من يعتبره ـ بالإضافة إلى كاميلو خوسيه ثيلا (Camilo Jose Cela)، كارمن لافوريت [Carmen Laforet] - أكثر الروائيين خصوبة وثراءً من بعد الحرب الأهلية وحتى يومنا هذا(١).

ولأهمية «دي ليبس» الروائية فقد ترجمت أعماله إلى كل لغات العالم الحية، وتناولتهابالتحليل والنقد والدراسة أبحاث ورسائل جامعية لا تعد ولا تحصي، كما تم اختياره عضوا بالأكاديمية اللغوية الملكية الأسبانية (مجمع الخالدين) منذ عام ١٩٧٣.

وُلد «دى ليبس» عام ١٩٢٠ فى مدينة بلد الوليد (Valladolid)، وحصل على الدكتوراه فى القانون التجارى عام ١٩٤٥، وعمل استاذا لهذه المادة فى جامعة بلد الوليد، ولايزال يعيش فى تلك المدينة الإقليمية (مع أولاده وأحفاده) حتى يومنا هذا بعد أن رفض كل المغريات للانتقال إلى العاصمة مدريد.

وإلى جانب العمل الأكاديمى فقد مارس العمل الصحفى لفترة طويلة من الزمن، كما رأس تحرير مجلة شعرية، واشتغل أيضا بالنقد السينمائي، وهو يهوى الرسم وقد أقام معرضا لرسوماته ولوحاته.. ومن أبرز أعماله الصحفية رئاسته ـ وهو فى ريعان الشباب ـ لتحرير مجلة «شمال قشتالة» (Norte de Castilla) والتى دافع من خلالها عن حقوق الفلاحين وعن قضاياهم. وقد أدى موقفه الإنسانى الصريح والشجاع من قضايا مثل التخلف والظلم الاجتماعى إلى الصدام المبكر مع الإدارة السياسية واضطراره للاستقالة من منصبه.

ويرى الناقد الأسبانى المعروف ألاركوس بوراش (Alarcos Llorach) فى تعليق له على مقالات «دى ليبس» الزراعية فى المجلة المذكورة بأنها كانت بمثابة «البذرة لمواهبه الروائية التى ستظهر بعد»(٢)

لكن مقالاته فى تلك المجلة قد كشفت عن اتجاهاته وميوله المبكرة، والتى لم تكن أبدا سياسية أو حزبية بل إنسانية فى مجملها.

ولقد سافر دى ليبس إلى معظم دول أوربا والأمريكتين،وكان احد الكتاب الاسبان القلائل الذين دعوا لزيارة دول أوربا الشرقية قبل انهيار الاتحاد السوفيتى .. ومع كثرة أسفاره فى مشارق الأرض ومغاربها إلا أنه يهوى قرية صغيرة تسمى «سيدانو» Sedano وتقع فى محافظة برغش (Burgos). وحبه الجم لهذه القرية يرجع لجمال طبيعتها ولبساطة سكانها ولذكريات الصيد بها وهو صبى بصحبة والده. فقد كان شغوفا بالصيد طوال السنوات الأولى من حياته مما دفع أحد النقاد لأن يقول بأنه «ليس كاتبا يصيد، بل صياد يكتب»[٢] ولكن يبرهن «دى ليبس» على صدق هذه المقولة اتجه إلى كتابه العديد من الروايات والكتب التى تتناول موضوع الصيد.

وأول رواية صدرت له كانت «ظل شجرة السرو الممتد» والتى نشرت عام ١٩٤٩ وحصلت على جائزة «نادال» (Nadal) الشهيرة فور صدورها.

وبعد هذه الرواية توالى عطاء الكاتب، فكتب عشرات الروايات وبعض كتب الرحلات والعديد من المؤلفات المتصلة بموضوع الصيد، ومجموعات من القصص القصيرة، بالإضافة إلى عدد غير قليل من المقالات والدراسات الأدبية والنقدية.. ومن هذه المؤلفات، نذكر: «ظل شجرة السرْو الممتد» (١٩٤٩)، «لازال الوقت نهارا» (١٩٤٩)، الطريق (١٩٥٠)، «يوميات صياد» (١٩٥٥)، «يوميات مهاجر» (١٩٥٨)، «الورقة الحمراء» (١٩٥٩)، «أنا والولايات المتحدة الأمريكية» (كتاب رحلات - ١٩٦٠)، «الفئران» (١٩٦٢)، «خمس ساعات مع ماريو» (١٩٦٦)، «أوربا: محطة وخان» (١٩٧٠)، «حكايات قديمة لقشتالة العجوز» (١٩٧٠)، «الكفن» (١٩٧٠)، «البندقية على الكتف» (١٩٧٠)، «الصيد فى أسبانيا» (١٩٧٢)،

«الأمير المخلوع» (١٩٧٣)، «عام من حياتي» (مقالات وسيرة ذاتية – ١٩٧٥)، «حرب الأجداد» (١٩٧٩)، «صوت السيد كايو المشكوك فيه» (١٩٧٩)، «الملائكة الأبرياء» (١٩٨١).. إلخ.

وقد حصل «دى ليبس» على كثير من الجوائز الأدبية – خاصة فى مجال القصة والرواية–، فعلاوة على جائزة «نادال» التى فازت بها روايته الأولي، فازت رواية «الورقة الحمراء» بجائزة مؤسسة «خوان مارش»، ورواية «يوميات صياد» بجائزة الدولة فى الأدب، ورواية «القيلولة وريح الجنوب» بجائزة الأكاديمية اللغوية، ورواية «الفئران» بجائزة النقد.. إلخ.. وكان بإمكانه الفوز بجوائز أخرى عديدة لو لم يحجم عن الاشتراك فى المسابقات الأدبية المختلفة، وذلك بسبب إحساسه العميق بمدى قيمته ككاتب، ولإفساح المجال أمام المؤلفين الشبان وعدم مزاحمتهم فى أشياء قد تكون حافزا لهم على الاستمرار والإجادة فى عالم الخلق والإبداع الفني. وتتضح هذه الحقائق بجلاء فى هذه الإجابة القصيرة لكاتبنا على سؤال طرحه عليه الناقد «ألونسو دى لوس ريوس» (Alonso de los Rios). فعندما سأله الناقد عن سر إحجامه عن الاشتراك فى المسابقات الأدبية ردّ عليه «دى ليبس» قائلا: «أتعتقد أنه من المناسب لى فى مثل هذه السن وفى وضعى الحالى مزاحمة شاب يقدم لنا قصته الأولى؟»(٤)

وتجدر الإشارة إلى أن بعض أعمال «دى ليبس» الروائية قد تحولت إلى مسرحيات (ومنها الرواية التى نتحدث عنها) وتحول البعض الآخر إلى أفلام سينمائية، وفى كل الأحوال كانت أعماله تلاقى إقبالا منقطع النظير سواء من قبل القرّاء أو من روّاد السينما والمسرح.

ولقد كرّمته أسبانيا فى مناسبات عديدة: حيث حصل على جائزة أمير «أستورياس» (وليّ عهد أسبانيا) ذات الأهمية الكبيرة، كما منحته الدولة جائزتها التقديرية عام ١٩٩٠.

وتتسم شخصية «ديس ليبس» - سواء على الصعيد الأدبى أو الإنسانى - بالتوازن، والذى أسهمت فيه عدة عوامل تعود إلى نشأته الأولي، ومن بينها نذكر: شعوره الدينى العميق، الاستقرار النفسى والروحى، زواجه المبكر ورعايته لأسرة كبيرة، حبه للطبيعة بكل ما تشتمل عليه من حيوان ونبات وطير وسماء وأرض، افتتانه بكل ما هو أصيل وعفوي، ونفوره - فى المقابل - من كل ما هو زائف ومصطنع (بل ومخترع أيضا)، واستقامته وتحلّيه بمكارم الأخلاق.. إلخ.

ولقد أدت هذه السمات المبكرة إلى تحديد نوعية اهتماماته فيما بعد (مثل الوقوف إلى جانب المظلومين والفقراء والطبقات الدنيا فى المجتمع)، وإلى تفضيله للموضوعات الخالدة فى رواياته (الله، الطبيعة، الحب، الموت، الحرية، الدفء الإنساني، العدالة الاجتماعية، الإحساس بالآخر، التواد والتراحم... إلخ)، وإلى نفوره كذلك من كل ما يمت بصلة للمشاعر الرخيصة والغرائز الشاذة والموضوعات المتهتكة الفاضحة.

وأسلوب حياة «دى ليبس» المستقيم ومشاعره الإنسانية العميقة وتعففه عن الشهرة والمال، وإحساسه الأخوى بأنّات المظلومين قد جعلت منه أنموذجا يحتذى لكل من يبغى توظيف ملكاته الفنية فى تحرير جوهر الإنسان من طغيان المظاهر المادية ومن استعباد الآلة والمخترعات الحديثة.

٢- قسمات من عالم "دى ليبس" الروائى:

ينصبّ جلّ اهتمام كاتبنا - سواء فى أعماله النقدية أو الإبداعية - على الإنسان كفرد تربطه بمجتمعه علاقات متنوعة وشائكة.

ومن القضايا التى يعرضها فى رواياته قضية الفقر، واهتمامه بها يرجع إلى صلته الحميمة والوطيدة بالطبقات الدنيا وخاصة بفلاحى المناطق الأشد قحولة من إقليم «قشتالة».

فالكاتب يرصد مظاهر البؤس والشقاء الناجمة عن التفاوت الطبقى والتوزيع غير العادل للثروات بهدف إبرازها والعمل على حلِّها.. ويقترح المؤلف نظاما للإصلاح الزراعى يعود بالنفع على القرى القشتالية التى تعانى من الفقر والتخلف نتيجة لتاريخها الحربى الطويل.

ومن هذا المنطلق فهو يدافع عن حتمية تكافؤ الفرص وإزالة الفوارق بين الطبقات وضرورة تمتع الأفراد بالحرية والكرامة.

وهو لا يفعل هذا من منطلق سياسى أو أيديولوجى بل من منطلق إنسانى بحت.

ومن القضايا الهامة الأخرى التى يطرحها فى رواياته مشكلة «الإحساس بالوحدة» لدى إنسان العصر الحديث. وأسباب هذا الإحساس تعود إلى التفكك الأسرى وانحسار الود بين أفراد الأسرة الواحدة وتراجع ـ وربما انعدام ـ التواصل والتفاهم بين أفراد العصر الحديث، وقلة الاهتمام بالقطاعات الشعبية وتقهقر التضامن بين بنى البشر، علاوة على الشيخوخة والرهبة من الموت.

ولأن شخصيات «دى ليبس» تنتمى إلى الطبقات الكادحة المهمشة فإنها دائما تكابد الأهوال وتتحمل المشاق من أجل أن تشق لنفسها طريقا فى الحياة يوفر لها ولو جزءا من السعادة، لكن محاولاتها تضيع سدى وينتهى بها الحال إلى التعاسة لأن العقبات التى تصطدم بها تفوق قدراتها المحدودة. ولذا يقترح «دى ليبس» إعادة النظر فى النظام الاجتماعى والاقتصادى، وضرورة أن يتحمل كل فردا جزءا من المسئولية

تجاه الآخرين، وتعميق الرغبة النابعة من الحس الإنسانى فى معاونة من أقعدتهم ظروفهم عن اللحاق بمستوى حياة كريم.

وبالاضافة إلى اهتمام الكاتب بالفلاحين وأصحاب المهن المتواضعة والعجائز نجده يهتم أيضا بمشكلة التربية، وخاصة تربية الأطفال والشباب فى الأسرة والمدرسة. ويوحى إلينا بخطة منظمة للتربية تشمل جميع أفراد المجتمع وتراعى أهلية وكفاءة واهتمامات كل فرد.

وبالطبع فإن مشاكل المجتمع معقدة وليس من السهل حلها، لكن المؤلف يعتقد بأنه من الممكن التوصل إلى العدل الاجتماعى دون الإضرار بذاتية الفرد أو بحريته إذا خلصت النية فى ذلك.

أما من جهة الشخصيات، فمن المعروف أن لكل روائى الحق فى اللجوء إلى المعيار الذى يراه مناسبا، ومن ثم يقع على عاتقه تحديد سمات الشخصيات التى يختارها لسكنى جنبات رواياته، وكذلك محيطها الاجتماعى وأعمارها ومقوماتها الذاتية..إلخ.

وهو يختار شخصيات من الحياة الواقعية أو من الواقع الملاحظ ويقوم بإعادة تشكيلها وخلقها مع إضفاء السمات والملامح المناسبة لها. كما يعتبرها بمثابة لحمة الرواية ونخاعها، فهو يعترف قائلا: «يمكن أن تكون الشخصيات واقعية، ولجعلها كذلك فإنى أبذل قصارى جهدى. الرواية ـ بالنسبة لى ـ عبارة عن شخصيات تمرح فوق صفحاتها قبل أن تكون حبكة وتكنيكا»(٥).

ويطلق الناقد «لوهيكِّى» (Leo Hickey) على معظم شخصيات «دى ليبس» صفة «الدُّونية فى جميع أبعادها»(٦).

وبالفعل فإن كاتبنايولى اهتماما خاصا بالنوعيات المتواضعة التى تعيش على هامش المجتمع، وهى نوعيات بسيطة وفقيرة تعيش فى عزلة عن محيطها

الاجتماعي، وعزلتها هي السبب في الحفاظ على سلوكياتها او تصرفاتها الطبيعية (الفطرية) التي لا تعرف النفاق أو التظاهر، ومن هنا فإن العنصر الإنساني يظهر فيها كما هو دون تحريف. ولذلك لا يتردد كاتبنا في الاعتراف بأن معظم مؤلفاته لا تحتوى على «بطل» بل على «البطل المضاد»(٧).

ومن المعروف أن مفهوم «البطل» كان يطلق على الشخصية الرئيسية ذات المواهب الرفيعة التي تتصرف بحنكة وتندفع إلى غايتها مسلحة بالعزيمة والرغبة في الانتصار. إنها تشبه في عصرنا شخصية «السوبرمان» الجديرة بالإحترام والاحتذاء.

لكن هذا المفهوم القديم للبطل قد أخذ في التآكل خلال القرن التاسع عشر ووصل إلى ذروة التحات في القرن العشرين ليفسح المجال أمام مفهوم «البطل المضاد». وهذا الأخير مخالف تماما لسابقه، بمعنى أنه - أي البطل المضاد - ذو شخصية ضعيفة، يخلو من المواهب التي تؤهله لأن يرتقي في الحياة، عديم الثقة بالنفس، يائس... إلخ.

وفي أعمال «دي ليبس» لا يوجد مكان للبطل أو للشخصية الخارقة بل لتلك النماذج التي لا تمتلك زمام حاضرها ولا تستطيع أن تعد وتخطط لمستقبلها. وبما أنه كاتب لا يهتم فيما يعالجه بالحذلقة الفكرية فإنه لا يلقي بالا للانتصارات الكبيرة أو البطولات الفذة ولا حتى للمواهب الرفيعة مثل الذكاء وقوة الإرادة. ما يهمه - ككاتب وإنسان - هو إبراز كل ما يمت للإنسانية الحقة بصلة مثل الصفات العادية التي تلازم الإنسان أو الفضائل التي تعتبر في درجة أدنى (البساطة، العفوية، حب الطبيعة، التمتع بالمباح من مباهج الحياة).

وهو يقدر في الرجال صفتين: البساطة والتراحم، وفي النساء: البساطة ولين الجانب (٨). وفي إيجاز يمكن القول بأن كاتبنا يهتم - سواء في أسبانيا أو في خارجها - بالفقراء والبسطاء الذين لم ينالوا حظهم من الحياة، بقصد تحسين أوضاعهم الحياتية. وفي تقديمه لشخصياته يعطي

أولوية للطبقة الشعبية لأنها تستحق العناية والشفقة والمساعدة، ويقابل بينها - أحيانا - وبين الطبقة المتوسطة بقصد إبراز الفوارق بين الطبقات الاجتماعية ولكى يلفت الانتباه إلى الحاجة الملحة لتصحيح أوضاع الطبقات الدنيا وحل مشكلاتها.

ومن خلال التعرف على مزاج الكاتب فى انتقاء شخصياته يمكن الاهتداء إلى البيئة أو المكان الذى تدور فيه أحداث معظم رواياته، وهى فى المقام الأول بيئة ريفية، وتتلوها فى الأهمية البيئة الحضرية للأوساط الشعبية ثم البيئة أو المحيط الأسرى.

ولقد أدى اهتمام الكاتب المبكر بقضايا قشتالة وعمله الصحفى فى مقتبل حياته إلى توطيد الصلة بينه وبين عامة الناس، وخاصة بفلاحى إقليمه الذى عاش فيه طوال حياته ولم يتركه إلى غيره. ومن ثم نجد أن البيئة الريفية هى الأكثر وضوحا فى جل أعماله حتى أن أبطال قصصه التى تدور أحداثها فى الحواضر كثيرا ما يهرعون إلى الريف طلبا للتغيير أو للاستمتاع بالطبيعة أو لصيد الحيوانات والطيور التى تمرح بين جنباته. ولقد دفع اهتمام "دى ليبس" بريف قشتالة أحد النقاد لأن يقول بأن كاتبنايرى الريف موطنا للفضائل على حين تغص المدينة بالرزائل: «العالم الذى يفضل «دى ليبس» سبر أغواره وإعادة خلقه فنيا يتمثل فى القرية والريف. ليس فقط لأنه يعرفه بل لأنه يحبه، وهذا يدعونا لأن نجترأ ونقول بأنه يعتقد أن الشرور والآثام موطنها المدينة والحياة الحديثة»(٩).

لكن «دى ليبس» يفسر لنا سر اهتمامه بالريف والقرية من خلال هذا التعليق على ملاحظة تورينتى بايستير» (Torrente Ballester) السابقة : «ربما يكون ميلى لكل ماهو ريفى والحنان الغريزى الذى أعتاد أن أغلف به هذه البيئات بما عليها من سكان هو السبب الذى دفع «بايستير» لأن يعتقد هذا. لكن هذا الميل وما يصحبه من حنان يمكن أن

يعنى فى المقام الأول الإحساس بالشفقة لإهمال تلك البيئات قبل أن يكون مجرد اعتراف بفضائلها. ما أريد أن أقوله هو أن الريف يغص كذلك بالرزائل لكن الفلاح ليس هو المسئول الأوحد عنها؛ وعلى خلاف هذا فإن رزائل الحضر- فيما عدا بعض الحالات - متعمدة ومقصودة ولايتسبب فيها الجهل وبدائية الطباع بل الضجر والرقي المعيشى المصاحب للتقدم. ومن ثم فإن رزائل الفلاحين ليست فقط متأصلة فى طبائعهم بل أيضا يشوبها العذر»(١٠).

ومن جهتنا، فيمكن إرجاع اهتمامه بالريف وسكان وتخصيصه لروايات وكتب عدة تتناول موضوع الصيد فقط إلى طبيعة تكوينه ونشأته وإلى خبرته الشخصية. فمن المعروف أن الكاتب ولد فى مدينة إقليمية وكان يرافق - وهو صبى - والده في رحلة الصيد الأسبوعية ، وكان يقوم بتجهيز المؤن وأدوات الصيد، وبهذا الشكل أخذت روحه تتآلف مع هذه الحياة البدائية ذات الآفاق اللانهائية التي لايحدها سياج ولاعائق من صنع البشر.

أما بالنسبة للبيئة الحضرية، فنجد أن «دى ليبس» يختار الأماكن الشعبية والأحياء الفقيرة، ويبرز فيها الجوانب السلبية. كما أنه لايصفها لنا بالتفصيل على خلاف عادته فى البيئة الريفية، بل يقدم نتفا وصفية قصيرة تلقى الضوء على سلوكيات الشخصيات وردود أفعالها تجاه الظروف المحيطة بها.

وعلى صعيد المحيط الأسرى يعتقد «دى ليبس» أن الأسرة عنصر مؤثر فى نمو وتطور شخصية الفرد. فالأسرة هى الكيان الجوهرى الذى يجب أن يتوافر فيه الحنان والشعور بالمسئولية المشتركة. والخطر الأوحد الذى يمكن أن تفرزه الأسرة المتماسكة يتمثل فى إمكانية تأصيل نوع من الأنانية لدى فرد فيها، ومع هذا فإن العلاقات الحميمة والتعاون المشترك بين أفرادها يلقيان بظلالهما على الآخرين ويؤثران إيجابا على المجتمع(١١).

ومما تقدم يتضح أن معظم شخصيات «دى ليبس» تنتسب إلى الطبقات الدنيا: فهى شخصيات فقيرة، محملة بالمآسى، تحيط بها المشاكل من كل نوع، ولذلك فهى فى صراع دائم مع محيطها الاجتماعي. و الكاتب ينطلق فى معالجته لهذا الصراع من وجهه نظر أخلاقية اجتماعية.

ولطبيعة الصراع الدائم الذى تعيشه مثل هذه الشخصيات الفقيرة المطحونه فإن القسمات الدرامية السلبية المشبعة بالألوان القاتمة هى المسيطرة على محيطها الروائى. وبالرغم من هذا فإن روح الدعابة والتكهم والسخرية والنزعة الشاعرة عند الكاتب تعتبر الثقل المضاد الذى يخفف من قتامة الألوان (النفسية والمعنوية بالطبع) ويحول المناظر الكريهة إلى بسمات لاذعة.

وبفضل هذه الخواص (روح الدعابة والتكهم والسخرية والنزعة الشاعرة) فإن أعمال الكاتب لم تسقط فى بحر الفظاظة والتشاؤم السوداويين اللذين يعتبران السمة المميزة لكتاب جيله أمثال : كاميلو خوسيه ثيلا، كارمن لافوريت، خوسيه ماريا خيرونيا(١٢).

ويمكن أن نلخص اهتمامات «دى ليبس» المذكورة آنفا - سواء بالنسبة للموضوعات أو الشخصيات أو البيئات - فى كلمة واحدة : وهى الأصالة. وبما أن هذه الخاصية هى صفة شخصية يتحلى بها الكاتب فإنه - بالتأكيد - ينطلق منها عند معالجته لفنه الراوئى . ويؤكد هذا الفهم ماذكره الكاتب عن نفسه فى إحدى المناسبات حينما قال : «اهتمامى بالشخصيات الأصيلة التى تعتمد على الفطرة ليس مجرد نزوة أو صدفة . بالنسبة لى، الرواية هى الإنسان، بعلاقاته الأصيلة العفوية دون بتر أو تشويه. وهذا النوع من البشر لايمكن أن نعثر عليه الآن تحت مظلة التقدم المادى إلا فى القرية أو بين الطبقات الدنيا من المجتمع»(١٣).

والإلحاح على الأصالة بهذا المفهوم يقودنا إلى التعرف – ولو بإيجار – عن وجهة نظر الكاتب فى التقدم المادى الحديث بما يشتمل عليه من الات ومخترعات . ومن خلال قراءة أعماله المختلفة يتضح أن مفهوم «التقدم» عنده يرتبط بالتقنيات الحديثة وبالآلات ووسائل الإعلام وبالمدينة كوعاء له . وهو ضد كل هذه الأشياء لا لأنه يكره التقدم أو الآلة فى حد ذاتهما بل لأنهما استخدما بطريقة تسببت فى فقدان الإنسان لحريته وجوهره، وجففت ينابيع مواهبة ومشاعره، كما قضت على التوازن الأزلى فى الطبيعة.

فالآلة حولت الإنسان إلى عبد لها، تحكمت فيه وسرقت منه مبادرته الفطرية وحريته واهتمامه بالآخريين.. أما وسائل الإعلام فقد قضت هى الأخرى على التميز والاختلاف بين الشعوب والأمم فى العادات والتقاليد والسلوكيات والمظهر العام واللغة المستخدمة، وحولتهم إلى مسوخ متشابهة يسهل التحكم فيها سياسيا وإداريا: أى أنها ضد حكمة التعارف التى خلق الله الناس من أجلها شعوبا وقبائل.

كما أخل التقدم الحديث بالتوازن فى الطبيعة بكل ماتشتمل عليه من مكونات .. وقد أدى تركز المظاهر المادية فى المدينة إلى هجرة غالبية سكان القرى إليها تاركين أراضيهم مما أضعف المدينة والقرية سواء بسواء.

وبالطبع فإن «دى ليبس» قد أو عز فى رواياته بالحلول المناسبة لكل هذه المشاكل لكى يعيد للإنسان حريته وفطرته.

ووجهة نظر الكاتب فى التقدم المادى الحديث قد أفصحت عنها تصريحات كثيرة له، لكننا سنكتفى بهذه الكلمات الموجزة المعبرة التى جاءت على لسان عالم الأنثروبولوجيا الفرنسى «كلاود ليفى شتراوس» وتبناها دى ليبس : «لايروقنى كثيرا القرن الذى نعيش فيه . من وجهة نظري، فإن الاتجاه الحالي ينحو –من جهة– إلى السيطرة الكاملة للإنسان على الطبيعة، ومن جهة أخرى إلى سيطرة بعض الأشكال الحياتية على البعض

الآخر. ومزاجي ونوقي يقودانى إلى الماضى الغابر، إلى عصور أكثر تواضعا وبساطة كانت تحترم التوازن بين الإنسان والطبيعة، وبين الأشكال المتعددة والمختلفة للحياة – سواء بالنسبة للحيوان أو النبات – وبين أنواع الثقافات والمعتقدات والعادات أو الكيانات المتعددة ...»[١٤].

ومما تقدم يتضح لنا أن «دى ليبس» يوجه كل اهتمامه للدفاع عن حرية الإنسان وكرامته وحقوقه الطبيعية ومشاعره وأحاسيسه الخالصة، ويحذر فى نفس الوقت من مغبة الاستسلام للآلة ومن عواقب الإخلال بالتوازن الكامن في الأرض التى نعيش عليها، وهو لذلك يعالج الموضوعات الخالدة فى رواياته ويدافع عن القضايا الإنسانية ويختار الشخصيات البسيطة العفوية التى تتصرف بوحى من غرائزها ولم تلوث بوهن المدنية الحديثة ولا بأساليبها المصطنعة.

٣- رواية "الورقة الحمراء" :

صدرت هذه الراوية عام ١٩٥٩ وطبعت مرات عديدة بعدها وفى دور نشر مختلفة (طبعت حتى عام ١٩٩٧ أربع عشرة طبعة فى دار نشر واحدة)، وفيها يعرض علينا الكاتب شخصيات بسيطة تنتمى إلى الطبقة الفقيرة المطحونة مثلما يفعل فى معظم رواياته .. فلقد درج الكاتب – كما أسلفنا القول – على الوقوف بجانب الضعفاء والمظلومين، يحس بأناتهم وأوجاعهم، يتحدث بلسانهم ويعبر عن مكنونات صدورهم، منبها إلى فداحة الظلم الذى يأخذ بتلابيبهم وداعيا إلى حل مشكلاتهم وتخفيف آلامهم التى يتسبب فيها عادة نظام غير مسئول وحفنة من الأدعياء والانتهازيين . وهو يفعل كل هذا دون ضجيج أو خطابة فجة أو من خلال الترويج لنظرية معينة، بل بالاعتماد على فن رفيع هادئ، ساخر ومعبر، بسيط وإنسانى.

(أ) المضمون (التيمات الأساسية) :

تبدأ أحداث الرواية فى نفس تلك الليلة التى أحيل فيها البطل «إلوى» (Eloy) إلى المعاش. فقد ظل يعمل طوال ثلاث وخمسين سنة فى قسم النظافة بمجلس المدينة الإقليمية التى كان يعيش فيها. وبالرغم من أنه كان موظفا بسيطا إلا أن السلطات قررت إقامة حفل وداع له نظرا لسنوات خدمته الطويلة.. وفى الحفل الذى حضره عمدة المدينة استبد السأم بالحاضرين، واستغل البعض المناسبة لإبداء سخريته واستهزائه. لكن العجوز «إلوى» – دون أن ينتبه لأحاسيس السلطات والزملاء – يلقى بخطبة عصماء طويلة يؤكد فيها على أهمية العمل وضرورة التفانى فيه..

وفى اليوم التالى للحفل يشعر بوحدة قاسية تتسلل برودتها فى أطرافه وكان حياته تتسرب حثيثا من بين يديه. وقد أكد هذا الشعور القاتم لديه عثوره فى نفس اليوم على «الورقة الحمراء» فى دفتر البفرة الذى يستخدم وريقاته فى لف السجائر (ومن المعروف أنه فى أسبانيا – كما فى بلدان عديدة أخرى – كانت توضع ورقة حمراء قبل نهاية كل دفتر بَفْرة لكى تنبه المستهلك إلى أن الباقى من الوريقات قليل ولا يتعدى الخمس).

ولقد اعتبر العجوز هذا بمثابة نذير، خاصة وأن مصادفة العثور على «الورقة الحمراء قد تزامنت مع إحالته إلى التقاعد. كما أن هذه المصادفة قد جعلت العجوز يتذكر بحزن شديد عبارة كان يرددها صديق له توفى منذ سنوات كانت تقول أن «المعاش هو ردهة انتظار الموت». لكن العجوز "إلوى" لم يكن وحيداً تماماً بل كانت تعيش معه خادمة شابة من الريف ترعى شئونه بعد موت زوجته وابنه الأصغر ونزوح الابن الأكبر للإقامة بعيداً عنه فى مدريد. وفى "ديس Desi" (الخادمة) وجد العجوز ضالته وملاذه: فكان يتحدث طويلاً إليها ويحكى لها ذكرياته أثناء استمتاعه بقرقرة النار فى المطبخ وشيوع الدفء فى

المكان. وشيئاً فشيئاً تشكل لون من التفاهم والانسجام بينهما بالرغم من بساطة الخادمة التى تصل لحد السذاجة وعدم فهمها لكل ما يتفوه به.

لقد كان يبحث عن الدفء الإنسانى الذى يقيه قشعريرة الخوف من المجهول وبرودة الوحدة القاسية ورحيل الزوجة والابن والأصدقاء. فلم يكن قد تبقى للعجوز سوى صديق واحد (عيسى) على قيد الحياة، لكنه سرعان ما لحق بمن سبقوه. وبعد موت الصديق المتبقى أظلمت الدنيا فى وجه العجوز وقرر السفر إلى ابنه الأكبر الذى يعيش عيشة هانئة فى العاصمة مدريد.. وليته ما فعل: فابنه -الذى ذاق الأمرّين فى تربيته وتعليمه- لم يمد له العون بل تنّكر له وخجل من فقره وبساطته، وزاد الطين بلّة جفاء زوجة الابن وغلظتها وتندّرها على تصرفاته.

وقبل أن يسافر العجوز (والكاتب يطلق هذا اللقب على بطلة "إلوى" دائماً) إلى مدريد كان قد قدم من القرية الپيكاثا (El Picaza) خطيب الخادمة "لاديس" لأداء الخدمة العسكرية فى المدينة الإقليمية، والتقى بخطيبته ووصل ما قطعته سنوات غربتها. وبدا وكأن الأيام قد هادنت "ديس" أخيراً بقرب الخطيب الحبيب وزوج المستقبل. لكنها كانت واهمة: فقد أجهض طبع "الپيكاثا" العدوانى الحلم الحاضر والأمل فى المستقبل عندما قتل -فى نوبة من نوبات الغضب التى تعتريه- امرأة رمته بكلام جارح أثناء مشادّة كلامية. ومن ثمّ كان على "لاديسى" الانتظار لسنوات طويلة حتى يخرج خطيبها من السجن بعد أدائه لعقوبة القتل.

ولما عاد العجوز خاوى الوفاض وحيداً وحزينا بعد زيارته لابنه وجد "لاديس" وحيدة أيضاً تجتر أحزانها. وعندما عرض عليها الزواج لكى ينتظرا سوياً: ينتظر هو النهاية المحتومة الوشيكة، وتنتظر هى خروج "الپيكاثا" من السجن ليلتئم شملهما من جديد.

ولم تنكر الخادمة الشابة لمحة الودّ ولم ترد اليد الممدودة إليها، بل أجابت بصوت رفيع لا يكاد يُسمع: «اللى تشوفه يا سيدى».. وهكذا فقد فتحت هذه الإجابة القصيرة الباب أمام العجوز لكى يقضى بقية أيامه إلى جوار خادمته التى قاسمته همومه وذكرياته وأعادت الدفء إلى صقيع حياته التى تناثرت أشلاؤها بين رحيل الأحبّة وجحود الزملاء ونكران فلذات الأكباد.

فالكاتب يركز -كما نلاحظ- على حاجة الفرد الملحّة والمشروعة للعواطف الإنسانية الدافئة الأصيلة كالودّ والحب والتفاهم والإحساس بالآخر لأن الحياة بدونها خواء لا معنى له، فالله -سبحانه- جعل الناس شعوبا وقبائل ليتعارفوا وخلق لهم من أنفسهم أزواجاً ليسكنوا إليها فى كنف المودة والرحمة.

وفى مقابل هذا، تؤدى الوحدة والعزلة والأنانية وفقدان الودّ والتفاهم إلى تسلل البرودة والخوف إلى حياة الإنسان لكى تتحول إلى حطام وأشلاء. لكن الفرد يستطيع أن يفرّ من براثن هذا الحطام لو اهتدى إلى من يقاسمه أفراحه وأتراحه كما فعل العجوز.

وبالرغم من إنسانية كل التيمات التى تشتمل عليها الرواية إلا أن أهمها على الإطلاق موضوع الدفء البشرى بكل ما يشتمل عليه من معان. ومع أن هذا الموضوع قد تناولته روايات سابقة للمؤلف إلا أنه لم يبلغ ذروته إلا فى «الورقة الحمراء» لدرجة أن "دى ليبس" لم يعد إلى طرقه مرة أخرى بعدها. فبطلى القصة (إلوى، ديس) قد عاشا طوال حياتهما يبحثان عن الدفء الإنسانى.

لقد عانى العجوز كثيراً فى حياته؛ مات والده في نفس الليلة التي وُلد فيها، ثم ماتت أمه وهو صبى، ولم يبق له بعدهما سوى أخته (إيلينا) لكنها كانت باردة الإحساس ومع هذا لم ينكر عليها العجوز طبعها لأن

هناك -حسبما يعتقد- صنفان من الناس: صنف وُلد ليشع حنانا ودفئا، وصنف خُلق ليتلقاهما، وأخته من الصنف الثاني. في ذلك الوقت لم يجد الصبي أمامه سوى خادمة أسرته (لاأنطونيا) ليتلقى نصيبه من الدفء الإنساني الذي حرمته الأيام منه.

وبعد أن ماتت زوجته -وهو رجل- بقي له دفء ذكريات الشباب والعمل وتلك الذكريات التي يتقاسمها مع صديقه الوحيد الباقي على قيد الحياة (عيسى). لكن في يوم تقاعده عاد البرد -الحسي والمعنوي- ليهبط عليه من جديد: «برد غريب ينبعث من داخل الجسد ليتفرع بعد ذلك في العروق والعضلات والأعصاب لكي يتسرب في المساء من خلال مسام الجلد»(١٥).

لكن الصديق المتبقي سرعان ما يرحل إلى العالم الآخر وتموت معه ذكريات التجارب التي خاضاها معا وعندما لم تفهم الخادمة "لاديسي" سر تأثر العجوز الشديد لفراق صاحبه هَمّ بأن يخبرها بأنه «لم يكن مجرد صديق، بل مصدر للدفء، وأنه لم يكن مجرد رجل هذا الذي يرقد في التابوت بل مدام "كاتروكس" الفرنسية ومدرستها الابتدائية، و"بولدو بومبو"، والعم "أليخو" بذراعيه القصيرين، و"لاروسينا"، والعم "إرمنس" والبنك التعاوني، و"بيبين پاثكيث" و"لاباكيتا أورتونيث" ودار الحمامات العامة؛ و"لوثيتا" و"جويتو" وحياة بأكملها» {الورقة الحمراء، ص١٨٣، ١٨٤}.

وبتعداد هذه الذكريات مع شخصياتها يريد "دي ليبس" أن يقول أن الحياة لا معنى لها بدون الأحداث التي مرت بنا في حياتنا لأن ذكرياتها هي التي يتدفق منها الدفء، والدفء هو الحياة.

لكن هذا الدفء الذي يحتاجه الكائن البشري لكي يستمر ويواصل حياته كإنسان مهدد ببرودة الآلات التي تتحكم فينا. يقول "إلوي" (أو دي ليبس) مواصلا حديثه مع نفسه عن ذكرياته مع صديقه المتوفي: «كان في منتهى التعقيد محاولة التوضيح للفتاة بأن الإنسان يحتاج

لدفء داخلي وآخر خارجي وأن الأمور كانت على ما يرام عندما اهتدى الإنسان لاكتشاف النار فقد كان الناس يتحلقون حولها فتشيع بينهم المودة الصادرة من ألسنة اللهب ذاتها، لكن بعد أن آتى التقدم وجمّع الدفء في مواسير تناثر عقد المودّة، لأنه من العبث محاولة الاستفادة من نار تخلو من الدخان. كان كل شئ في منتهى التعقيد لدرجة أنه نفسه لم يكن يعلم متى سينتهي لو شرع في الكلام. لذلك فضل الصمت..» (الورقة الحمراء، ص١٨٤).

وهذا يعني أن تعبئة التقدم للدفء في مواسير قد حرم الناس من التحلّق: أي من التواصل والتوادّ والتراحم، وعَمَّق -في المقابل- الشعور بالوحدة والعزلة.

وبعد أن يموت الصديق الأخير ويقرر العجوز السفر إلى حيث ابنه الكبير بحثا عن الدفء يخيب ظنه لأن التقدم كان قد حوّل ابنه إلى رجل عصري بارد لا يشع دفئا ولا حنانا. وتتوازى حياة "لاديس" الخامدة مع حياة سيدها وإن كانت أقل منها عمقاً واتساعا. فهي الأخرى نزحت من الريف بعد موت أمها وزواج والدها بامرأة كانت تقسو عليها، ووجدت في معاملة العجوز الحسنة بعض السلوى، وازداد أملها عندما جاء خطيبها إلى المدينة التي تخدم فيها، لكن برد اليأس والقنوط هبط عليها بعد سجن «البيكاثا». وبعد هبوط شبح الجفاء واليأس على "إلوى" وخادمته يقرران الزواج، فقط من أجل الحصول على الحنان المتبادل والمشاعر الحميمة: الدفء الإنساني.

وكما نرى فإن موضوع الدفء الإنساني هو أهم موضوعات الرواية، وفيه يُحَمِّل "دي لبيبس" -كعادته- التقدم المادي جزءاً كبيراً من مسئولية انفراط عقد المودة والحنان بين بني البشر[١٦].

(ب) الشخصيات:

ذكرنا فيما تقدم أن معظم شخصيات المؤلف تنتسب إلى الطبقات الفقيرة الكادحة التى تعيش فى عزلة عن التقدم المادى، ولذا فإنها تتصرف بعقوية كاملة دون تظاهر أو رياء.

فهى شخصيات أصيلة تحتفظ بكل ما يميزها من سمات وخواص. ومن هنا فإن مفهوم «البطل» التقليدى لا يناسبها بأى حال، ومن المناسب لها صفة «البطل المضاد».

والمؤلف يهتم بإبراز الجوانب الإنسانية الخالصة فى شخصياته، وكذلك السمات المتواضعة مثل البساطة والوضوح وعدم التعقيد والمودة والعطف والشفقة وحب الطبيعة وتلبية نداء الغرائز بالمتع المباحة، ولا يلقى بالا -فى المقابل- للبطولات والمآثر الفردية ولا حتى للمواهب الخِلْقية العظيمة مثل الذكاء وقوة الإرادة والشجاعة.

ونلمح هذا بجلاء فى شخصيات «الورقة الحمراء»: فالعجوز "إلوى" موظف بسيط أُحيل إلى التقاعد بعد بلوغه السن المقررة للتوقف عن العمل الرسمى، ولا تكفى المكافأة الشهرية لتغطية نفقاته أو لشراء معطف جديد للخادمة التى تعيش معه فى نفس المسكن، كما أنه لا يتلقى أىّ عون مادى من ابنه الميسور الحال الذى يقيم فى العاصمة بعيداً عنه. ومع هذه الأزمة الطاحنة يبدأ التدهور النفسى والجسمانى للعجوز، فقد أصبح يعانى من الإغماءات المتكررة ومن نزلات البرد المتواصلة.

ومن مظاهر الفقر المدقع للعجوز قيامه بنزع مصابيح دورة المياه وعندما ضبطته الخادة تعلثم قائلاً: «ما نفعله هنا فى النور نستطيع فعله فى الظلام، أليس كذلك يا بنتى؟». كما كان العجوز يتسلي بآلة التصوير الفارغة كالأطفال ولا يجد مالا لشراء فيلم لها وإشباع هوايته القديمة

في التقاط الصور الحقيقية. وليت الأمر ظل على هذا الحال بل إنه اضطر لبيعها، ومن ثمَّ فقد حُرم حتى من تسليته الطفولية. ومن مظاهر فقره أيضاً أنه كان يعطي تعليماته للخادمة بعدم تشغيل التدفئة قبل اليوم الحادي عشر من شهر نوفمبر بالرغم من حساسيته الشديدة للبرد.

أما الخادمة "لاديس" فهي فتاة قروية أميّة، بطيئة الفهم وتفتقر لأدنى مقومات الجمال. ومع هذا فهي كريمة، ودودة، صريحة، تنسى الإساءة وتعطف على الآخريين. وهي أشد فقراً من سيدها، ومن مظاهر فقرها: قلّة ملابسها، بل إن المعطف الوحيد الذي تملكه استخدمته من قبل أخواتها الأكبر منها سناً، وبعد أن وصلت للرابعة عشرة أخذته منهم، وهي الآن تبلغ العشرين ربيعاً وقد ضاق عليها المعطف واستحال لونه ومع ذلك لا تستطيع شراء بديل له.

ومن الخصائص التي تتميز بها شخصيات "دي ليبس" ونجدها بوضوح في "الورقة الحمراء" إضفاء بعض السمات أو الصفات المميزة التي تجعل الشخصية أكثر تحديداً وتفرداً. ومن هذه السمات إطلاق لقب للشخصية أو وصف يلقي الضوء على طبيعتها وميولها، وأحياناً على تكوينها النفسي والجسماني؛ وكذلك إبراز بعض التصرفات الغريبة والممارسات التي تصل إلى حد الهوس عند هذه الشخصيات.

ففي الرواية يطلق المؤلف لقب «العجوز» على "إلوي" حتى أننا نكاد ننسى الإسم الحقيقي ونتذكر اللقب فقط. وفكرة الشيخوخة وانصرام العمر والاقتراب من النهاية هي التي تحكم تصرفات هذا البطل في كل آن من خلال تكراره المستمر لعبارات معينة، مثل: «المعاش هو ردهة انتظار الموت» أو «لقد طلعت لي الورقة الحمراء في دفتر البفْرة».

وللعجوز أيضاً العديد من التصرفات الغريبة التي يتمسك بها لحد الهوس مثل: الارتكاز على ركبتيه بعد الأكل لمدة نصف ساعة اعتقادا

منه بأن جاذبية الأرض تسهل عملية الهضم أو النوم بكامل ملابسه خوفا من البرد أو التبكير بالذهاب إلى الحدائق العامة لقضاء حاجته بين الخُضرة الكثيفة ...الخ.

والخادمة (لاديس) لها كذلك تصرفاتها الغريبة، مثل: ضرْب الأذن الموجوعة براحة اليد لكي توقف صغيرها أو الحرص على وضع العديد من "البِنَس" في شعرها يومي السبت والأربعاء من كل أسبوع أو الاعتقاد بأن استعمال الحقائب والقفازات والقبعات يقتصر على الهوانم والسيدات المتحررات ...الخ.

وعيسى (صديق العجوز) به بعض الصفات المميزة، مثل: صوته العذب، ارتدائه لأرابطه العنق اللافتة للنظر، عزوفه خلال فترة الشباب عن الاهتمام بالنساء ثم تعلّقه وولعه -في مرحلة الشيخوخة- بالفتيات الجميلات، والعصا التي يحملها في يده ولا تفارقه، والعبارة التي يستخدمها في الرد على العجوز وكأنها تعويذه (إمش رويدا رويدا). وهو يعبر بهذه الجملة عن ثقته الزائدة في بلوغه المائة سنة، وعن حبه للحياة وتفتّحه المتأخر عليها، كما أنه يسخر بها من مخاوف العجوز بشأن اقتراب المنيّة، وأخيراً للإعراب عن إعراضه الضمني لكل ما يسرده العجوز من ذكريات مشتركة.

أما "الجالو" (El Galo) -والد الخادمة- فمن صفاته المميزة ثخانة دمه وعدم اهتمامه بما يدور حوله.. والعم "أليخو" كان عملاقا ويداه قصيرتان مثل يديّ قزم.. والعم "إرمنس" كان يتميز بحبه للمزاح وبساقه الموجوعة وعبقريته وبصوته العميق الجميل. ومن الألقاب التي خلعها المؤلف على بعض شخصياته في الرواية لقب "البيكاثا" الذي ألصقه بـ "مانويل" (Manuel) خطيب "لاديس". وسبب إطلاق هذا اللقب عليه يرجع لاصطياد مانويل وهو صبي لعَقْعَق (Picaza) من على شاطئ النهر

والقيام بعد ذلك باستئناسه، لكن حميّة مانويل وطبعه العدوانى جعلاه يقتل الطائر شر قتلة ويمثل بجثته. ومن يومها التصق به هذا اللقب ولا يكاد يُعرف إلا به، وهو يشير إلى طبع صاحبه النزق المتهور.

وبالإضافة إلى هذا اللقب فإن "البيكاثا" يتمتع بملامح نفسية وجسمانية تزيد من تحديده: فهو قروى فظّ، عيناه متحدتان كعينى صقر، ساقاه مقوستان، يمشى وكأنه يجرجر قدميه، تنتابه موجات غضب عارمة ومفاجئة ويتلعثم عندما يشرع فى الكلام.

ومن الألقاب الأخرى نشير إلى إطلاق «الثعلب» على "البراكسيدس" (الذى قتل الأخ النصف شقيق للخادمة أثناء فيضان عام ١٩٥٢)، ولقب «العبيط» على "ماركوس" (الأخ النصف شقيق للفتاة).

وهذه الألقاب أو الصفات المميزة للشخصية تصاحبها دائماً كلما أطلّت بوجهها فى حدث من أحداث الرواية. ويعترف المؤلف بأنه يولى أهمية كبيرة لمثل هذه الألقاب والصفات والتصرفات الغريبة لأنها تحدد طبيعة الشخصية وتميزها عن غيرها وتجعلها أكثر تفردا بحيث تنطبع فى ذهن القارئ ويستطيع تذكرها بسهولة دون عنت أو مشقّة(١٧).

(جـ) عادات ومعتقدات شعبية:

تعتبر الأعياد وحفلات الزفاف من المناسبات الهامة فى حياة الشعب الأسبانى، وخاصة بالنسبة للطبقات الشعبية. وفى المناسبات الدينية (مثل الأسبوع المقدّس أو عيد الميلاد) يمتزج العنصر الدينى بعناصر دنيوية أخرى، بحيث تبدأ الأعياد بالقدّاس -مثلاً- وتنتهى بالرقص ومصارعة الثيران.. وتغطى مظاهر الاحتفالات بتلك الأعياد كل الشوارع والميادين علاوة على الضواحى القريبة من العمران.

وفى «الورقة الحمراء» نشاهد جانبا من مظاهر الاحتفال بعيد الميلاد فى الفصل الحادى عشر. ففى المدينة الإقليمية -حيث يعيش "إلوى" وخادمته- نجد أن: «أضواء الواجهات الزجاجية، ومكبرٌ صوت "رويث جانداريّاس" (صاحب محل الديسكو) الذى يذيع الأناشيد الدينية، وزجاج القهاوى الملَفَّع بالبخار، والرجفة المتقطعة للأجراس، والحواشى الضئيلة اللامعة لأشجار الموز، والبهجة الطاغية للأطفال، تؤكد جميعها على أهمية هذا التاريخ» (الورقة الحمراء، ص١١٥). وقد حرصت "لاديسِ" على الذهاب إلى الكنيسة لحضور القدّاس الخاص بهذه المناسبة، وسهرت مع العجوز فى المطبخ حتى الخيوط الأولى من الصباح وهما يشربان ويتبادلان حديث الذكريات.

ومن مظاهر الاحتفال بتلك الليلة إجراء السحب على ورق اليانصيب. وكعادة معظم الأسبان اشترت "لاديسِ" ورقة وعندما أُجرى السَّحْب ظنت أن رقمها فاز ببطانية لكنها عندما ذهبت للمطالبة بها تبين لها أن الجائزة لرقم آخر فعادت تجر أذيال الخيبة.

ومن العادات الهامة أيضاً إقامة حفلات الزفاف. وتكتسب هذه العادة أهمية كبيرة فى الريف والأحياء الشعبية. وتقصّ علينا "لاديسِ" من خلالها حديثها مع العجوز عددا من حفلات الزفاف التى شاهدتها فى قريتها. وتقول أنها مسلّية للغاية، والعروسان يبتسمان طوال الوقت ويقدمان التحية للجميع لأنهما لو لم يفعلا وُصفا بثقل الدم وربما ارتكبت ضدهما بعض الحماقات.. ومراسم الاحتفال تبدأ فى العاشرة مساءً ولا تنتهى إلا بدخول نهار اليوم التالى. وخلال هذا الوقت الطويل يرقص المدعوون ويشربون ويأكلون ويغنون.

والذى يعرضه علينا "دى ليبس" يخص الأعياد الدينية وحفلات الزفاف (أى المناسبات العريقة المتصلة بطبيعة حياة الشعب الأسبانى

والتي لا تمت بصلة لمناسبة حزبية أو سياسية أو قومية) سواء على صعيد القرية أو المدينة. فلم يحدث وأن عرض لمناسبة مدنية إلا في هذه الرواية حينما ساق لنا (في الفصل الثالث عشر) مظاهر الاحتفال بعيد الشجرة الذي ينظمه البنك التعاوني.

أما بالنسبة للمعتقدات الشعبية، فبما أن معظم شخصيات المؤلف من النوع الفقير القليل الحظ من الثقافة فإن النظرة المتشائمة تجاه الحياة هي المسيطرة عليها. فهذه الشخصيات لا تنتظر إلا الأسوأ ولذلك يمتلكها خوف عميق من المستقبل وتحاول الاستعانة عليه باللجوء إلى بعض المعتقدات البالية التي تبتعد عن النهج القويم، مثل الاستعانة بالرُّقى والتمائم والتعاويذ لطلب الحماية أو لجلب الحظ السعيد أو للتخلّص من الأرواح الشريرة أو للتحصّن ضد الحسد ...الخ.

ولذلك نجد "لاديس" تحرص قبل النوم على ترديد كلمات معينة لطرد الأرواح الشريرة وجلب الأحلام الهانئة السعيدة. كما تحرص على تعليق صورة عذراء «لاجيًا» أعلى سريرها للتبرك بها ولتكون في حمايتها.

ويندرج تحت هذا أيضاً الاعتقاد بأن رقص الشبان والفتيات في جراج «دون أولبيانو» ولقاءاتهم المستمرة فيه بالرغم من تحذيرات القسيس وشجْبه الدائم له قد أدى في النهاية إلى بكاء القسيس دما بدلاً من الدموع (وهو شئ قد ثبت بطلانه فيما بعد)، أو الربط بين ما كان يحدث في الجراج -الذي تحول إلى مرقص- وبين الكارثة التي حلّت بالقرية عام ١٩٥٢ عندما فاض النهر وأغرقها بالكامل، وكأن الكارثة كانت عقابا سماويا لهم لتمردهم على القسيس وعدم سماعهم لتحذيراته [الفصل الرابع].

(د) البيئة والمحيط الاجتماعي:

سبق وأن أشرنا إلى أن البيئات التى تدور فيها أحداث معظم روايات "دى ليبس" تنحصر في ثلاث: البيئة الريفية، الحضرية (الخاصة بالأماكن الشعبية) والمحيط الأسرى العائلى.

لكن اهتمام المؤلف بالتصوير أو العرض البيئى ليس هدفا فى حد ذاته وإنما يستخدمه كأداة لعرض مشاكل وعادات الطبقات الفقيرة سواء على مستوى القرية أو المدينة. وفى «الورقة الحمراء» نجد بيئتين: الريفية والحضرية. فالبيئة الريفية هى التى تسيطر على ذكريات "لاديسِ" وخطيبها "اليِكاثا". فمن خلال تلك الذكريات نتعرف على مشاكل القرية ومظاهر التخلف والجهل والفقر فيها: الفياضانات التى تهدد البيوت والمزروعات، الافتقار لأبسط الوسائل الحضارية، اختفاء المؤسسات التعليمية أو التربوية، تفشى الجهل والخرافات، عدم اهتمام المسئولين بمشاكل الريف، النزوح إلى المدينة لممارسة أهون الأعمال وأقلّها شأنا ...الخ (ونلاحظ كل هذا فى الفصل الرابع والسادس والثامن والتاسع والثانى عشر). كما يُلاحظ أن البيئة الريفية (والطبيعة أحد مكوناتها) ليست دائماً مسالمة وودودة بل أنها تحمل أيضاً فى طيّاتها الأخطار التى تهدد حياة سكانها، فهي بيئة مكفهرة صعبة المراس كما أنها الأم الرءوم ومصدر الخير والنّماء.

وفى عام ١٩٥٢ شرد الفيضان أهل القرية وخرّب دورهم وكان سببا في ترك "لاديسِ" مسقط رأسها إلى غير رجعة. ومن أحداث الفيضان نقتطع هذا المشهد الحزين: «بدأت المجموعة القاتمة المكوّمة فوق القمة بصحبة الأمتعة القليلة التى نجت من الفيضان تفقد أعصابها شيئاً فشيئاً وكلما وقف غلام وصاح بتلقائية: "أنظروا، هذه عنزة السيد پولى"،

وهو يشير إلى كتلة منتفخة مثل فقّاعة تسبح دون هدف فوق سطح الماء اللامع، ينبثق من أى مكان ذراع قوى ليجلسه بلكمة قاسية. بدا "الماركوس" وكأنه الوحيد الذى يستمتع بما يجرى هناك، لكن "براكسيدس" -الثعلب- كانت تعتريه لحظات يكاد أن ينفطر فيها قلبه وعندما انتزعت المياه الهادرة بقرته الدّاجنة من الحظيرة وتقدمت -منتفخة كمنطاد- يؤرجحها التيار حتى توقفت محصورة بين الأفرع العالية لشجر الجوز، على بعد عشرين مترا من القمة، شرع البراكسيدس فى ضرب رأسه بحجر والسبّ واللعن من بين أسنانه وكلما نظر إلى البقرة انتفض وكأن به مسًا من الجنون...» [الورقة الحمراء، ص٤٧].

وبعد هذه الواقعة بثلاثة أشهر عُثر على "الجالو" (والد "ديسى") غريقا فى قناة الساقية: «فى البداية تحدث سكان القرية عن حادث انتحار، لكن "دون فيديريكو" (الطبيب) نفى هذا لأن الأمر ببساطة يتلخص فى أن "الجالو" أغمى عليه أثناء شُرْبه من قناة الساقية ولأن دمه كان ثخينا جدا فلم يستطع الجرى فى العروق؛ كما يحدث بالضبط للساقية التى يمتلأ باطنها بالطين فلا يتدفق منها الماء» [ص٤٩].

أما البيئة الحضرية فتمثلها المدينة الإقليمية التى تدور على أرضها معظم أحداث الرواية، لكن الوصف الذى يقدمه المؤلف لتلك المدينة قصير وأقل تفصيلاً مما عرضه للبيئة الريفية، كما أنه يركز على الجوانب السلبية فيها ويصرّ على دوران عجلة الأحداث فى أحياتها الفقيرة. فالعجوز "إلوى" يسكن بيتاً متواضعاً، وتنحصر تنقلاته بين أماكن متواضعة مثل الشارع المؤدى إلى المقابر أو الحديقة العامة أو محل نظارات صديقه القديم "باتشيكو".

و"البيكاثا" هو الآخر عندما قدم إلى المدينة لتأدية الخدمة العسكرية كانت تنقلاته تكاد تكون محصورة بين معسكر التدريب والميدان العام والحوانيت المتواضعة أو التنزه فى الحديقة العامة بصحبة خطيبته التى

لم تكن تعرف من المدينة سوى الكنيسة القريبة. فالكاتب لا يعمد فى البيئة الحضرية إلى التفصيلات بل يقدم نتفا قصيرة تلقى الضوء على طبيعة الشخصيات وسلوكياتها وردود أفعالها تجاه الظروف المحيطة بها.

أما فى البيئة الريفية فإنه يهتم بالجزئيات الصغيرة والتفصيلات الدقيقة -سواء كان الأمر يتعلق بتصوير البعد النفسى اللشخصيات أو تصوير المحيط الخارجى للأحداث-، وهذا يعطى الانطباع بالبطء فى عملية السَّرْد والانتقال من حدث لآخر(١٨).

(هـ) الدعابة والسخرية:

من المعروف أن "دى ليبس" أستاذ قدير فى استخدام الدعابة والسخرية بدرجاتهما المختلفة. وتكمن السخرية فِي قصد معنى آخر غير المتلفظ به وغالباً ما يكون المعنى المضاد، ويُراد بها التعريض بشئ ما أو بإنسان معين..

وتأخذ الدعابة نفس تكنيك السخرية إلا أن لها بعداً إضافيا يتمثل فى التلميح بأن المعنى المراد (الغير متلفظ به) هو الأصوب والأدق، كما أنها لا تهدف إلى مهاجمة شخص أو شئ معين بل انتزاع البسمة على حسابهما دون تعريض.

وفى روايات "دى ليبس" يزداد عمق هاتين المهارتين كلما تقدم العمر بالكاتب واتسعت خبرته، بمعنى أن رصيده منهما ينمو عملا بعد آخر.

وفى الرواية التى نتحدث عنها تطلّ الدعابة والسخرية وإن كانت الأولى هى الأوضح والأغلب وتعتمد أحيانا على اللغة والكلمات المستخدمة وأحيانا أخرى على المواقف أو جملة الحدث.

ويُلاحظ أن المؤلف يخص بالدعابة الودودة البطل "إلوى" بينما يوجه سخريته وتهكمه إلى نفاق وخبث بعض الشخصيات المحيطة به. ففى حفل العشاء الذى أقامته المصلحة لوداع العجوز بعد إحالته إلى المعاش وحضره عمدة المدينة وسيطر عليه الملل من جانب الحاضرين يطالعنا هذا المشهد الساخر: «نهض العمدة متثاقلا فأوقف التصفيق الفاتر للحاضرين بمجرد أن بدأ، ودون أن يعطى للعجوز وقتا لكى يطوى المنديل الذى انتهى من تمريره على طرف أنفه، أخرج من العلبة التى نزع غلافها التوّ ميدالية فضية وقلّدها للعجوز فى نفس الوقت الذى كان يردد فيه: اعتبر الوزير أن تفانيك فى الخدمة لمدة ثلاث وخمسين سنة بلا انقطاع يجعلك أهلا لهذه القلادة التى أضعها على صدرك نيابة عنه. ثم ربّت على كتفه، ابتسم بفظاظة، صفق ثلاث مرات فى غير حرارة، نظر إلى ساعته من جديد ثم أسَرَّ فى أذن العجوز: ببساطة كان حفلا مثيراً للمشاعر» (ص١٨).

فالتهكم فى الفقرة السابقة مبعثه التناقض الواضح بين تصرفات العمدة (وكلها توحى بالملل والضيق) وبين جملته الأخيرة (ببساطة كان حفلا مثيرا للمشاعر) والتى تتناقض كذلك مع جو الحفل العام. فنفاق العمدة هو المقصود بالتهكم وإن لم يتلفظ به.

ويظهر التهكم والسخرية بشكل أكثر حدّة خلال الدروس التى كان يعطيها العجوز "إلوى" لخادمته كى يعلمها القراءة والكتابة. فلكى يدربها على القراءة كان يحضر لها الصفحات الأولى من الجرائد اليومية والتى تشتمل على عناوين ضخمة بارزة مكتوبة بحروف كبيرة. والمانشتات،الرئيسية للصحف اليومية كانت تتناول أخبار الزعيم فرانكو (الدكتاتور العسكرى الذى حكم اسبانيا من ١٩٣٩إلى١٩٧٥) وكلها مثل:

«فرانكو يزور شلال ليريدا» وأحفاد الزعيم يمرون من تحت عباءة عذراء البيلار» «الزعيم يستقبل الملك سيمون» تقليد فرانكونيشان الاستحقاق الإكوادورى».. الخ.

فالتهكم والسخرية هنا نابعان من التناقض المرير بين ما تبرزه الصحف بالفعل على صفحاتها الأولى وبين مايجب أن يكون وهو الاهتمام بما يجرى على الساحة العالمية أويما يقلق المجتمع الأسبانى ويؤرقه من مشاكل وقضايا فالكاتب يخرج لسانه تحت هذا « التوازن التعبيرى البارد» من كل ما كانت تعتبره أسبانيا الرسمية فى ذلك الحين من الأمور العظيمة المستحقة للتنويه والتجسيد، وهى.. فى الحقيقة ـ مجرد توافه لاتصدر إلا عن منافقين وضعاء.

وقد تعتمد الدعابةأحيانا على محاولة إثارة البسمة الخفية أو الضحكة العالية من خلال مشهد جاد أو حزين فعندما قام «دون أوليبانو» ـ أحد أغنياء القرية ـ بتحويل جراج السيارات الذى يملكه الى مرقص. هاج قيس القرية (دون خيرونيمو) وماج وكان لايدع مناسبة تمر دون مهاجمة هذا العمل اللا أخلاقى: «وفى القداس وفى الجنائز كان يضج بالصياح من على المنبر بينما يحرك ذراعيه مثل ريشتى مروحة ـ قائلاً بأن أفضل مصير للجراج هو الحرق وعند الحديث عن تلك الأشياء كان ينفعل بشدة ويظهر على شدقيه زبد أبيض وعلى درجات السلم يتساقط رذاذ دقيق متواصل..» (ص٤٤).

وفى وسط كارثة الفيضان، والهم والغم يسيطران على الجميع بسبب تخريب الممتلكات، يرسم الكاتب هذه الصورة المضحكة للقسيس:

«أما دون خيرونيمو الذى يشبه بشحوبه وقامته الفارعة الصلدة والطين على عباءته ميتا خرج توا من قبره فقد كان يستحثهم على السجود والدعاء لله بأن يقلع المطر كما كان يؤكد لهم أن الفيضان

عـقـاب من السـمـاء على الذنوب والآثام التى يقتـرفـونـهـا أيام الآحـاد والعطلات فى الجراج وبما أن الفيضان كان قد فاجأ دون أو لپيانو «فى المدينة. حيث ذهب لتغيير أحد إطارات الجرار الزراعي، فلم يتمكن «دون خير ونيمو» من الاحتداد ضد شخص بعينه وكان يتحدث بوادعه واستسلام دون أن يتولد الزبد على شدقيه» (ص٤٦ , ٤٧).

وهكذا فإن روح الدعابة والتهكم عند كاتبنا كان لها الفضل فى تخفيف القسمات الدرامية. المشبعة بالألوان القاتمة ونأت بها عن السقوط فى بحر التشاؤم والفظاظة.

(و) فكـــرة المـــوت :

يعترف الكاتب بأهمية هذا الموضوع فى أعماله قائلاً: «موضوع الموت يلازم أعمالى» وأكثر من هذا أقول: أنه يتملكنى ويسيطر على.. وأنا صبى، على سبيل المثال، كان يخطر ببالى عند وصولى إلى درجات سلم بيتنا أنه سيأتى يوم ويهبط فيه من على نفس الدرجات نعش أبى. وهذه التخيلات التى كنت أحتفظ بها لنفسى ولا أصارح بها أحدا، ظلت تراودنى باستمرار حتى تحولت إلى فكرة ملحة» (١٩).

ومن هنا لانستغرب أن يكون الموت موضوعا شديد الإلحاح فى روايات «دى ليبس» ومفتاحاً للتعرف على رؤيته للعالم. فالموت عنده هو الذى يعطى أهمية لتواجدالفرد على ظهر الأرض. ومن خلال المشاهد والأحداث التى تغص بها رواياته يظهر الموت كخاتمة أليمة لوجودنا فى هذا العالم. وإن كان هذا لايعنى نهاية المطاف أو انقطاع الأمل بالنسبة للإنسان لأن الله موجود. وفى عبارة أخرى نقول أن الخوف من الموت عند الكاتب يتلاشى شيئاً فى ظل الإيمان بالله إلى أن يتحول إلى ظاهرة

طبيعية مألوفة، ولذاتتعاظم رغبة «دى ليبس» فى الصراع من أجل الإنسان فى اتجاه إخاء عالمي وفى نفس الوقت فإن إيمانه بتفرد روح الإنسان يمنعه من قبول أى نظرية تدعو إلى ذوبان هوية الفرد فى قوميته أو صهره ضميره ودمجه فى ضمير عام مشترك .. فالموت لايمثل مشكلة وجودية للكاتب وإنما يعتبر الهم الأكبر الذى يشكل جزءا أساسيا فى الشخصيات.

وفى الرواية نجد أن البطل «إلوى» تسيطر على كيانه فكرة الموت، حيث أنه يكرر بمناسبة وبغير مناسبة هذه العبارة التى ساقها على مسامعه صديق له توفى منذ سنوات : «المعاش هو ردهة انتظار الموت كما أنه يربط بينها وبين الورقة الحمراء التى صادفها فى دفتر البفرة واعتبرها نذيرا بقرب النهاية التى لن تتأخر لأكثر من بضعة سنوات تماثل فى عددها عدد الوريقات المتبقية فى الدفتر بعد الورقة الحمراء.

ومن مظاهر إلحاح فكرة الموت عليه قيامه بعد موت الصديق الذى كان قد تبقى له (عيسى) بتحويل متوسط عمر الانسان من خلال العمليات الحسابية إلى سنوات وأشهر وأيام وساعات ودقائق وثوانى وقيامه بعد ذلك بحساب ما تبقى له من العمر بنفس الطريقة، لكن خوف العجوز من الموت وشبحه الملح لم يخرجه من إطار تدينه إلى نظريات علمانية بل إن الثقل الدينى المتمثل فى الايمان بالله قد حول شبح الموت إلى شئ مألوف وطبيعى ومن هنا تنطلق نظرته إلى الحياة على أنها مجرد «صالة انتظار» وأن الموت فيها ضروى حتى تتجدد وتسير إلى الامام. فأثناء عيادة العجوز لصديقه المحتضر جاءت على لسان العجوز هذه الكلمات التى أراد بها التسرية عن أخت المريض: «قال العجوز "إلوى" بوجه يكسوه الأسى أن الحياة مثل صالة انتظار والكل قابع فيها وبين الحين والحين ينادى مناد: التالى، وبهذه الطريقة يتجدد

العالم شيئا فشيئا لأن البعض يخرج بينما يدخل آخرون لكن طال الزمن أم قصر فإن الدور سيأتى على الجميع (ص١٨٨) وبعد أن توفى الصديق حزن عليه العجوز حزنا شديدا واستأجر له عربة جنائزية لكى تحمله إلى مثواه الأخير«كانت العربة الكارّو السوداء وعلى جانبيها الملائكة المذهبة تتقدمها مصدرة دوياً، وأفرغ أحد الجوادين عند المرور بمبنى المحكمة ما فى جوفه بحرية تامة تاركا فوق الأسفلت عُقْدا من الروْث»

وتْلقى لا معقولية هذا المشهد (إفراغ الجواد لما فى بطنه) داخل إطار الحزن العميق الذى يعتصر العجوز بظلالها الرمزية على لا معقولية الحياة ذاتها والتى لا تزيد لحسن الحظ عن كونها مجرد صالة للانتظار.

وتكملة لنفس المشهد السابق فإن التابوت عندما يصل الى المقابر يحمله أربعة رجال وينزلوه «قاع الحفرة بنفس البرود الذى يودع به فلاح بذرة فى قاع شقّ».

وبالطبع فإن البذرة التى ألقى بها الفلاح فى الأرض سترتفع فى الغد ساقا وثمرة وكذلك الأموات عند إلوى. ومن خلال هذا المفهوم فإن الموت والحياة جزء لا يتجزأ من تواجد الإنسان على الأرض كما أن الحزن ذاته جزء من كياننا المؤقت فى هذا العالم الدنيوى ومع هذا لا يجب أن نستسلم له أو نسمح له بأن يقضى علينا لأن الله موجود ولا ييأس من روح الله ورحمته إلا من ينكر وجوده .

وفى المقابل فلسفة ظاهرتى الموت والحياة المرتبطة بالتدين الواعى العميق يُلاحظ فى الرواية نظرة أخرى للموت ترتبط بالفهم السطحى للدين من (وجهة نظر الكاتب بالطبع) فالخادمة لاديس قد فقدت والديها وأخاها لكنها تتحدث عن موتهما فى لامبالاةٍ دون أدنى تدبّر أو إعمال للفكر أو ما يشير إلى تأثرها حسيًا أو شعورياً .

وتلاشى رد الفعل العميق من جانب الطبقة الشعبية الجاهلة يرجع إلى فهمها الضيق والسطحى للدين فهذه الطبقة تعتقد تبعا لرؤية الكاتب أن الدين عبارة عن جنة ونار وعدد من الأوْراد والصلوات لطرد الأرواح الشريرة وجلْب الحظوظ السعيدة ولا يدر بخلدها ان للدين منهاج يرمى إلى نشر العدالة وتحرير جوهر الإنسان من العبودية لغير الله وتعميق مظاهر الود والإخاء بين بنى البشر ويرى «دى ليبس» أن ترويج السلطات الرسمية للفهم السطحى والضيق للدين بين الطبقات الشعبية إنما يهدف فى الأساس لصرف هذه الطبقات عن النظر فى مشاكلها الاجتماعية والمطالبة بحقوقها المسلوبة.[٢٠]

(ى) اللغة العامية أو الدّارجة :

أشرنا فيما سبق إلى أن دى ليبس يهتم بالطبقات الشعبية وبأنماط حياتها ومن الطبيعى أن يهتم بنفس القدر باللغة التى تعبر به هذه الطبقات عن أفكارها وأحساسيها ومشاعرها. وهو فى هذا المجال يبذل قصارى جهده ليجعل لغة التعبير مناسبة لطبيعة الشخصية التى تتحدث بها : فالمثقف له مفرداته وأدواته التعبيرية الخاصة وكذلك الفلاح أو العامل أو الطفل أو من يقومون بالأعمال الدنيا مثل الخادمات ...الخ أو كما يقول الناقد " مانويل ألبار" فإن شخصيات "دى ليبس" تتحدث كما تعرف (طبقا لموروثها اللغوى وعلى سجيتها) لا كما ينبغى لها أن تقول والكاتب لا يفرض عليها لغة معينة لأنه يريدها مخلوقات حية (من لحم ودم) تطابق الواقع الذى تعيش فيه».[٢١]

ولما كان السواد الأعظم من شخصياته أميا وفقيرا ومتخلفا (بمقياس التقدم المادى البحت) فإن للغة العامية أو الدّارجة أهمية كبيرة فى رواياته

ومن خصائص هذه اللغة وسماتها نذكر: كثرة المصطلحات الشعبية بها؛ الإكثار فيها من التشبيهات بأشياء محسوسة؛ تواجد الأمثال والحكم الشعبية؛ استخدام التعبيرات الجاهزة الموروثة؛ شيوع استخدام الالقاب (الذميمة فى معظم الأحيان)؛ لجوء المتكلم لاستخدام الإيماءات والحركات الجسمانية لتوضيح ما يقول؛ استخدام «التكئات» اللغوية: أى الألفاظ الزائدة الغير ذات معنى بالنسبة توطئة للدخول فيما يراد التعبير عنه؛ إلحاق أدوات التعريف بالأسماء الأعلام؛ عقد المقارنات والإكثار من التشبيه بالأشياء المحسوسة؛ استخدام عبارات الغزل المكشوف المصحوبة أحيانا ببعض الحركات الجريئة؛ اللجوء إلى تعداد الأشخاص أو الأشياء فى المواقف المشتركة بينها؛ التهتهة أو التلعثم عند الشروع فى الكلام .. الخ. وبالطبع فإن القارئ بإمكانه التعرف على هذه الخواص من خلال القراءة الواعية للرواية ، ولذا سنكتفى لعدم الإطالة بذكر بعض الأمثلة :

يلحق الكاتب أداة التعريف (أل) (EL) بالإسم العلم المفرد المذكر وكذلك أداة التعريف (لا ـ La) بالعلم المفرد المؤنث

وفى الرواية يُلاحظ أن هذه الخاصية تنسحب فقط على أسماء شخصيات الآحياء الشعبية أو البيئة الريفية التى لم تنل حظا من التعليم أو الثقافة ولذا نجد آن جل أسماء من ينتسبون إلى القرية بها أداة التعريف المناسبة : مثل "البيكاثا" (ElPicaza)، "الجالو" (ElGalo) "الدلفين"، "الأوتروبيو"، "الأرخيمرو"، "لاديس" (LaDesi)، "لامارثى" (LaMarce) "لاكايا"، "لاسلبينا" ...الخ.

أما المتعلمون أو المثقفون (ومعظمهم يتركز فى المدينة) فلا تلحق أسماءهم أداة التعريف. وعلى صعيد البيئة الحضرية نذكر: "إلوى" (Eloy)، "باتشيكو" (Pacheco)، "جويتو"، "ليونثيتو"، "بولدو بومبو"، "سوثيسو" (زوجة ابن العجوز) ....الخ.

وعلى صعيد القرية نذكر إسم القسيس "خيرونيمو"، "أولبيانو" [أحد أغنياء القرية].

واستعمال عبارات الغزل المكشوف المصحوبة بحركات جريئة نلاحظه فى أماكن متفرقة من الرواية، وكمثال نشير إلى معاكسة" البيكاثا لخطيبته أو معاكسات المجندين للخادمات فى الشوارع والحدائق العامة . ففى الفصل الرابع عشر نجد أن «لاديس» تفضل اصطحاب البيكاثا إلى الأماكن العامة وتجتهد فى عدم استقباله فى البيت هربا من مضايقته لها، وبالرغم من هذا فإن البيكاثا –بجرأته المعهودة– لم يكن يتورع عن إرسال لمسة أو قرصة متعمدتين. كانت تضحك وتقول له: إلزم الهدوء. فيغمز لها بعينيه: يا... يا حلوة! وعندها ترد عليه بدلال وهى تدفعه بيديها: يا قذر!».

ونلاحظ فى هذه الفقرة أن البيكاثا يتلعثم ويتهته عندما يشرع فى الكلام: (يا... يا حلوة!) ويمكن أن نتعرف على المزيد من خصائص اللغة العامية أو الدارجة من خلال الحوار التالى بين العجوز وخادمته، كما يمكن ملاحظة الفرق بين حوارهما وبين لغة الكاتب (الراوى) المنتقاة: «الآن، ترمق لاديس» ملتاثة الخطَّ المُنمَّق للعجوز من فوق كتفه. قالت فجأة وقد عقدت ما بين حاجبيها:

– مستعدة للتضحية بإصبعين من يدى علشان أقدر أكتب زَيَّك، شُفْت.

– آه، أنت يا بنتى؟ –بسط يده فوق الأوراق وأعطاها القُصاصة.

نظرت الفتاة بإمعان لتشابك الحروف، لكن لم يجذب انتباهها سوى الصورة الفوتوغرافية.

– هيّا! –قالت أخيراً– طلّعوك حلْو فى الصورة. مش كده؟» (ص٣٢)

ففى هذا الحوار لجأت الفتاة إلى استخدام جملة جاهزة: (مستعدة للتضحية بإصبعين من يدى) وهى تُستخدم عادة للدلالة على الاستعداد لبذل الغالى والنفيس من أجل الحصول على شئ معين. كما أنها ذكرت

كلمتين (تكئات) يمكن الاستغناء عنهما (شُفْت، هيّا). هذا بالإضافة إلى كثرة استخدام الكلمات العاميّة: (علشان- زيّك- مش كده- طلّعوك)، وإلى الحركات والإيماءات التى تفصح عما يعتمل بصدرها: ولذا فإن شدة اهتمامها بما يكتبه العجوز وشدة استغرابها لما يخطّه بقلمه جعلاها تعقد ما بين حاجبيها لتقول...

فالنص يحتوى على ثلاثة مستويات لغوية: المستوى الدّارج وينطبق علي كلام الخامدة، ثم اللغة الفصحى العادية ويمثلها العجوز بثقافته المتواضعة، ثم المستوى الأرقى ويمثله تدخّل الرّاوى (الكاتب).

ومن خصائص اللغة العامية -فى الأسبانية- الميل إلى عقد المقارنات والتشبيه بالمحسوسات لتجسيد المعنى أو بغرض التشخيص، ومنه نذكر تشبيه "لابيسِ" حساسية العجوز البرد وشدة تأثره به بالقط الذى ينتفض من البرد خلال شهر أغسطس الحار: «أنت أشدّ حساسية للبرودة من قطّ يتأثر بها فى أغسطس».

كما تظهر خاصية تعداد الأشخاص والأشياء فى المواقف المتشابهة بشكل ملحوظ فى ذكريات الخادمة الخاصة بقريتها كما فى ذكريات العجوز.

وهكذا يتبين أن المستوى اللغوى العامىّ وإن كان هو الأكثر وضوحاً فى الرواية إلا أنها تحتوى على مستويين آخريين: أحدهما يتعلق بالشخصيات الحضرية المتعلمة، والثانى الأرقى لغويا الذى يخص الكاتب (الرّاوى) عندما يدلى بدلوه فى التعليق أو التمهيد للأحداث.

ولعدم الإطالة نكتفى بما ذكرناه عن رواية «الورقة الحمراء» التى استطاع فيها "دى ليبس" -بلغته البسيطة العفوية التى تتخللها الدعابة الظريفة والسخرية المرّة- تجسيد شخصيات تنضح إنسانية وتعتبر نموذجاً للنضج والإتقان الروائيين.

هوامش البحث

1- Eugenio de Nora: "La novela espanola contemporánea (1939-1967) gredos, Madrid, 1973 (2ªed.), pp. 112-113

2- Edgar Qauk: "Miguel Delibes: Desarrollo de un escritor (1947-1974)." gredos, Madrid, 1975, p.18.

3- Ibidem, p.18.

4- Ibidem, p.19.

5- Maximiliano Álvarez: "Vida y obra de Miguel Delibes" (Tesis doctoral). Universidad de Salamanca, 1964, p. 106.

6- Leo Hickey: "Cinco horas con Miguel Delibes: el hombre y el novelista". prensa Espanola, Madrid, 1968, p.215.

7- César Alonsa de los Rios: "Conversaciones can Miguel Delibes". Magisterio Espanol", Madrid, 1971, p.108

8- Véase: Ramona F. del Valle Spinka: "La conciencia social de Miguel Delibes". Eliseo Torres and Sons, New York, 1975, p.75.

9- Gonzálo Torrente Ballester: "Qanorama de la literatura espanola contemporánea". guadarrama, Madrid, 1961, I Vol., p.426.

10- Miguel Delibes: "Obras completas". Destino, Barcelona, 1966, I tomo , pp.8,9.

11- Véase: Ramona F. del Valle Spinka: "La conciencia social de Miguel Delibes", citado, p.124.

12- José garcia lópez: "Historia de la literatura espanola", Ed. Vicens - Vives, Barcelona, 1970 (15ªed.) , p.678.

13- Miguel Delibes: "Obras completas", citado, 1º tomo, p.9.

14- Alonso de lao Ríos: "Conversaciones......", citado , p.199.

15- Miguel Delibes: "La hoja roja". Ediciones Destino, Barcelona, 1988 (8ªed.) , p.19

16- Véase: Alfonso Rey: "La originalidad novelistica de Miguel Delibes". Universidad de Santiago de Compostela, 1975, p. 182.

17- Véase: Ramón Buckley: "Problemas formales en la novela española contemporánea". Península, Barcelona, 1968, p.86.

18- Véase: José g. lópez: "Historia de la literatura espanola", cit., p.678.

19- Alonso de las Ríos: "Conversaciones....", citado ,p. 37.

20- Véase: Edgar Pauk: "Miguel Delibes: Desarrollo...", cit., p.137.

21- Véase: Manuel Alvar: "El mundo novelesco de Miguel Delibes". gredos, Madrid, 1987, pp. 27-30.

22- للتعرف بالتفصيل على خصائص اللغة الأسبانية العامية أنظر المرجعين التاليين:

- Ramona F. del Calle Spinka: "La conciencia social de Miguel Delibes", citado, p. 150-164.
- Manuel Alvar: "El mundo novelesco de Miguel Delibes", citado, pp. 27-56.

-١-

للمرة الثالثة فى حياته يقوم العجوز "إلوى" هذه الليلة بدور البطولة لحدث ما. كانت المرة الأولى عندما تزوج؛ والثانية حينما انضم لجمعية التصوير الفوتوغرافى عام ١٩٣٣. قبل ثلاثة أعوام من هذا التاريخ قال له ذات يوم صديقه "پيپين باثكيث" أن المعاش هو ردهة انتظار الموت. لكن "پيپين باثكيث" انتقل إلى العالم الآخر، عام ١٩٣٣، دون حاجة للإنتظار فى تلك الردهة.

ليس سراً، أن أفضل أوقات حياته قد قضاها العجوز "إلوى" مع أصدقائه فى جمعية التصوير الفوتوغرافى. كان يقول لـ "باتشيكو" -صاحب محل النظارات ورئيسه فى الجمعية-: «باتشيكو، لو سعيت لكسب المزيد من المال فليكن هذا من أجل الصور الفوتوغرافية التى تعتبر اليوم نوعا من الترف». لكن العجوز "إلوى" لم يتعد أبدا صفته كهاوٍ. ذات مرة، هناك فى عام ١٩٣٢، عندما اجتاز "ليونثيتو" اختبارات الوظيفة، ابتاع على أقساط كاميرا "كونتاكس" ذات عدسة قطرها ٥ر٣ وعندئذ اكتشف حساسيته الشديدة، استعداده الجيد لفن التشكيل. التقط بعض صور ذات قيمة ثم أخلى طرفه من الجمعية. كانت تستهويه المشاكل الفنية ويواظب على حضور المحاضرات وعروض الصور المتحركة والثابتة.

ذات يوم، أخبره "باتشيكو" -صاحب محل النظارات- دون سابق إنذار: «دون* إلوى، ستتولى المهمة الأحد القادم». أحس بالخجل. قال: «ليس عندى ما يستحق يا بنى». لكن "باتشيكو" ابتسم: «ماأخبرتك به».

* دون (Don): لقب فى الأسبانية معناه "سيد"، وهو أشد خصوصية من "سنيور" (Señor) التى تحمل نفس المعنى- المترجم.

أصر العجوز، بصـوت خافت: «لا أجيد التعبيـر وصوتى ضعيف». ومع ذلك فقد وقع الأمر موقعا حسنا من نفس "لوثيتا". "لوثيتا"، امرأته، ما كان لهـا أن تتزوجـه أبدا، بل من رجل أكـثر وجاهة وثـراءً. لقد جعـلها "إلوى" تعيش فى مسـتوى متواضع للغاية صحـيح أنه عاش إلى جوارها ٣٦ عاما، لكنه لم يـصل أبدا لفهمها بالكامل. عـند العودة ذلك الأحد، من عرض الصور والتعليق عليهـا قالت له "لوثيتا": من أجل هذا الدور، البقاء فى البيت كان أفضل». أومأ فى خجل: «لقد حذرت "باتشيكو" فى حينـه؛ أخبرته أنـنى لست عبـقريا وصوتى ضـعيف، لكـنه أصرّ». ردت غاضبة: «لا يكفى مجرد القول».

تخيل العـجوز أن التصـوير يمكن أن يسدّ فـراغ التقاعـد عن العمل. فحص نفسه بعـناية فى المرآة الضخمة وشعر بارتيـاح. كان يرتدى البدلة المخططة التـى حاكها له "تـبيث"، الخيـاط الملكى عام ١٩٤١، ورباط العنق البـيكيـه* الرمـادى الذى أهدتـه له زوجـتـه عـام ١٩٤٣. كـان "موروخـيل"، زميله فى الـقسم، قد أخـبره اليـوم السابق: «سيحـضر العمدة؛ لقد كنت دائما محل تقـديره». لاحظ نفسه الآن بعينين ناقدتين، بعينى العمدة المـتفحصتين. بدا مسروراً بعد الفـحص. فقط فردتا الحذاء الأسود المائلتان من الجانب الأيمن أربكتاه قليلاً. قبل خمسة عشر عاما، عندما لم يكن البرد قد تمكّن بعد من جسده، كـانت قدما العجوز تعرقان وتشـوهان الحذاء. الآن الفـردة اليسـرى تؤلم ظاهر القـدم بعض الشئ: «عندما تسخـن سيزول الألم -قال لنفسـه-. ثم إن أحدا ليس له الاطلاع على المسـتور». استـدار نصف استداره وبحـركة بطيئـة أخرج المنديل من جيبـه. كانت حافتـا فتحتى أنفـه تلمعان قليلاً. تنظف العـجوز دون رنين، طوى المنديل وحفظه من جديد. بعد ذلك أطلّ بوجهه على الطرقة ونادى:

* البيكيه: نوع من القماش- المترجم.

- ديسِ

- سيدى!

وصله صوت الفتاة المتأجج قبل أن يتـجاوز وجهها الكليل، ذو البشرة الداكنة والجبهة الخشنة، باب المطبخ:

- يا للعذاراء! أو مأت الفـتاة إيماءة مبهمة، كـما لو كانت ترسم على نفسها الصليب.

- هل حدث شئ، يا ديسِ؟

ابتسمت الفتاة فأضاء الابتسام عبارتها العفوية:

- (إيه داكله، دا حضرتك ولا صِيّع مدريد*). أذاهب إلى حفل؟

- شى كهذا -أجاب العجوز-. ذاهب للتقاعد.

- التقاعد؟

- الإحالة إلى المعاش، يا بنتى.

- المعاش؟

- إنه القانون.

- ما القانون، يا سيدى؟

تنحنح العجوز متحيرا:

- حسنا، أظن أن القانون هو ذلك الشئ الذى اخترعه الإنسان لكى لا نفعل نحن الرجال كل ما يحلو لنا. أوضَحتُ أو لم أوضح، يا بنتى؟

---

* تشبه الفـتاة العجوز، فى الهيئـة التى رأته عليها، بعوام مدريد الذين يرتدون مـلابس معينة تتسم بعدم التـجانس والحذلقة، ويتصفون بالـتجاسر وقلة الحياء. وهذا ما قـصدته بكلمة (chulo) التى نعتت بها العجوز- المترجم.

هزّت كتفيها وابتسمت. كان مظهرها وعليها الدثّار البائس الذى لا يكاد يغطى ظاهر الركبة، والبنس فى شعرها ويداها الضاربتان إلى الحمرة، المنتفختان كضفدعتين، والخاتمان على بطنها يوحى بالخشونة والقبح:

- هل القانون سيئ، يا سيدى؟

لبس العجوز البالطو ولفّ الملفعة حول رقبته دون أن يجيب، فى أوقات معينة، كان حب الاستطلاع لدى الفتاة يثير أعصابه. قال وهو يقترب من الباب:

- عندما تتعلمين القراءة ستعرفين كل هذا الأشياء. ثم أضاف: لا تنتظرينى، يا بنتى، سأعود متأخراً.

بعد أن ضمّه مساء المدينة، فكر فى "لوثيتا" من جديد وفى جولاتها المسائية معه، عندما كان يتناول بالتحليل النقدى فوّهات بالوعات المطر وسلال المهملات العامة والأركان التى بها قاذورات فتنهره قائلة: «إلوى، أنتَ لا تعمل الآن؛ هذه الأشياء تخصهم». وتعنى «هم» العمدة ونواب مجلس البلدية. لكن العجوز لم يكن يتنصل أبدا، تحت أية ظرف، من صفته كموظف فى البلدية، بالرغم من أن "كرّاسكو" -زميله فى القسم- كان ينكل به بعد ذلك عندما كان يرفع إصبعه السبّابة ويشهره فى وجهه مخبرا إياه أنه دخل مجلس البلدية بالصدفة البحتة، بينما كان على أمثاله من الشباب خوض غمار الاختبارات. كانت "لوثيتا"، زوجته، تقول له: «إلوى، دع القمامة فى حالها وإلا لن أخرج من البيت ثانية معك». لكن ميوله كانت أشد منه قوة. ذات مساء، توقف العجوز "إلوى" فى الميدان الكبير، وابتسامه راضية تتدلى من بين شفتيه. «ماذا؟»، سألت "لوثيتا" المتحفزة دائما.

أشار إلى عربات النظافة الجديدة وإلى مكانس الخَلَنْج*. قال مزهواً: «يا امرأة، لقد استخدمنا هذه الخامات لأول مرة».

"لوثيتا"، امرأته، لم تفهمه أيضا وقتها. صاحت غاضبة: «بالله عليك، يا "إلوى"، دع التفكير فى القامة وإلا سيصيبنى الجنون».

كان يقول له العم "إرمنس"، الذى عاش معه العجوز، عندما لم يكن عجوزا وقتها، بأنه ورث الاهتمام بشئون البلدية عن أسلافه، حيث أن والده، الذى لم يكن قد صار بعد والده، كان دائم التوجه إلى الصحيفة المحلية مطالبا بالحفاظ على أصول اللياقة. أحيانا كان العم "إرمنس"، الذى كان بدينا قليل العافية وملازماً للجلوس، يعرض على العجوز، عندما لم يكن كذلك وقتها، إحدى الصحف الصفراء التى يرجع تاريخها إلى السنوات الأخيرة للقرن الماضى. كانت توجد قصاصة يقرؤها العم إرمنس بلذة خاصة، وعند الانتهاء من قراءتها يقول: «يمكن أن يكون "ثربانتس" هو الذى كتب هذا». لكن الذى كتبه لم يكن "ثربانتس" بل "إلوى نونيث" والعبارة الأخيرة فيه تقول: «ألا يوجد نظام يحدد للعمال التوقيت المناسب لإجراء عملية إفراغ سلال القمامة التقليدية تفاديا لإيذاء إحدى الحواس الخمس للمارة فى الساعات الأولى من الليل؟». والد العجوز، على حد تعبير العم "إرمنس"، كان يتمتع بموهبة أدبية، لكن آل "نونيث" يبددون دائماً ما لديهم من مواهب.

كان "موروخيل" -زميله فى القسم- ينتظره بجانب صيدلية "ديبجيث". فى المواجهة وُلدت لافتة جديدة مضيئة: «جاسپار، خردوات- عطارة»، تصبغ الرصيف ببريق مرتجف ضارب للحمرة. "موروخيل"، الفتى الدقيق المنضبط، ذو الملامح الصارمة كان قد أسرّ

* الخَلَنْج: إسم نبات- المترجم.

فى أذنه اليوم السابق بمــا يلى: «سيحضر العمــدة، دون إلوى؛ فقد كنت دائماً مــحل تقديره». "مــوروخيل" من هؤلاء الشبــان النموذجــيين الذين يرون فى زوجــاتهم أمــهــاتا لأولادهم فــقط، ومن هؤلاء الذين يُفَــضِّلون طموحاتهم على مقاس السلّم الوظيفى. وإذا صاغ "كراسكو" فى المكتب إحدى أفكــاره الثورية، مــثل قوله بأن صندوق التكافل مــا هو إلا نوع من السرقة، فإن "موروخيل" لكى يخفف من وقــع العبارة يسرع بالتأكيد على أن صندوق التكافل ليس نوعا من الســرقة بل صندوق للتوفيــر. كان جلد "موروخيل" ضاربا إلى الشُهبة كما لو كان لحمه آخذ فى التلاشى، وكان يرتدى الملابس الداكنة لأن الفاتحة -على حد قــوله- غير حضارية بالمرّة مثل التسكع بالشوارع والصراخ فيها أو الغناء بصوت عالٍ.

كانت تنتظر مجــموعة صغيــرة أمام قهوة "لوريانو" فأســرع العجوز وقال لـ"خيل": -هاهم رجال لجنة التــحكيم. آمل ألا يكون العمدة قد وصل قبلنا.

لكن العمدة كان فى الصالة، جالســا إلى المائدة المُعَدّة للمأدبة، وعند رؤيته للعجوز نهض واتجه إليه فتردد العجوز لأنه، بالرغم من خبرته، لم يكن يدرك الطريقة الملائمــة للتصرف أمام رئيس له خارج نطاق مــمارسته لاختصاصاته، ومدّ يدا متواضعة وباردة، تخــترقها عروق صفراء منتفخة، لكن العمدة تجاهلها وضمّه بكامله إلى صدره فى مودة:

- ظننتك ســتعملهــا فينا ولا تأتى- قــال له وهو يغمــره بابتســامة عريضة وبشوشة.

حيا العجوز الحضور بإشارة ودودة من يده بينما كان يجلس بين العمدة وبين "دون كاســتور"، رئيس القسم، ثم أخذ جــرعتين من النبيــذ الفاتح ليســترد شجاعته. كــان وجود كراسكو أمامه يؤرقــه. لكنهم عندما وزّعوا

الأطعمة وأخـذ جرعة أخرى من النبـيذ الفاتح، بدأ يفور بداخـله حماس يقترب من العدوانية. ولكى يمـارس الكلام قال للعمدة: «أتمنى أن يكون كل ما قـيل عن تثبـيت العاملين بقـسم النظافة مـجرد إشاعـة، فلنا -مع الأسف- تجربة قريبة ومحزنة فى هذا المـجال». لم يعترض العمدة بينما كان شدقاه يمضغان الطعام، أمـا "دون كاستور" -رئيس القسم- فقد أقرّ بأن «ما حدث عام ١٩٤٨ كان تجـربة مريرة، وأن ضمّ جميع العاملين إلى التشريع الوظيفى مأزق خطير».

أمام العـجوز كان "كـراسكو" يعد كـرات صغيـرة من لُباب الخـبز ويجعلها تتدحرج دون توقف على مفرش المائدة. كان العجوز يعرف أن "كراسكو" يريد أن يقول له «يا مُتَمَلِّق»، لكنه لم يعره اهتماما وغيّر من نوعية النبيـذ، أخذ جرعة من النبيذ الأحمـر الطبيعى لأنه، علاوة على ذلك، أراد أن ينسى عـبارة «بيبى باشـكيث» التى تقول «أن المـعاش هو ردهة انتظار الموت» والتى عـادت لتؤلمه. وكأن الأصوات تتـسلل عبر الضباب، تناهى إلى سمعه حـديث من جهة اليمين عن الأطباق الطائرة وآخـر من جـهـة اليسـار عن زيادة الـرواتب والأجور وعـندئذ فكّر فى "جويتـو"، ابنه الصغـير، الذى رحل وهو فى الثانيـة والعشـرين، مثل "باشكيث"، دون انتظار فى الردهة، وصـاح ليجـتلى: «خـلال خمـسة أعـوام سنسافـر إلى القـمـر دون صعـوبة تذكـر». أشار إلـيه "بيـريث بايسـتير"، مـساعـد لجنة التـحكيم، بإصبـعه الإبهـام وقال: (شـوفوا العجوز)، لكن العـمدة اعترف بأن العصـر الذّرى يمكن أن يحدث ثورة فى أشياء كثيرة، ومن بينها نظافة الحواضر.

انفرجت أسارير "مارتينيتو"، سائق عربة الرّش وقال: «الأطباق الطائرة ستغسل الشـوارع». عضّ "دون كاستور" شفته السـفلى لأن "مارتينيتو" تعود انتهاز فرصة ريّ الحديقة لكى يحمل الأطفال للفسحة فى عربة الرش

مقابل ريالين على كل رأس* وقد قامت الهيئة بتحذيره مرارا لهذا السبب. بعد قليل من الوقت، مدّ العمدة يده بخـفة من خلف ظهر العجوز ونقر بهـا على كتف "دون كـاسـتور" فنهـض وقال بصـوته الغـير منسـجم النبرات، نتيجة لتلف أحباله الصـوتية عام التيفود، «أنهم يودعون "دون إلوى" هذا المساء، لكنهم لا يقولون له مع السلامة بل إلى اللقاء، وأن "دون إلوى" بعد ثلاث وخمسين سنة من الخدمـة المتواصلة سيجد فى الهيئة دائما داره لأن القانون مهما عظمت سطوته لن يستطيع التغلب على المشاعر والأحاسيس».

انتـعش "دون إلوى" بإسـراف العـواطف الذى بدر من "دون كـاسـتـور" والتصفيق الحـماسى لزملائه، وعندما دعاه العمـدة لإلقاء بعض الكلمات، وقف على رجليه متكورا بعض الشئ، تنحنح بافتعال، مسح مقدمة أنفه بطرف المنديل وقال بصـوت حاد أنه عندمـا همّ بحضور هذا الحـفل جال بخـاطره اليوم الذى استخدمت فـيه الهيئة عربات النظافة الجـديدة ومكانس الخَلَنْج لأول مرة، وكيف أنه توقف يومـها وقال لزوجـته: «أنظرى، يا "لوثيـتا"، لأن "لوثيـتا" هو إسم زوجتـه، وعندها ثارت ثائرتها وطلبت منه عـدم ذكر القمامـة بتاتا والاستـصاب بالجنون. لكنه كان يفكر فى القمامة لأن الموظف الحق يجب أن يفكر فى شئون وظيفتـه كل ساعة. ولا يقتصر فـقط على ساعات الخدمة وكـيف أنه عندما قال لزوجته: انظرى، يا لوثيتا، ليطلعها على مكنسة الخَلَنْج فإنه كان يفعل ذلك بنفس الحماس الذى يقدم لها به فرشاة أسنان اقتنيت حديثا».

دحرج "كـراسكو" كرة جديدة من لباب الـخبز على مفـرش المائدة، فأغلق العجـوز عينيه وتوارى خجـلاً خلف كتف "دون كاستـور". انتهز العمـدة فرصـة إمساك الـعجوز عن الكلام لكـى يعدل من جلسـته، لكن

---

* الريال (Real) عملة أسبانية قديمة، وكان يساوى ربع بيزيتة- المترجم.

ابتسامتـه الودودة أخذت في التحوّل إلى تعويجة مبهـمة كلما طال حديث العجوز. وعندما كرر "دون إلوى" للمرة الثالثة -قوله بأن الموظف الحق يجب أن يبـرهن على صفـته الوظيـفيـة فى كل آن لأن المكتب يجب أن يكون امتداد للبيت والبيت امتدادا للمكتب تحـولت التعويجة المبهمة لفم العمدة إلى ايماءة بنفاذ الصبر.

كان صوت العجوز مثل وقْع عكاّز يرتطم بالأرض فى رتابة. بدا وكأنه فى غـيبـوبة. لم يحظ أبداً، ولا فى ليلة زواجه، باهـتمام أحـد لسـماع كلماته، وفى غمرة هياجه، لم يلاحظ نحنحـة "مارتينيتو" المفتعلة؛ ولا ابتسامة "كـراسكو" الساخرة؛ ولا النفخة الكاذبة التى يسـوى بها "بيريث بايستير" -مساعد لجنة التـحكيم- عقدة رباط العنق؛ ولا التثاؤب المكتوم لرئيس القسم، دون كاستور؛ ولا "فلاش" المصور الذى يمطره بوابل من الومضات عن كـثب؛ ولا -حتى- الضربات الوقحة التى يسـددها العمدة لحافـة المائدة بلفـافة صغـيرة كان قـد أخرجهـا من جيب سـترته. وعاد العجوز إلى التأكيد بأن شباب هذه الأيام يعتبرون العمل لعنة وأن الموظف الحق هو الذى يهـتم بشئـون وظيفتـه فى أوقات الراحـة أكثـر من أوقات الخدمة وأنه فى اليوم الذى أطلع فيـه زوجته على مكانس الخَلَنج الجديدة فإنه كان يفعل ذلك بنفس الحماس الذى يقدم لهابه....

نزع العمدة غلاف اللـفافة الصغيرة، وعندما انتـهى، ضغط على ورقة الغلاف بشدة فأحدثت صـخبا. بدا العجوز وكأنه استيقظ فـجأة واستقرت حدقتاه المـتعبتان على يدى العمدة الـعصبيتين، نظر العمـدة إلى ساعته، وعندئذ، تنحنح العجوز بافتعـال، مرر المنديل على طرف أنفه وقال إنه، لكى ينهى حـديثه، يريد فـقط أن يقول إنه دائمـاً اعتـبر المكتب امـتداداً للمنزل، والمنزل امتـدادا للمكتب وإنه أحس، عند تركه للهيـئة، وكأنهم أخرجوه من بيته وإنه، فيمـا بعد، كلما شاهد عربة الرّش أو عربة الكلاب

أو العـربة -القلاّب سـيـذهب قلبه فى إثـرهم، لأن عربة الرّش أو عـربة الكلاب أو العربة- القلاّب كانوا مثل قطعة منه وأنه لا يريد أن يثقل عليهم أكثر مـن ذلك. نهض العمدة متـثاقلا فأوقف التـصفيق الفاتر للحـاضرين بمجـرد أن بدأ، ودون أن يعطى للعجـوز وقتـا لكى يطوى المنديل الذى انتهى من تمريره على طرف أنفه، أخرج من العلبة التى نزع غلافها حديثا ميدالية فضية وقلّدها للعجوز، فى نفس الوقت الذى كان يردد فيه:

- اعتبر السيد الوزير أن تفانيك فى الخدمة لمدة ثلاث وخمسين سنة بلا انقطاع يجعلك أهلا لهذه القلادة التى أضعها على صدرك نيابة عنه.

ثم ربّت على كتفه، ابتسم بفظاظة، صفق ثلاث مرات فى غير حرارة، نظر إلى ساعـته من جديد ثم أسـرّ فى أذن العجوز: «بـبـساطة كان حـفلا مثيراً للمشاعر».

نهض الجمع واكـتفى العجـوز، الذى كان يتـهيأ للتـعبيـر عن امتنانه للمكافأة، بالابتسام وبهزّ رأسه مـرتين علامة على الرضا. عند الباب ربّت "مارتينيتو"، سائق عربة الرش، على كـتف العجوز إلوى وغمز له بعينيه ثم قال: «خـذ بالك من الميدالـية وغطّيهـا كويس». وضحك الجـميع. وعندئذ، اقترب "بيريث بايستير" -مـساعد لجنة التحكيم- وقال: «تصبح على خير، أظنك فى غاية الرضى». كان العجوز يؤَمِّن على كلامهم ويدع فى استـسلام يده الـضاربة إلى الصـفرة والمـرتجفة تـعتصـرها الأيدى، وهكذامـرّ عليه الجـميع فى صفّ، وأخـيراً، عانـقه "كراسكـو" بحرارة مفتعلة وقال له" «باختصار، لقد بقـيت أيها العجوز دون وظيفة كما بقيت أنا دون أب». وانفجر فى الضحك، لكن المجـموعة كانت قد أخذت فى التفرق وعاد البرد ليهبط فوق العجوز، برد غريب ينبعث من داخل الجسد ليتفرع بعد ذلك فى العروق والعضلات والأعصاب لكى يتسرب فى المساء من خلال مسام الجلد. أحكم الملفعة حول رقـبته وتنحنح وانتزع مصباح

الشارع من طرف أنفــه بعض الومضات الحــيّة. كان يتـصاعد من مــجرى النهر ضبــاب كثيف دقيق فظهر عــمق الشارع وكأنه حاجز ضــبابى. سمع خطوات زملائه تتلاشى على البعد وعندما أمسك "موروخيل" بذراعه من الخلف أرجع رأسه فزعاً :

- آه إنه أنت ! - قال مبتسما .

- لقد كان حفلاً جميلاً . أهنئك على كلمتك - قال «خيل».

- هيا - قال العــجوز ثم أضاف بعد ابتــسامة خجولة -: تعــتقد . . . تعتقد، حقاً، أنها كانت كلمة مناسبة ؟

كانت الرطوبة تخفف من وقع أقدامه على الأسفلت :

- كانت جــميلة، هذا مــا أعتقــد - تابع «موروخيل»- فــى مثل تلك الحــالات، من المناسب إفــساح المــجــال لحــديث القلب. وأنت تركت القلب يتحــدث فمــضى كل شىء على أحسن وجه. بــمعنى أن كل شىء سار على ما يرام فيما عدا الأخطاء التى وقعت من «مارتينيتو». كان عليهم منع أمثال هؤلاء الناس من الحضور.

رفع العجوز رقــبة البالطور لكى يخفى سروره. تملكه إحســاس عميق بالغبطة، كأنه طفل كان هدفا للتــكريم منذ قليل. قال، فجأة، وهو يمسك عن السير، لامسًا بخفة ذراع «موروخيل»:

- يحتــمل أن أكون قــد شربت أكــثر من اللازم، لكنــى حاولت التــحدث من القلب. شىء آخر لا، ولذا أعتقد أن ماقلته صحيح لأن كلامى كان نابعا من القلب.

كان ينظر بإصرار نحو «خيل» الذى استأنف الســير محاولا جر العجوز خلفه، لكن العجوز بمجــرد أن تقدم بضع خطوات عاد إلى الوقوف والنظر إلى «خيل» ثم سأله فجأة:

- أتعرف ما كان يقوله صديقى "باثكيث" عام ١٩٣٠؟

-ماذا ؟ - استفسر «خيل».

-كان «باثكيت» يقول أن المعاش هو ردهة الإنتظار للعالم الآخر، ما رأيك ؟

تململ «موروخيل». حاول من جديد استئناف المسير، لكن الضغطة الخفيفة ليد العجوز على ساعده أجبرته على التوقف. تأمل عينيه المنهكتين ثم قال :

- ترهات ! وبما أن التردد قد ظهر على وجه العجوز فقد أضاف بحرارة: - أكاذيب !

بدأ العجوز وكأنما دبت فيه الحياة :

- هذا ما أظنه. لقد رحل «باثكيث» نفسه دون انتظار فى الردهة. وابنى «جويتو»، فى الثانية والعشرين من العمر.

كانا مثل شبحين بين الضباب، ينتصبان وسط الميدان الخاوي. أحس العجوز بغصة فى حلقة، وأخيراً اعترف:

-يجوز أن «باثكيث» كان مبالغاً،لكن الورقة الحمراء قد طالعتنى فى دفتر البفرة* قبل الحفل بساعات.

على حدقتيه المرتجفتين تعلقت بقايا من طمأنينة. أضاف بصوت حاد:

-(لسّه) باقى خمس ورقات.

ترك نفسه لـ «خيل» يسحبه بعد أن أخذه من ذراع. كان العجوز «إلوى» يتحرك متعثراً، مظهرا مقاومة غريزية، لكن عندماهم بالإصرار على وجهة نظره، أمطره «خيل» بوابل من الكلمات:

---

* دفاتر البَفْرة التى كانت تستخدم فى لفّ التبغ (وخاصة بعد الحرب الأهلية الأسبانية، زمن أحداث الرواية) كان يحتوى معظمها على ورقة حمراء قبيل انتهائه بخمس ورقات. وكانت هذه الورقة الحمراء بمثابة تحذير للمستهلك بقرب انتهاء الدفتر. وأظن أن نفس النظام كان متبعا فى أوراق البفرة فى مصر حتى وقت قريب- المترجم.

- ترهات. اليـوم رجل فى السبعـين ليس عجـوزاً، وضع هذا نصب عـينيك، يا «دون إلوى». قال القـانون سبـعيـن مثلمـاكان يمكنه القـول تسعين. المعاش مكافأة.

اليوم رجل فى السـبعين ليس بعـجوز. يمكنك الآن تخصـيص وقتك فيما يحلو لك؛ لهواية التصوير مثلاً.

بينما كـان يثب فوق البـلاط، رمق العجـوز بطرف عينه صـديقه الذى يشبـه جلده الأصفر الضـارب للخضرة - بفعل الـصيام وضوء المـصابيح الفـاتر- جلد مـيت. كان ضـغط يد «خـيل» على سـاعده يزداد بمـضى الوقت. وأمام بوابة بيـته تركة فانتهـز العجوز الفرصـة لكى يمرر المنديل على أنفه بنعومة. أرقته فكرة البقاء وحيدا فى غرفته. قال بعناد فى محاولة لكسب بعض الوقت:

- لازالت هناك خمس ورقات يا «خيل».

كانت المفـاتيح تصلصل فى يده المرتجفة. أخذه «خـيل من منكبيه، لكى يعيد إليه حماسه، وقال:

- مجـرد رغبـة فى الكلام. بعـد أن تنام ستـفكر بطريقة أخـري. إنه العشاء والنبيذ والميدالية وما إلى ذلك. تصبح على خير، يا «دون إلوى».

لكنه لم يكن قد وصل إلى الناصـية عندما أحس بوقع خطوات وراءه. كان العجـوز «إلوى» يخب فى غير رشاقة فى ظلمـة الشارع وعندما وصل إلى مـحاذاته كـان يلهث بصعـوبة وابتسم له وكـأنه يطلب العفـو. وضع المفاتيح فى جيبه وقال متلهفا :

- إذا لم يكن لديك مـانع يا «خيل» سـأرافقك إلى بيتك. لـقد أكلت كثيراً فى العشاء، ومن المناسب القيام بجولة.

-٢-

فى بيت من القرن الماضى ينفتح رأسيا مسقط موحش للضوء تضفى عليه الأصوات والضحكات التلقائية للخادمات حيوية وبهجة. وبالنسبة للفتاة «ديسى» فإن ذلك المسقط يعتبر أحد الأسباب الرئيسية التى تربطها بالحياة. كانت تمضى يوميا عدة ساعات وهى مستندة بكوعها على حديد الشرفة، تثرثر مع زميلاتها. وعادة مايحدث هذا عند المساء، فى الوقت الذى يخرج فيه العجوز للفسحة مع صديقه عيسي. كانت تصيح فيها، أحيانا صديقتها «لامارثى»، التى تخدم فى الدور الثالث: «هيا، يا حلوة، لو قلت لواحدة أنك؛ لازلت ترتبطين بالعجوز مقابل مائتى بيزيتة فلن تصدقك».

اعتادت «لامارثى»، صديقتها التى تعمل فى الدور الثالث، على أن تدس أنفها فيما لايعنيها. وعلى سبيل المثال، فقد كانت «لامارثي» تؤكد بأن العجور مليء بالغرائب ولكنها كانت تقول ذلك بلهجة ساخرة ومجعدة فمها كما لو كان العجوز ممتلئا بالهوام بدلا من الغرائب.

لكن «لاديسِ» كانت تعرف أن لكل إنسان عيوبه و«لامارثى» نفسها، بعد السير عدة مرات فى الممشى الرئيسى للحديقة أمسيات الآحاد كانت تضطر للجلوس على حافة الرصيف، حتى فى شهر ديسمبر، لأن قدميها مفلطحان ويؤلمهما الحذاء.

وعلى أيه حال فإن العجوز لم يكن أكثر امتلاء بالغرائب من أى كائن آخر، والدليل على ذلك، أن غرائب العجوز لم تكن تتجاوز الحد ولم تكن تطير النوم من عينى «لاديسِ».

وهكذا، فـإن حسـاسـية العـجـوز الشديدة للبـرد ووضـعه السـروال والصديرى والسترة على الغطاء؛ أو نومه دون خلع المنطقة والجورب؛ أو بقاؤه راكعـا خلال نصف ساعة بعد الأكل لكى يسهل عـملية الهضم ؛ أو تمضيتـه الآحاد المشمسة فى الـشرفة لالتقاط صور والكامـيرا فارغة ؛ أو صحوه المـبكر عند الفجر - فى الربيع والصيف - للتغـوط بين الأشجار الكثيفة للحديقة، كانت أشياء لا تسيئ إلى أحد ولاتعكر صفو الغير.

قد يكون الأمر أسوأ من ذلك لو صعـد إلى رأس العجوز المشى لمدة ساعة يوميا حافى القدمين على أرضية الحمام الرطبة لعلاج صداع الرأس، كما يفعل مخدوم «لاتاسيا»، أو مجـرد الذهاب إلى القهوة بعد العشاء كما يفعل مخدوم «لامارثى».

صحيح أن مخدوم «لامارثي» لم يكـن أرملا ولهذا فهى لاتظل وحيدة فى البيت بالرغم من خـروجه كل مساء. ولم يكن فى مـقدور «لاديسى» تحمل وضع مـشابه فهي- بالـرغم من انتفاء صـفة الجبن عنهـا - تخاف الوحدة منذ طفولتها وخاصة أثناء الليل .

ومن هنا فقد طلبت اليوم السابق من «لامارثى» مصـاحبتها لأن سيدها ذاهب لحفل تقاعده وسـيعود متأخرا. واستجـابت «لامارثى» - كالعادة - دون مزيد مـن الرجاء، ولكن بعـد أن تأخر العـجوز تركـتها وحـدها مع صريرالأثاث الموحش والـ تك - تك السريع والمتـواصل للساعة المعلقة فى الصالة.

لم تمر «لاديسى» بمثل هذه الساعات. وبما أنها كانت قصيرة النفس، حسب ادعاء زوجة أبيـها، وقد غطت نفسها بالملابـس حتى منبت شعرها فإنها كانت على وشك الاختناق عدة مرات. ورغما عنها، وجدت نفسها تفكر فى «لا أدريانا»، جـامـعة الـصمغ وفى مـوسى، الفـتى الذى

احتـرق وجهه فى فـرن الهندباء* والذى كان يطوف بشـوارع القرية وهو ملفوف بملاءة لتخويف الناس خلال الليالى التى كانت تدق فـيها الأجراس للتذكير بأوراح الموتي. مـر وقت لم تكن «لاديسى» تميز فيه بين الـ تك . . تَك السريع لقلبـها وبين الـ تك-تَك المتلاحق لساعـة الصالة وعندئذ همت بالصياح لكنها لم تفعل وبدلاً من ذلك تكورت فى سريرها وأخذت تصلى . رددت ٢٣٦ مرة «مع الله أنـام، مع الله أستيـقظ، مع عذراء لاجـيا والروح القدس»، لكن صـورة « لا أدريانا»،جامعـة الصمغ، كانت تتـراءى لها من جديد بعـد كل مرة تنتـهى فيـها من ترديد تلك الصلوات. تكـرر هذا حتى سمعت مفتاح العجوز فى القفل فاستسلمت للنوم راضية.

لم يدر بخلدها الآن لوم «لامـارثى» لأنهـا تركتـهـا وحدها. فـقد كـانت «لامارثى» تعمل مثل حمار وبين عملها وقدمـيها المفلطحين كانت تختتم اليوم وهى فى حالة يرثى لها. وعلى كل، فـقد عاملتها «لامارثى» دائمـا كأخت لها وعندما وجد «أوتيكيو»، الحارس- المُحَلِّف*، أباها ميتا فى قناة الساقية وكتبت لها أربعة أحرف، من القرية، أجابت «لامـارثى» بمجرد وصول الخطاب حتى أنها ذهبت لاستقبالها، بعد أسـبوعين، على محطة أتوبيس القرية عندما علمت بموعـد وصولهـا. كانت «لامـارثى» ابنة عم «فيـفين»، صاحب الـطاحونه، و«لامارثى» نفسها هى التى بحثت لها عن عمل فى بيت العجوز.

وبغض النظر عن تصـرفاتها فـقد كانت «لامـارثي» تعاملها كـفرد من العائلة. فكانت تقـرأ لها خطابات أختها «لاسلبـينا» - امرأة «الأوتربيو»- وتكتب أيضـاً الردود التى كـانت تمليـهـا عليـها "لاديسِ" وتتـأخـر فى إعدادها، أحيـاناً أكثر من أسبوع. كانت «لامـارثى» مستعدة دائمـا لتقديم

---

* الهندباء: نبات يستخدم بعد تجفيفه كوقود للأفران البلدية (مثل عفش الأرز)- المترجم.
* المُحَلِّف: عضو فى هيـئة المحلفين التى يُرجع إليها قبل النطق بالحكم فى الـقضايا، كما هى العادة فى المحاكم الغربية- المترجم.

الخدمـات، وهذه حقيقـة. حتى عندما وصلـت «لاديسي» من القرية منذ عامين وهى تحمل صـرة فى يدها، فإن «لامارثي»، التى ذهبت لانتظارها على محطة الأتوبيس، أقرضتـها ٦٠ بيزيتة لكى تعجل بشراء حقـيبة حتى لاتمثل بين يدى العجوز وكأنها امرأة من الشارع.

ومن جهـة أخرى، فقد كـانت «لامارثى» تعرف عن «مانويل» الكثـير مثلها. وفى مسقط النور ظلتا تقولان «مانويل» بالرغم من أنه لايوجد أحد بالقرية يعرفه الآن بهذا الأسم. فلم يعد «البيكاثا»* يسمى «مانويل» منذ أن قام،وهو فى السادسة من العمر، باستئناس عقعق كان قد اصطاده من على شاطىء النهر. وقـد أخبرتها «لاسلبينا»، أختهـا وزوجة «الأوتروبيو»، فى خطابها الأخيـر أن «البيكاثا» سيلتحق بالجيش فى فبـراير وعندما تحدثت "لاديسِ" فى هذا مع "لامـارثى"، تدخلت الحـقيـرة "لاتاسيـا"، التى تخـدم فى الطابق الأول، قـائلة بأنه من الأفـضل الجلوس لانتظاره لأنهـا ستـتعب من الإنتظار واقفـة. عندئذ فقدت "لاديس" أعـصابها، تشـبثت بقضبان الشرفة وصاحت بصوت ملتهب: «اقفلى بُقّك، يا مؤذية».

فى مرات أخـرى كانت تقـول لها "لاتاسيـا" من مسـقط النور أن ما تسعى وراءه هو إرث العـجوز. حقيـقة، كانت "لإتاسـيا" إمرأة وضيـعة وسمعـتها سيـئة بين الجيـران، والأكثر شفـقة منهم كانوا يجزمـون بأنها أجهضت مرتين، لكن "لامارثى"، التى لم تكن على خلاف معها، كانت تؤكد بأن "لاتاسيـا" تحيض دما متخـثرا وهذه مصيبـة مثل الولادة بعاهة مستديمة. ولم تكن "لاتاسيا" ترد بنعم أو بلا. أما إذا زاد الأمر عن ذلك فتضحك أو تقول: «لأنى أستطيع؛ أمًّا عليكى كلام!».

عرفت "لاديسِ" كـثيـراً من الفتيـات ولم تجد واحـدة منهن، مهـما أوتيت من مواهب، مثل "لامارثى". ممـا لا شك فيه أن "لامارثى" لها

* بيكاثا (picaza) معناها: تَقْعَق، وهو طائر ينتسب للطيور الجارحة– المترجم.

نقاط ضـعفها مـثل العجوز ومثـل "لاكايا"، زوجة أبيهـا، ومثل كل بنى البشـر، لكن "لاديسِ" كانت تسـتميح لهـا العذر. كان يـؤلمها فـقط قول "لامارثى" لها -عندما تختلف معها- أنها أكثر فظاظة من حوض بئر. وكان هذا يوجعـها فى الصـميم، مـا أوجعهـا فى الصمـيم الليلة السابقـة، قول "لمارثى" لهـا بأن نوعية المـفرش الجديد الذى اشـترته أقل مما رأياه مـعا الخمـيس السابق حيث أن "لامـارثى" كانت تقول ذلك بدافع الحـقد، لأن راتبها أكبر من راتب "لاديسِ" ولم يسعفها أبداً فى شراء أشياء ذات فائدة.

كثيرا ما كانت "لامارثى" تقول لها:

- تكسبين القليل، يا حلوة، لكنك تستغلينه جيداً.

حقـا، لقد كانـت "لاديسِ" تجمع أشيـاءً للغد. فى أقل من عـامين اشترت بالإضافة إلى المفرش، بياضتين للسرير، منشفتين، ثلاث ملاءات والحقـيبة. وعندمـا بسطت المفرش الـليلة الماضيـة ولمستـه "لامارثى" وقالت لها أن نوعـيته أقل مما شـاهداه معا الخميـس السابق، كانت على وشك الانفجار. لكن "لامارثى" كانت تتمتع بهيـمنة عليها بحكم معرفتها للقـراءة والكتابة، وتحكمـها فى مراسـلاتها، ولقـضائهـا عشـرة أعوام فى المدينة. ولأجل كل هذا كـتمت "لاديس" غيظهـا، وإن كانت لم تفلح فى إخفاء نشوتها أمام اللون الأزرق الناعم للمفرش واعترفت بخجل:

- إنه لتلك الليلة.

- مع "البيكاثا"؟

رفعت رأسها متحدية:

- وهل هناك غيره؟

- و"ماتيلدى"، يا حلوة؟

- هذه للكلاب. (بس ييجى) "البيكاثا" الجيش وسأنسيه إسمها، ستريـن استلقت "لامارثى" على السرير السُفَرى وهى تمسك بأصابعها المتشابكة ركبتها البيضاء المكتنزة. أطبقت عينيها المائعتين، اللتين كانتا مثل قطعتين غير متلائمتين من الزجاج المحدب، ثم قالت:

- لتلك الليلة سأشترى قميص نوم شفاف مثل قميص سيدتى.

أشارت "لاديسِ" على نفسها بعلامة الصليب:

- تقدرين على ذلك!

- هيا، يا حلوة، إنت جايية منين؟

- هذا لا يليق بك.

أطلقت "لامارثى" ضحكة:

- فى تلك الليلة لا مجال لما هو لائق أو غير لائق.

تحدثنا بعد ذلك عن "أرخيميرو" العَرِّيف الذى يطلب ودّ "لامارثى"؛ عن "لاتاسيا" وعن "البيكاثا". وإذا كانت "لامارثى" قد صعدت قبل أن يعود العجوز فقد كان هذا، ببساطة، ومن بين أسباب أخرى، لعدم تحمل المرأة لآلام كعبيها. أيام الآحاد، أثناء التمشية كان يحدث لها نفس الشئ؛ إذا لم تجلس، انفجرت. لكن "لاديسِ" كانت تغض الطرف عن كل هذا وعما هو أكثر منه إذا تطاولت "لامارثى" على العجوز، وشرعت تقول أنه ملئ بالغرائب وأنه بخيل وأنه كذا وكذا.

لم تكن "لاديسِ" تجهل أنهم يدفعون أكثر فى بيوت أخرى، لكنها كانت على قناعة تامة بأن حرية التصرف التى تتمتع بها لها ثمن. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان يمكن وصم العجوز بأى شئ فيما عدا البخل. الأمر، ببساطة، أن فاقد الشئ لا يعطيه. وهذا ما كانت تعيده

على أسماع "لامارثى" فى مسقط النور لكنهما كانتا تضطران لتغيير مجرى الحديث لأن "لاتاسيا" كانت تدس أنفها وتصيح: «ما تريدينه هو إرث العجوز، لكن يبدو لى أن أملك سيخيب». كان بإمكان "لاديس"، الفتاة، أن تقول بصوت عالٍ جداً أنه لا يوجد فى المدينة من هو أتفه كلاما من سيدها. أنه لا يتحفَّظ عند الأكل ولا تهمه النظافة، ولا يتناول فطوراً فى الصباح لأنه كان يقول أن المعدة هى الجزء الذى يتأخر فى الاستيقاظ ومن السوء مفاجأته بطعام.

من أجل هذا كانت "لاديسِ" تستمتع إذا قالت لها "لامارثى": «أنا دمى متعكر، يا حلوة، لقد عنّفانى اليوم». فلم تكن تُعنف أبداً، وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان يمكنها الغناء بصوت عالٍ أثناء عملها دون أن يضايقها أحد. كانت تقبض مائتى بيزيتة، لكنها تتمتع بمميزات تفتقدها الأخريات. وبغض النظر عن ذلك. فلم تكن "لاديس" أكولة، وفى كثير من الليالى كانت تدلف إلى الفراش دون عشاء حتى تُعفى نفسها من العمل الذى يستوجبه تقشير بيضة.

غير أن العجوز قد تحوّل مؤخراً؛ فلم يعد يغنى أثناء الحلاقة، ولم يعد يلتقط صوراً دون فيلم من الشرفة. وعلاوة على ذلك، فقد مضى عليه أسبوع لم يشرب فيه اللبن قبل النوم حتى لا يسمن. كان يقول لها: «العجائز يعيشون على الهواء، يا بنتى، لا تقلقى». لكنها كانت تنهره:

- هل أنت مريض؟

- لا، يا "ديسِ".

- نعم أنت مريض، اعترف.

- لا، يا "ديسِ".

- لا نبدأ بلا ثم يظهر العكس بعد ذلك.

- قلت لا، يا "ديسِ".

- لماذا لا تشرب اللبن، حينئذ؟

- ليست لدى رغبة، يا بنتى، هذا كل شئ.

- اعبث كما يحلو لك، وسترى إلى أى مدى سيصل إليه هزالك.

لم تكن تقص على "لامارثى" شيئاً من هذا. لن تتصور "لامارثى" أبدا أنها تشعر بالوفاء تجاه العجوز، ولن تفهم "لامارثى" أبدا أن الود بين امرأة ورجل يولد فى ثالث مرة تغسل له فيها الجوارب.

كانت "لاديسِ" تدرك بداهة أن الودّ يتخذ أشكالاً متعددة لكى يعلن عن نفسه. فبين الذى تشعر به تجاه "البيكاثا" والذى يربطها بأختها "لاسلبينا"، امرأة "الأوترويبو"، والدفّعة المشوبة بالحرص تجاه العجوز يوجد بَوْن شاسع. ومع هذا، فكل ما تقدم ودّ.

-٣-

بينما كان العجوز، إلوى، يكتب خطابا إلى "ليـونثيتو"، الفتى، على مائدة الصالة، كانت "لاديسِ"، الفتاة، وبيدهـا المكنسة والممسحة تتأمل من فوق كتـفه كيف تخربش الريشـة سطح الورقة. كان الحبـر يجرى فى سلاسة على القـرطاس فغضّنت الفتاة جـفنيها، وكأنها فى مواجـهة ضوء الشـمس، فى محـاولة منها لفـك رموز تلك الخطوط. لقـد استـهوتهـا الحروف مـنذ أن كانت طفلة. كـان يدهشهـا قدرة الرجل العـجيبـة على اصطياد الكلمـات وتثبيـتها على ورقة بنفس السـهولة التى كان ينتـزع بها "دون فيديل"، مدرس القرية، زهرة ويعتصرها بين صفحات كتاب.

بعد قليل من مجيئها من قريتها قالت للعجوز: «أقدم إصبعين من يدى نظير تعلّم القراءة». ضـحك سيدها وقتهـا وقال: «هذا لا يكلف مالا، يا بنتى». ومن يومها انـكبت الفتاة على التعليم، لكنهـا لم تكن حادة الذكاء ولا سريعة الفـهم فاحتاجت لسنة وخـمسة أشهر وسـبعة أيام لاستـيعاب حروف الهجاء دون لَجْلَجة. ذات مساء، اتسع عالم الحروف المتشيطين، الذى كانت تعـتقد بأنها استـوعبته بالكامل، حـتى وصل إلى ما لا يمكن تصديقه. سألت مـرتابة: «أصحيح أن هذا حرف M أيضا، يا سيدى؟». «فعلا، ياديسِ- أجابها العجوز متحليا بالصبر-. إنها mayúscula M*». «ماذا قلت؟»، سألت الفتاة مستقصية. «Ma-yús- cu- la، يا بنتى»، كرر العجوز قوله.

* حسب قواعد اللغـة الأسبانية فإنه إذا جاء حرف من الحـروف الأبجدية فى بداية الجملة أو بعد نقطة أو فى بداية أسـماء الأعلام أ البـحار والأنهار والمحـيطات أو المدن والدول.. الخ، فإنه يكتب كبيراً، أى: mayuscula- المترجم.

ثارت ثائرة الفتــاة وكأن أحداً قد داس لهــا على طَرَف: «وماذا تكون، أيمكن معرفة هذا؟». وأوضــح لها العجوز بأن (las mayúsculas) تكون شيئاً هكــذا مثل ملابس العيد بالنسبــة للحروف، لكن "لاديس" سألت: بحق الشيــاطين لماذا تحتــاج الحروف إلى ملابس الأعيــاد، وأجاب هو: لكتابة كلمات هامة مثل Desi، وأمام هذا، ضربت الفتاة فـخذها براحتها محدثة صوتاً عالياً، مثل كل مرة تضحك فيها بشدة، وقالت: «لا تبدأ فى سخرياتك». لكنهــا كانت مصممــة على القراءة أو الموت دون ذلك وفى الشهــرين الأخيرين استطاع الــعجوز أن يجعلهــا تتهجى العناوين الكبــيرة الملونة فى الصحيفة اليومية.

كان يســألها كل مســاء: «ماذا تقول هذه الكــلمات، يا بنتى؟». فتــمدّ وجهها الخــشن الضارب إلى الحمرة، تعض طرف لسانها، وأخــيراً تتمتم شفتاها المتشققتان: «فراذ- كو- يـ- زو- ر- شـ- لال- ريـ- دا». كانت تنظر إليه في تباه وفخر كأنها انتــهت من القيام بعمل بطولى، لكن العجوز لم يكن يمهلها حتى لا يفتر حماسها: «وهنا، يا بنتى؟ ماذا تقول الكلمات هنا؟». فتنزل الفتاة بصرها. تعلوها الحــمرة ثم تبدأ بعد قليل من التردد: «أحـ- فاد- الز- عيم- يمـ- رون- تحت- عبا- ءة- عذ- راء- الـ- بيـ- لار». عندما تنتــهى كانت ترفع رأســها السمــراء فجأة وتــطلق ضحكة: «آه، يا أنا، لو ترانى "لاسلبــينا"!». عندما تأكــد العجــوز خلال الأيام الأخيرة من تقــدّم الفتاة بدأ يعلمهــا الكتابة بالقلم. كانت الفــتاة تقبض بأصابعهــا الخشنة على القلم وتكتب بخط ضعــيف ومرتجف. وعندئذ ينصحها العجوز: «أمسكى القلــم من جانب، يا بنتى». فتهز رأسها فى غــضب: «أيمكن معــرفــة ما يأكله هذا؟» «مــا هو، يا بنتى؟»، ســأل. اشتاطت غــضبا: «ماذا!... هذا الذى ذكرت». شرح لهــا العجوز فى تؤدة فأقبلت الفــتاة من جديد على الورقة، وهى تعض لسانهــا، ومركزة حواسها الخمس فى عملها.

بعد مرور أسبوعين ظهر فى مفصل إصبع "لاديسِ" الإبهام دُمَّل صغير فلم تستطع استعماله إلا لمَاما. من وقتها اكتشف العجوز أنه من غير المناسب أن تستخدم فتاة في الخدمة القفازين، فالقفاز، مثل حقيبة اليد والحذاء العالى الكعب، حكر على الهوانم وسيدات الطبقات الراقية*. وبالرغم من كل هذا فقد ناشدها العجوز: لا يمكنك الاعتماد على هذه الأصابع، يا بنتى». لكنها أنهت النقاش بحدة: «لتمض الواحدة هائئة بزينتها إذا كانت تقبض من أجل هذا».

الآن، ترمق "لاديسِ" من فوق كتفها الخط الجميل للعجوز. قالت، فجأة:

- أقدم إصبعين من يدى نظير الكتابة مثلك.

- آه، أنت، يا بنتى-. مدّ يده من فوق الأوراق وأعطاها القصاصة.

نظرت الفتاة بإمعان إلى الصورة الفوتوغرافية التى جذبت انتباها ثم قالت:

- يا للعجب! لقد التقطوا لك صورة جميلة، أليس كذلك؟

- إنها من أجل الفتى -قال فى لهجة إيضاح، وأضاف: هذا هو العمدة إلى جوارى.

- هذا المتين البنيان الذى يدخن سيجارا؟

- نعم.

أطلقت "لاديسِ" ضحكة ثم ضربت بكفها على فخذها:

- لن تنكر مظاهر النعمة التى تبدو عليه.

* يقصد المؤلف بذلك أن هناك بعض الأشياء التى تناسب طبقات اجتماعية معينة. ومن الأشياء التى قد لا تناسب الخادمات (مثل لاديس) تعلم القراءة والكتابة، لما يتطلبه هذا من استعداد خاص- المترجم.

قرأ عليها العجوز، بعد ذلك، الكلمات الصغيرة المدوّنة وأطلعها على الميدالية. أحس من خلال هذا الاتصال بارتياح غريب. لقد أمضى الليلة مكروبا، لم يعرف على وجه الدِّقة ما إذا كان يحلم أو يفكر، فقد كانت تتحرك حوله أطياف "پيبى باثكيث"، و"جويتو"، ابنه الصغير، و"لوثيتا"، امرأته. وبعد ذلك مثلت أمامه الأوراق. المطبوعات التى كان يعبؤها خلال مدة تزيد عن الخمسين عاما برزت من الظلمة، مثل طيفى "جالان" و"جارثيا إرناندث" اللذين كانا يحومان بالمكتب عام ١٩٣٤ ويتكاثران فى سماء الحجرة أو على الحائط بعد أن يعدّ حتى عشرين دون أن يتوقف عن النظر إلى طرفى أنفيهما. المطبوعات كانت تقول: «قسم النظافة: هذا الصباح... خرج من الحديقة... وصل إلى الموقع الأول... خرجت من الموقع الأخير... حمولات القمامة إلى المقلب... الخ»؛ أو «بيان العمل الخاص بيوم... كنس... رىّ... الخ». أو: «تقرير... صاحب التوقيع، خولىّ منطقة... ينقل لسيادتكم... الخ، الخ».

عندما استيقظ أحس بألم فى صدغيه ووجع فى رأسه. تحقق مما إذا كانت المنْطَقة قد خُلعت، حيث أنه اعتاد أن يحلم عندما تبرد معدته، لكن المنطَقة على خلاف ما توقع كانت فى مكانها. مضى أكثر من عام وهو ينام دون خلع المنطقة والجورب. لقد بدأت تلك العادة حينما لم يستطع الاهتداء إلى أىٍّ من القطعتين يخلعها أولا حتى لا يبرد؛ إذا خلع الجورب ستبرد قدماه؛ وإذا خلع المنطقة ستبرد بطنه. عندئذ قرر النوم بالمنطقة والجورب، وقد قدم له صديقه عيسى المبرر حينما قال له بأن الإنسان يمكن أن يصاب بالبرد لا لبرودة الجو فى حد ذاتها بل عندما يتملكه الخوف من الإصابة به ذلك لأن الشعور بالبرد، مثل كل الأشياء، لا يتوقف على درجة الحرارة بل على الإيحاء.

عندما وجد العجوز "إلوى" نفسه تائها فى الصالة فى أول صباح بعد الإحالة إلى المعاش، فكر فى عيسى، كما فكر فى البرد الذى ينبعث من عظامه بالرغم من محاولته تخفيفه بوضع قدميه تحت الشريط المذهب الضعيف الذى يتسلل من بين شيش النافذة أو بلفّهما، بعد ذلك، عند رحيل الشمس، فى الملفعة القديمة، إلا أن المحاولة باءت بالفشل. والأدهى من ذلك أن عقله كان معطلا أيضاً. لقد حلم بالتقاعد وهو شاب والآن، وهو متقاعد، يحلم بالشباب. كان الوقت يتوفر لديه من كل الجهات مثل ملابس فضفاضة للغاية وتصور أن جولاته المسائية مع عيسى ربما تساعده فى اختصار الساعات على مقاسه.

لكن الجولات الأولى مع عيسى بعد حفل التكريم لم تفلح أيضاً فى حلّ شئ. لقد أصبح عيسى أنانياً منذ فترة ولم يعد يفكر إلا فى تجاوز المائة وفى معدته الكسول وفى الفتيات اللاتى تعبرن مرمى بصره. أسرّ إليه "إلوى" فى الأمسية الأولى: «أتعرف، يا عيسى، أن الورقة الحمراء قد طلعت لى فى دفتر البَقْرة؟»، لكن عيسى لم يعره اهتماما وأشار، بطرف العكّاز دون حياء، إلى فتاة كانت تضرب الأرض إلى جواره بحذائها العالى. قال: «انظر، يا له من نموذج! على أيامنا لم يكن يوجد مثل هذا». لمعت عينا العجوز "إلوى" قليلاً ثم قال متألما: «لا ينطبق هذا على "لاباكيتا أوردونيث"، بالطبع». «آه، نعم»، رد عيسى، ودون أن يتوقف عن النظر إلى الفتاة رسم فى الهواء بطرف عكّازه معالم جسد "لاباكيتا أوردونيث". عاود العجوز الهجوم حينما ذكّره بأن "پيبين باثكيث» كان متيمّا بها وبأنه لازال يتذكر مقولة "باثكيث" عن المعاش وردهة انتظار الموت، لكن عيسى ابتسم بتباه وقال أن "پيبين باثكيث" ظل طيلة حياته مريضاً بداء العصب وأنه يتذكرّ، بدوره، أن "باثكيث"، فى حالات الاكتئاب، كان يتغوط فى بِركة الحديقة بقصد تسميم الأسماك الملونة.

رجع العجوز إلى بيـته وهو غير راضٍ، مهـدودا بفعل برد غريب. فى الأمسيات التالية لم يجد عند عيسى الـمعاونة المنشودة. كان عيسى يبتسم دوما لأنه لا يعتبر نفسه عجوزاً وكان يردد وهو يجلد الهواء بعكازه: «إمش رويدا رويدا». لكنه لم يكن ينزل أبداً على رغـبة العـجوز "إلوى". ومن جهـة أخرى فـإن العجـوز لم يستطع الـتوصلِ إلى حـالة من الاستـقرار والتوازن أثناء الأصبحة أيضاً. لقد استقر فى روعة، بعد كتابةالخطاب إلى "ليونـشـيتـو"، أنه لم يبق له شئ ليفـعله فى الحياة. أمـضى ثلاثة أيام فى ترتيب صور قديمة ولصقها فى ألبوم عتيق. كانت عملية بطيئة لأن العجوز كان يعيد بناء ذكريات طويلة حول كل صورة. من وقت لآخر كان يتوقف ويمرر المنديل على طرف أنفـه. كان الجو بارداً أو كان يخـتلق البرودة، لكن، والحق يقـال، فإن شعـاع الشمس الخـافت المتـسلل عبـر النافذة والملفعة الملفوفة حول قدمـيه لم يكونا ينفعانه بشئ. من وقت لآخر كان يصل إلى المطبخ ليـعطى أوامره للفـتاة، "لاديس"، وفى تلـك الحالات كان بخار المكان الساخن يعيد إليه قواه. كـان ينعشه أيضاً صوتها الممتلئ وشراهتـها فى تعلم البدائيـات. لم يكن يخفى على العـجوز "إلوى" أن "لاديسِ" فتاة طيـبة، وإن كانت -مثل كل بنى البـشر- لا تخلو أيضاً من غرائبها الخـاصة. "لاديسِ"، مثلاً، كانت تقدم بدون روَيّـة إصبعين من يدها اليـمنى مقـابل تعلم الكتابة، ولو فـعلت ذلك سيكون من الـصعب عليها التوصل بثلاثة أصابع إلى ما لم تستطع التوصل إليه بأصابعهاكاملة. وهذه بلاهة، كما هو بـلاهة أيضاً تصورها بأن لبس القفازيـن ليس مناسبا لفتاة فى الخدمـة، لأن القفاز والحذاء العالى الكعب وحقـيبة اليد لا تليق إلا بالهوانم وسـيدات الطبقات العليـا. ومن غرائبها الأخرى مـلئ رأسها بالبِنَس يومى الأربعاء والسبت، وعـلاجها للأذن الموجوعة بتـوجيه لطمة قاسـية إليـها. لكن العـجوز "إلوى" كان يلـتمس لها العـذر. لكن يكن يجهـل وجود أخريات يتـنـجن أكثـر وإن كان لا ينقص اللاتى يتـنجن أقل

وتفـتقـرن، علاوة على ذلك، إلى الخـشـونة العفـيفـة وحسن المـوالاة الموجودتان عند "لاديس". منذ عـامين مضيا قـضى العجوز إلوي ثلاثة أشهر سيئة. فالخدمة المنزليـة كانت فى انحدار ولم يكن بيته مما يتهافت عليه لافـتقاره إلى الرخاء. أخـيراً، حضرت ذات صبـاح "لاديس" بوجه محتقن، وخصلات شعرها ملتصقة بالجبهة، مشكّلة امتدادا للحاجبين، وهى تترنح على وقع هزّات حـقيبة السَّـفَر وسألته عمـا إذا كان هذا هو البيـت الذي يحتاج لفـتاة كـما اخـبرته انهـا على ضمـان "لامارثى". «لامارثى؟»، سأل العجوز. «التى تخدم فى الطابق الثالث. لقد أمضت ثلاث سنوات فى البيت وهى محل ثقة- قالت». دعاها العجوز للدخول وانحنت "لاديس" لكى تحمل الحقـيبة، لكنها تذكرت فجـأة تعليمات "لامارثى" فـنهضت وواجـهته بالـسؤال عن الأجر والأجـازات، ارتبك العجـوز "إلوى" وبالرغم من أنه كان قـد قرر إعطاءها مـائة وخمـسين بيزيتـة إلا أنه قال لها: «ما رأيك، يا بـنتى، فى مائة وخمس وسبـعين بيزيتة عـلاوة على الإقامة والمعـيشة؟. الناس هنا تعتـاد الخروج للتنزه يومى الخميس والأحـد، لكنك لو احتجت ليوم آخـر، فلن نختلف من أجل هذا». رسمت الفتـاة ابتسامة عبـوسة ثم قطّبت جبينهـا، وأخيراً، عاودت الابتـسام وقالت هذا يكفـى لأنها -وإن كان لا ينبـغى أن تقول هذا- لا تتلهف على الـشارع وليـست مُـولَعـة بالرقص. وهكذا توصل العجوز والفتاة إلى اتفاق.

تبين بعد ذلك أن الفتاة سَلسة القياد وخدومة، ومن ثمّ فقد قرر العجوز فى شهر مـايو -منذ عام- زيادة الراتب خمسـا وعشرين بيزيتـة مكافأة لها على طاعتها وتفانيها.

لم يثلج صدر الـعجوز مـراجعة الصـور القديمة كـما ظنّ. ومن جـهة أخرى، فقد كانت الصالة واسعة للغاية وغـير مرتبة وكان البرد يعض قدميه.

كانت تمر لحظات يحس فيها العجوز "إلوى" وكأنه مُخَدَّر من الداخل والخارج، غير قادر على التفكير أو اتخاذ قرار. وفي تلك الحالات كان يرى هاوية تنفتح أمام عينيه فيضطر إلى إمساك بطنه بذراعيه حتى يسيطر على الدوار. بدأ يفقد الثقة في نفسه وذات صباح -سبعة أيام بعد حفل التقاعد- وبحجة إطلاع "لاديسِ" على صورة "جويتو" وهو في ملابس البحّارة، ذهب إلى المطبخ وسألته الفتاة إن كانت الصورة للمرحوم، وردّ بالإيجاب، فأردفت بالدعاء له أن يكون في الجنة ونعيمها، وأجابها بأن هذه هي المرّة الأولى التي يسمع فيها مثل هذا الكلام وبأن "جويتو" كان محل عنايته وأنه لا توجد شقاوة لم تخطر على باله. وعند الوصول إلى هذه النقطة قَرَّب الكرسي من النار ثم جلس عليه واحتل مكانه من المطبخ.

في البداية، استغربت الفتاة. كانت تقول مكروبة: «هيا، أفسح لي المكان». أو تقول: «دائماً تعوق تحركاتي». أو، على أقل تقدير: «أيمكن معرفه ماذا فُقِد منك هنا؟». لكن سيدها كان (يُطَنِّش) وانتهت الفتاة إلى التعوّد، لدرجة أنها بعد ثلاثة أيام لم تكن تحسن التصرف إذا لم يكن العجوز هناك إلى جوارها يراقب كل حركة من حركاتها. عند مجيئه إلى المطبخ صباحا كان العجوز يلقي بسؤاله الذي لا يتغير:

- ألم يمر ساعي البريد، يا بنتي؟
- مرّ منذ قليل.
- ولا شيء؟
- لا شيء.

كان يجلس بجوار الفرن ويراقب في صمت تحركات الفتاة. سمعته "لاديسِ" ذات يوم وهو يهمهم من بين أسنانه: «ربما يكون مشغولا جدا؛ هذه الفترة من العام سيئة». سألته الفتاة حينئذ:

– عن من تتحدث إن حَقَّ لي السؤال؟

– عن الفتى.

– أمشغول ابنك على الدوام؟

– احكمي أنت، يا "ديسِ". إنه مسجل وموثق عقود في مدريد.

حدّقت فيه الفتاة بحدقتيها الكليلتين المتشوقتين:

– وماذا يكون هذا؟

حاول إيضاح الأمر لها لكن الفتاة أعياها الفهم. قالت:

– أختي، "لا ألفونسينا"، تعيش في مدريد. إنها أيضاً مصادفة.

كانا يتجاذبان أطراف الحديث في مودة لكن العجوز لم يكن يظهر اهتمامه إلا نادراً. في البداية، آلمت سلبيته "لاديسِ". كان على العجوز إلقاء نفسه داخل النار تقريبا لكي يصبح عنده رد فعل. كانت الفتاة تقول له: «مرة أخرى! إنك أشد حساسية للبرودة من قط وُلد في أغسطس». فيؤَمِّن على كلامها دون أن يفتح فمه. ذات صباح، وفي محاولة لإرضائه، فتحت "لاديسِ" شفاط الهواء لكنه قفز وكأن عقربا لدغته:

– اغلقي الشفاط يا بنتي حتى لا تتسرب الحرارة المنبعثة عن الفحم.

– أتعني فعلا ما تقول! –قالت "لاديسِ"–. هل منعوا عنك اليومية بعد أن أقالوك إلى المعاش؟

– بنسبة مئوية كبيرة.

هزّت الفتاة كتفيها ساخطة:

– وما معنى هذا؟

- معناه أنهم لو كانوا يعطوننى من قبل مائة مثلا فإنهم الآن يصرفون لى خمسة وسبعين فقط (دى كل الحكاية).

- من "الدُّوروس" (El duros)؟*

- أو من البيزيتات.

- وهل الدَّفْع "بالدوروس" مثل الدَّفْع بالبيزيتات، يا سيدى؟

- إفهمينى يا "ديسِ"، لكى أبيِّن لك معنى النسبة المئوية، نعم لا يوجد فرق.

- نسبة...؟ ماذا قلت؟ (أمّا لك كل نادرة وأختها!)- قالت وهى تضحك وتضرب على فخذها بحماسة.

انتهى الأمر بالعجوز -الجالس على الكرسى والملفوف بالدِّثار الرمادى الرَّث- إلى الغضب:

- ألست أنت، يا بنتى، التى تريدين تعلّم كل شئ دفعة واحدة!

منذ الإحالة إلى المعاش وكأن العجوز غائب عما حوله. تأكد شروده للفتاة من عدم إحساسه بتجمع المخاط فى طرف أنفه، ولذا وجب عليها تحذيره باستمرار: «سيدى، المنديل». كان يتمتم حينئذ بكلمة «شكراً» غير مسموعة ويتنظف بحركة آلية فى شئ من الارتباك. كانت "لاديسِ" تضطر أحيانا لتكرار تحذيرها ثلاث مرات حتى يأخذ حذره. وبالرغم من شروده المستمر فإن "لاديسِ" لم تكن تخاف على سيدها الإصابة بالجنون مثل "الأپولينار"، ابن عم "الأوترويبيو"، زوج أختها. خافت عليه هذا بعد عشرة أيام، عندما تلعثم العجوز ذات مساء بشئ، وهو زائغ البصر، عن ورقة حمراء ودفتر بَقْرة. انتفضت "لاديسِ" كلها وصاحت فيه:

- سيدى، هل أنت بخير؟

* "دوروس" (Duros) جمع "دورو"، وهو قطعة معدنية فئة الخمس بيزيتات- المترجم.

بدا وكأنه عاد إلى نفسه:

- بخير، يا "ديس". لماذا تصيحين هكذا؟ لست أصما.

أخذت الفتاة نفسا عميقاً. خافت للحظة أن يكون قد حدث له ما حدث "للأبولينار". فالنظرة هي نفس النظرة وإن كانت نظرة العجوز ليست ذاهلة ومُهَدِّدَة. هكذا بدأ "الأبولينار" وذات مساء عندما وصل إلى البيت قال لأمه: «أماه، الفرس العنَبِيَّة كانت على وشك أن تعضنى». عندما نظرت السيدة "بيسى" إلى عينيه ارتَعدت فرائضها: «أىّ فرس، يا بنى؟».

«هل هناك غيرها، يا أمى، العنبية؛ الموجودة بالحظيرة»، أجاب. لكن السيدة "بيسى" لم يكن عندها أية فرس ولا أية حظيرة بل جحش هزيل وستة أزواج من الأرانب. ومع ذلك، فقد سايرته: «لابد وأن تكون قد فعلت لها شيئاً، يا بنى، فالحيوان شديد الانقياد». واصل كلامه: «أقدم لها العلف كل ليلة، يا أماه، أقسم على هذا. أيمكن أن أفعل معها شيئاً آخر؟». فى اليوم التالى عزلوا "الأپولينار" ومنعوه من لقاء أحد. كانوا يؤكدون فى القرية على أن الجنون أصابه لأن الريف يطبق على أنفاسه بعد أن ذهب إلى المدينة ولم يجد فيها ما يناسبه. لكن ما حدث لسيدها مرّ دون مضاعفات. فى السبعة أيام الأخيرة لم يعد إلى النظر بتلك الطريقة المقلقة أو إلى الحديث من بين أسنانه عن أشياء لا معنى لها. من جهة أخرى، لم تفطن "لاديس" إلى أن الشئ الوحيد الذى يتوق إليه العجوز هو الدفء. فمنذ أن كان طفلاً والعجوز "إلوى" ينشد الدفء بغريزته ومنذ أن كان طفلا، مدفوعا بقَدَرٍ ماكر، وجد نفسه مضطرا لتبديل مصدر الدفء مثلما يبدّل قميصا*.

---

* كلمة الدفء المستخدمة هنا لها معنيان: الدفء الحسى المنبعث من الحرارة أيّا كان مصدرها؛ والدفء المعنوى الناجم عن الاتصال بشخص معين أو عن العيش فى أسرة. والكاتب يقصد المعنى الثانى- المترجم.

-٤-

كان من الممكن -لأى سبب- ألا يحدث تغيير فى حياة "لاديس" لولا الفيضان الرهيب لعام ١٩٥٢. لكن الإنسان لا يستطيع الفكاك من قدره.

كان العجوز "إلوى" يسألها كل صباح:

- ألم يمرّ ساعى البريد، يا "ديس"؟

- مرة ثانية؟ -كانت تقول-. ماذا تريدنى أن أقول لك!

- آسف، يا بنتى؛ لقد نسيت.

ثم يقترب العجوز من الفرن ويمدّ يديه الضاربتين إلى الصفرة فوق لوح الفرن:

- الجو جميل هنا.

أخذت الفتاة المحجن وقلّبت جمرات المجمرة. كانت فتحتا أنف العجوز تصدران بريقا متقطعا. اشتدت النار. نبّه العجوز:

- حذار، يا "ديس"، اغلقى تيار الهواء. حرارة الفحم تتسرب دون أن نشعر بها. وقفت الفتاة أمامه ويداها المنتفختان القصيرتان تستريحان فوق بطنها مثل ضفدعتين:

- أتعنى ما تقول؟

ردّ العجوز:

- لا أمزح، يا بنتى.

قالت لهن "لاكايا"، زوجة أبيها، عندما عثر "أوتيكيو" (الحارس- المحلِّف) على جثة والدهن: «الآن، عليكن مدّ يد العون والتعود على الصيام». ووقتها كانت أختها "لاألفونسينا" تنتظر أيضاً وبفارغ الصبر خطابا من صديقتها "لابالن" بعد قرارها بالعمل فى مدريد. وكانت تسأل كل صباح: «ألم يأت خطاب؟».

فترد عليها زوجة أبيها: «مين حيكتب لك، يا بوذ الإخْص!». لكن "لاألفونسينا" تلقت أخيراً خطابا من "لابالن" تقول لها فيه: «تحصلين هنا على ضعف الأجر وتجدين المكان الذى تنفقينه فيه»؛ وعندها قررت "لاألفونسينا" السفر إلى مدريد، لكن "لاديسِ" -الأكثر حساسية بين أخواتها- ظلت فى القرية لأن السفر يرهقها ولأنها لا تطيق الابتعاد عن "البيكاثا" بأميال كثيرة. حدث كل هذا بعد فيضان عام ١٩٥٢، وإنصافا للحقيقة يمكن القول بأنه لولا حدوث هذا الفيضان الرهيب لكان من الجائز ألا يتغير شئ فى حياة "لاديسِ". لكن الإنسان لا يستطيع الفكاك من قدره.

والآن، عندما كان العجوز يدخل المطبخ كل صباح، وهو ملفوف فى الدِّثار الرمادى الرَّث ويسأل مستقصيا: «ألم يمر ساعى البريد، يا ديس؟»، كانت الفتاة تجتهد فى صرف تفكيرها فى "لايكا"، زوجة أبيها، وفى تسلطها القاتم لكى تفطن إلى وجود أشياء فى الحياة أسوأ من عناد العجوز وعندئذ تتسلح بالصبر ولا ترد عليه رداً سيئاً. كان مجرد تصور الفتاة بأنها تحت السلطة الاستبدادية لزوجة أبيها كفيلا بزعزعة كيانها.

وعلى خلاف ما تقدم، فقد كان يروق لها تذكّر جولاتها المسائية مع البيكاثا، عندما كان يغنى لها بصوت مسموع، وهما جالسان فى منحدر

على جانب من الطريق أو مضطجعان فوق قشّ البَيْدر، أغنية «الريليكاريو» ولماذا تتـملكنى الأحزان». كـان "دون فيـديل"، المُعَلِّم، يقـول لها أن "اليكاثا" له صوت جميل لكنه يفـتقر إلى حاسة السمع*. كانت تضحك بشـدة وتضـرب على فـخذها براحـتـهـا كل مرة تقـص فيـهـا هذا على "لاألفـونسـينا" وتقـول لهـا: «احكمى أنـت، ما صـلة هذا بذاك؟ العم "فيديو" أصابه مَسّ من جنون». ولأن "دون خيـرونيمو"، القسيس، كان مقتنعا بجمال صوت "اليكاثا" فـقد اتفق معه على إحياء حفلات الزفاف والجنائز والمآتم. لقد كان المأتم الرفـيع المستوى من نصيب "اليكاثا"، كمـا كانت من نصيبـه حفلات الزفاف الـباذخة. وبهذا توفّـر للفتى دخل إضافى لكى يرافق خطيبته إلى السينما أو للمرقص. إلا أن "لاكايا" قالت للفتـاة ذات يوم: «افعلى فى المـيدان ما يحلو لك، لكـنى لو رأيتك مرة أخرى ترقصين فى الجراج سأطحن عظامك».

وقـد كان "دون خـيرونيـمو"، القـسيس، من أنصـار هذا الرأى وفى القـدّاس وفى الجنائز كان يضـج بالصيـاح من على المنبـر، بينما يحـرك ذراعيه مـثل ريشتى مروحة، قـائلاً بأن أفضل مصير لـلجراج هو الحرق. عند الحديث عن هذه الأشياء، التى كاد ينعتـها بـ«الشهوانية»، كان ينفعل بشدة ويظهرعلى شدقيه زبد أبيض وعـلى درجات المنبر يتساقط رذاذ دقيق متـواصل. ولم يكن "دون أوليبـانو"، صاحب الجـراج، على نفس هذا الرأى لأنه كـان يحصل من الجـراج بعـد تحويله إلى مـرقص علي دخل يفوق بكثير ما كان يعود به عليه تخزين عربات النقل لكل من "مارثيانو"، صـاحب المصنع، و"تومـاس"، صاحـب دكان التـبغ. ولذا كان يقـول للقسيس: «سيدى القسّ، عليك بطرح هذه الأوهام جـانبا، (الفرفشة) هى

* المقصود بالافـتقار لحاسة السمع هنا: عـدم التمتع بأذن حساسة للمـوسيقى. وهذا ما لم تفهمه الفتاة كما يتضح من تعليقها بعد ذلك- المترجم.

التى تأتى بالعائد المادى هذه الأيام». وينتحى به "دون خيرونيمو" جانبا ليوبخه ويستحثه على التفكير فى الروح، لكن "دون أوليبانو" كان يضحك مظهرا -عند الضحك- أحشاءه ويقول له: «الروح لا تأكل، يا أبونا»، وعندئذ يتعكر صفو «دون خيرونيمو» ويرفع يدا هائلة كما لو كان سيضربه، لكنه سرعان ما يتركها تسقط، دون استخدام، فوق العباءة المتربة.

بعد ذلك، كانت "لاكولويكو" -المشرفة على المنزل- تذيع فى كل مكان أن القسيس يبكى دما أثناء الليل حتى أنها أطلعت فى المغسل ذات مرة صويحباتها على كيس الوسادة وكان فعلا ملطخا بالَدم، لكن "البيكاثا"، الذى كان لا يفارق القسيس بحكم اشتغاله بالغناء، أوضح: «أنه دون الانتقاص من قَدْر السيد القسّ فقد لاحظ أنه ينزف من أنفه كل مرة يصاب فيها بالزكام».

فى ظل تلك الظروف اعتادت "لاديسِ" و"البيكاثا" الذهاب إلى الجراح. لم يكن تحذير "لاكايا" كافيا لإقناع الفتاة، التى كانت تتصور أن "لاكايا" تكرهها هى وأخواتها لأن "ماركوس"، ابنها الوحيد، وُلد عبيطا، ربما لأنها عندما تزوجت بأبيها كان عمرها قد تجاوز الأربع والأربعين سنة. كان "الماركوس"، إذًا، علاوة على العبط، ثمرة فات أوانها، ولم تكن تغفر لها "لاكايا" ولا لأخواتها ما تتمتعن به من عافية، ولا لزوجها، "الجالو"، جَعْلها فى مرتبة الاحتياطى. اعتادت أن تقول لجيرانها: «يعلم الله ما أعجب "الجالو" فى الملعونة أختى».

ومن ناحية أخرى فإن "لاديسِ" وأخواتها لم يتقبلن هذه الفعلة النكراء. كان أصدقاء "الجالو" يقولون له فى الحانة: «ألم يكفك ما مضى من الزواج بداهية فتريد الآن الزواج بأختها؟». فيؤمِّن على كلامهم "الجالو" الذى لم يكن ينزعج لأى شئ فى هذا العالم لثخانة دمه: «إنه دواء من نفس الكأس». لكن "لاكايا" لم تتركه فى حاله منذ اليوم الأول

للزفاف: «لماذا تناديني بناتك بإسمي (لاكايا)؟ مُرهُنَّ أن يقلن لي يا أمي». فيقول دون اقتناع: «أسمعتن؟ قولوا لها يا أمي». لكنهن ظللن يناديتها بإسمها وينشرن غسيلها القذر وظلت هي تضربهن لأتفه الأسباب، وأحيانا كثيرة، دون أن تكلف نفسها عناء البحث عن سبب.

كان من الممكن، على أية حال، ألا يتغير شئ في حياة "لاديس" لولا حدوث فيضان عام ١٩٥٢ الرهيب. حقيقة لم يكن للفتاة، "لاديس" أيّ علاقة بالفيضان، لكن "الماركوس"، أخوها النصف شقيق، الذى كان عبيطا، أخذ في الصياح من أعلى القمة:

- فليسقط المطر، ليسقط المطر، بحق عذراء الشجر.

وكان الرجال ينظرون إليه متحفزين لأن المطر سبب نكبتهم. فالنهر، الذى كان مثل خطّ ضامر يغطي مجراه نبات البوط خلال أحد عشر شهرا من العام، كان ينتفخ كالحامل كل ربيع، وفي ذلك العام انتفخ كثيراً حتى غمر الوادى لدرجة أنهم لم يكونوا يرون له حدوداً، ولا أول له من آخر، وبالكاد لم تكن تظهر من الماء، بالإضافة إلى برج الكنيسة وعشّ اللّقلاق، سوى أربعة أسقف محدبة على وشك الإنهيار. ومع كل هذا، لم يكن لـ"ماركوس"، العبيط، من عمل سوى الصياح وهو يتطلع إلى السماء:

- فليسقط المطر، ليسقط المطر، بحق عذراء الشجر.

ومع الصياح يتنامى في قلوب المزارعين حقد متفجر لأن المطر سبب شقائهم. أخيراً، قال "براكسيدس"، الثعلب، لأمه:

- قولي لابنك يخرس؛ وإلا، فلست مسئولا عن العواقب.

احتدّت "لاكايا":

- ما ذنب المسكين؟ يكفيه ما هو فيه من تعاسة. أليس كذلك؟

أما "دون خيرونيمو"، القسيس الذى يشبه بشحوبه وقامته الفارعة الصلدة والطين على عباءته ميتا خرج توّاً من قبره فقد كان يستحثهم على السجود والدعاء لله بأن يقلع المطر، كما كان يؤكد لهم أن الفيضان عقاب من السماء على الذنوب الكثيرةالتى يقترفونها أيام الآحاد والعطلات فى الجراج. وبما أن الفيضان كان قد فاجأ "دون أولبيانو" فى المدينة حيث ذهب لتغيير أحد إطارات الجرّار الزراعى، فلم يتمكن "دون خيرونيمو" من الاحتدار ضد شخص معين وكان يتحدث فى وداعة واستسلام دون أن يتولّد الزّبد على شدقيه.

لكن "ماركوس"، العبيط، واصل فى عناد:

- فليسقط المطر، ليسقط المطر، بحق عذراء الشجر.

بدأت المجموعة القاتمة، المُكَوَّمَة فوق القمّة بصحبة الأمتعة القليلة التى نجت من الفيضان، تفقد أعصابها شيئاً فشيئاً وكلما وقف غلام وصاح بتلقائية: «انظروا، هذه عنزة السيد "بولى"» مشيراً إلى كتلة منتفخة مثل فقاعة تسبح دون هدف فوق سطح الماء اللامع، ينبثق من أى مكان ذراع قوىّ ليُجلسه بلكمة قاسية. بدا "الماركوس" وكأنه الوحيد الذى يستمتع بما يحدث هناك، لكن "براكسيدس"، الثعلب، كانت تعتريه لحظات يكاد أن ينفطر فيها وعندما انتزعت المياه الهادرة بقرته الدّاجنة من الحظيرة وتقدّمت هذه، منتفخة كمنطاد، يؤرجحها التيار حتى توقفت، محصورة بين الأفرع العالية لشجر الجوز، على بعد عشرين مترا من القمة، شرع "براكسيدس" فى ضرب رأسه. بحجر والسبّ واللّعن من بين أسنانه وكلما نظر إلى البقرة انتفض كمن به مسّ من جنون وعندما صاح "الماركوس" مرة أخرى: «فليسقط المطر، ليسقط المطر، بحق عذراء الشجر»، التفت الثعلب إلى "لاكايا" وهو فى غير وعيه:

- أسكتيه وإلا سأسكته أنا.

وبما أن أحدا لم يحرّك ساكنا، فقد نهض "براكسيدس" بكل ما لديه من رباطه جأش، قبض على المِذْراة التى كانت بيده وغرزها فى بطن الصبى ثلاث مرات بينما كان يصيح وهو يقهقه: «هكذا سيتعلم».

لا يعنى ما تقدم أن "لاديسِ" تعطى الحق للثعلب، براكسيدس، أو تنفيه عنه. لم تكن تعطيه أو تنفيه أيضاً عن أخيها النصف شقيق الذى كان، فى نهاية المطاف، عبيطا. لكن الذنب يقع على عاتق "لاكايا" لولادته بعد فوان الأوان وعلى أبيها لزواجه من امرأة مثل تلك.

أما ما حدث بعد ذلك من دخول "البراكسيدس" السجن وإقلاع المطر أخيراً، وعودة الحياة لتدبّ فى القرية، فإنه لم يُفد فى حل المشكلة.

أتلفت المأساة أعصاب "لاكايا" فكانت تمضى الوقت فى مداعبة فَرْدة من الحذاء الذى كان يلبسه "الماركوس" يوم الفيضان. وإذا حدث والتقت بزوجها، الذى يبدو أن المصيبة لم تؤثر فيه لثخانة دمه، تقول له وهى تنتحب نحيباً أقرب إلى الثغاء:

-آى، يا له من ولد جميل هذا الذى فقدت!

وإذا كانت إحدى الفتيات هى التى التقت بها بدلا من "الجالو" كانت "لاكايا" تقول لها أيضاً:

-آى، يا له من أخ جميل هذا الذى فقدت!

حدث هذا مع "لاديسِ" ذات يوم كانت فيه عكرة المزاج فالتفتت نحوها وردت:

- بل نصف أخ وفوق هذا عبيط.

عندئذ سددت لها "لاكايا" صفعة أفقدتها الوعى لمدة خمس دقائق. منذ ذلك الوقت ومع قدوم الشتاء تبدأ الأذن اليمنى فى الطنين والرّشح ولا

تسمع بها الفتاة حتى مجيئ الربيع. وبالرغم من هذا فقد تحمّلت "لاديس" هذيان "لاكايا" حتى جاء مساء، بعد هذه الواقعة بثلاثة أشهر، عثر فيه "أوتيكيو"، الحارس -المحلّف، على "الجالو" غريقا فى قناة الساقية.

فى البداية، تحدث سكان القرية عن حادث انتحار، لكن "دون فيديريكو"، الطبيب، نفى هذا لأن الأمر ببساطة يتلخص فى أن "الجالو" أغمى عليه أثناء شربه من قناة الساقية ولأن دمه كان ثخينا جدا فلم يستطع الجرى فى العروق؛ تماما كما يحدث للساقية التى يمتلئ باطنها بالطين فلا يتدفق منها الماء.

منذ ذلك الحين بدأ شملهن يتفرق. "لادورو"، الكبيرة، تزوجت من "الأنطونيو" وذهبت لتعيش فى "لاباريّا". "لاسليينا"، الثالثة، أعلنت عن اتفاقها مع "الأوتروبيو"، الذى يمتلك أرضا لا بأس بها على الجانب الآخر من النهر، على الزواج فى الخريف، لكن "لاكايا" تدخلت وقالت بينما لم تؤد الأغلبية منهن ما عليهن من واجبات نحو البيت فلن تسمح بزيجات أخرى. عندها هجم "الأوتروبيو" من الشارع وأمسك بكل من "لاسليينا" و"لاكايا" وجرجرهما وراءه وانتزع المباركة بالزواج انتزاعا. أما "لاكاندى"، الثانية، فقد غادرت القرية ذات يوم دون أن تترك أثرا، وبعدها أخذت "لاديس" تخطط مع "لاألفونسينا" للعمل فى الخدمة. تعلّقت "لاألفونسينا" بمدريد عندما كتبت لها "لابالن" أخيراً وقالت لها: «تحصلين على ضعف الأجر وتجدين المكان الذى تنفقينه فيه». لكن "لاديس"، الأكثر حساسية بين أخواتها، كان يوجعها الابتعاد عن "البيكاثا" بأميال كثيرة ولذا قررت البقاء فى المحافظة وكتبت أربع كلمات لصديقتها "لامارثى"، التى تصرفت كأخت لها، فأجابتها بمجرد وصول الخطاب وذهبت لاستقبالها على محطة الأتوبيس حتى أنها أقرضتها ٦٠ بيزيتة لكى لا تمثل بين يدى العجوز دون حقيبة وكأنها قادمة من الشارع.

كل مرة تتذكـر فيها "لاديس" مـاضيها تتكدر وتؤلمـها الأذن ويلتصق شعـرها بالجبهـة ليشكلا مع الحاجـبين كتـلة واحدة. لكنها كـانت دائماً تضحك، تواجه العجوز، ترفع ذراعيها كما لو كانت ستطير ثم تتركها بعد ذلك يستريحان على جانبيها فى إيماءة خانعة:

- وأنا الآن هنا لأننى اخترت هذا.

بينما كـانت تتكلم "لاديس" كان العجوز يتـرك نفسه لهدهدة صـوتها الملتـهب ويظل مطبق الجفنين كـأنه نائم، ثم يفتـح بكسل إحدى عيـنيه ويسأل فى شئ من الفزع:

- وماذا حدث للفتى؟

- أىّ فتى؟

- المكّار، يا بنتى، صاحب المِذْراة.

كانت الفتاة تضـرب على فخذها بكفِّها محدثـة رنينا، وينشقّ وجهها، العنيد المتوحش، عن قهقهة مضيئة:

- أىّ مكار بحق الشياطين! تقصد الثعلب؟

- هذا، يا بنتى، الثعلب.

- قـبضـوا عليه. لكـنه ليس فتى كـما تـظن -إن عمـره يقتـرب من الثلاثين. كان العجوز يتنهد:

- لايزال محبوسا؟

- "لاسلبـينا" تقول أنهم سـيطلقون سـراحه فى عـيد الفـصح. قال المحامى أنـه لم يكن فى وعيه بسبب مـا حدث لبقرته. وكـما ترى، فإن المحامين مستعدون للخروج من أى مأزق فى الحال.

- هذا صحيح.

في الخارج، كـان الثلج يطوّق أشجار المـوز ويجعل الأسطح تلمع، كما كان يخفف من وقْع الأصوات والحـركات في شوارع وميادين المدينة الصـغيـرة؛ وعندما بدأت "لاديسِ" في حكاية جـديدة استـسلم العـجوز لهدهدة صوتهـا، أخرج المنديل ببطء من جيب الدِّثار نظّف أنفـه بحركة آلية، وأخيراً، عقف ذراعيه النحيلين فوق بطنه وأطبق جفنيه بنعومة كما لو كان سينام.

-٥-

على وقع قـرقرة النار فى المـكان استـحضـر العجـوز "إلوى" دفء "لاأنتونيا".

كانت "لاأنتونيا" حنانه الأول، فلم يمـهله القدر لمعرفة والده وعن والدته لم يكن يحتـفظ بصورة واضحة- أما أخـته "إلينا"، التى عاش معـها بضع سنوات، فـقد كانت بعـيدة عنه، حادة الـطبع وبادرة مثل إحدى الزواحف. كان العجوز "إلوى" مثل "ماركوس"، أخ "لاديس" النصف شـقيق، ثمرة فـات أوانها لأنه ولد نـفس اليوم الذى دفنوا فـيه والده، وهى مصادفة دفعت أحد الظرفاء إلى القول فى النادى بأن "دون إلوى نونيث" مات بسبب الـمخاض. وبالرغم من ذلك، فالحقـيقة هى أن "دون إلوى نونيث" مـات بسـبب الكوليـرا، وبالصدفـة، فى اليـوم التـالى لاستـقـبال السـادة "كـاستـلار" و"ساجـسـتا" و "مـارتوس" و"موريت" الدكتور "فيران" فى الكونجرس. اليوم السابق، اخبر السيد "كانوباس" الدكتور "فيران" أن الوزارة تقدر مجهوداته لتحرير الإنسانية من سيـاط الكوليرا القاسـية وأنها مـستعـدة لتمويله بمـائة بيزيتة يومـيا لمسـاعدته فى عـمله. لكن، وبرغم الدعم المـادى، فقـد مات "دون إلوى نونيث" بداء الـكوليـرا مـسـاء اليـوم التـالى، وعلى حـد قـول "لاأنتونيا" فقد دفنوه وهو فى كامل هيئته.

خـلال مراسم الدفن ألقى "دون كـيتـين ماجـرو"، القاضى، بهـذه المفارقـة: "أيحدث هذا الآن والوزارة تمول الدكتور "فيـران" لانتصاره على الكوليـرا، إنه القدر المحـتوم ولا شئ غـيره" عندئذ اقـترب منه فى حيطة "كلميمنتى ثيد"، صاحب محل الفراءات، وقال له: "ألا تعلم خبر

"تورتوسـا"؟ " تشكلت فى الحال حلقـة حول صـاحب محل الـفراءات الذى أضاف: "يقول فيران" انه سيذهب إلى "تورتوسا" لمساعدة أهلها، لكن قلبى يحدثنى أنه ينوى الفـرار لان دواءه لاينفع"ولا يشفع " . وسوء كـان هذا او ذاك، فـإن "دون إلوى نونيث" ، والد العـجـوز، قـد انقطع الحبل الذى يربطه بالحـياة عام ١٨٨٥ ، ودفنوه، كما تقـول "لا أنتونيا" ، وهو فى كامل هيئته.

قال العجوز لـ "لاديس":

- كـما ترين، يا بنتى، فـقد كـنت ابن ساعـة وجثـمان والدى مـائل أمامى. وكما يُقال فإننى حتى لا اعرفه.

غامت عينا الفتاة الخاليتان من الاهداب :

- هذا يسمى سوء حظ.

- حدث لى تقريبا نفس ما حدث للملك.

- الملك؟

- ألا تعرفين من كان الملك، يابنيتى؟

انفجرت فى الضحك ، مرتابة:

- معك لا يمكن لأحد معرفة متي تتكلم بجد أو متى تسخر.

- لا أسخـر، يا بنيتى. كان الملك شـيئا هكذا مـثل صاحب الدولة. يأمر فى كل شئ ويقـول: "هذا هنا وذاك هناك" . "هذا يعجبنى ولا يعـجبنى ذاك" والكل يطيعه فى احترام.

كانت الفتاة تستمع إليه فاغرة الفم:

- أماه، لابد وان يكون واسع الثراء!

- تخيلى يا بنيتى كل ما يريده من غنى، لكنه فى المقابل، وبالعبث الاقدار ، لم يكن له أب.

ترددت "لاديسِ"، لم تكن تعرف ما إذا كانت تريد ان تضحك أو تغضب:

- لاتبدأ - قالت، أخيراً-. الكل له اب حتى الاشد فقرا.

ومع ذلك، فالملك، يا بنتى، لم يكن له اب، هذه الحقيقة. لقد مات ابوه قبل خمسة اشهر من ولادته وعندما ولد دثروه بملابس سوداء. ما رأيك؟ عاصرت "لاأنتونيا" مصائب الاسرة حتى انها كانت تضع كل ليلة بعض الاطعمة سرا على رف الخزانة، لانه منذ ان بدات المنغصات كانت "إيلينا"، اخت العجوز، تتحجج بان الطعام لا يدخل لها فما.

ومن جهته، فإن العجوز "إلوى"، الذى لم يكن وقتذاك سوى مخلوق ضئيل وعليل، كان يمضى الوقت فى المطبخ مع "لاأنتونيا" التى كانت تسأله مرارا لكى تشغله: "ماذا تريد أن أقص عليك اليوم، يا وسيم الوجه؟" ويجيب الطفل: "حكاية إمابو" يا "انتونيا".

- اتعرفين حكاية "إمابوت" يابنتى؟- سأل العجوز "لاديس" ذات صباح بينما كان ينظر إلى الاسطح التى يتسلقها الصقيع وإلى المداخن التى تخرج زفيرها بصعوبة تجاه تجاه السماء الرصاصية.

- حكاية (إيه)، ياسيدى- ردت الفتاة مترقبة-. الواحدة منا تمضى حياتها فى القرية وانت تعرف كيف تكون القرى.

عندئذ اوضح لها العوز أن "اماأبوت" كانت مغنية رائعة الجمال وعندما ماتت تركت ملابس تقدر فقط بثروات طائلة. لكن الفستان الأكثر بهاءً، المرصع باللؤلؤ البراق والاحجار الكريمة والذى ارتدته أثناء غنائها

للأوبرا المفضلة لديهـا، إستخدم كفن لهـاوعندما انتهوا من وضعـه عليها بعدما شقوه من جانب أضرموا فيه النار تـنفيذا لوصيتها. وبعد ان احترقت إماأبوت"، بمـا عليها من فسـتان، لم يتبق منها سـوى رماد قليل، وضع أصدقـاؤها الرفات فى صنـدوق من الذهب الخالص وحـملوه إلى أختـها وقالوا لها: "مس كلارك"، هذا ما تبقى من أختك".

تخيلته "لاديس" وهو طفل. احمرت بالتدريج، ثم رفعت يدها نحو فمها وتمتمت "ياللعذراء!" بصوت منطفئ، غير مسموع تقريبا. سألت أخيرا:

– وبماذا أجابت "مس كلارك"، يا سيدى؟

لم يكن العجوز يفعل سوى اقتفاء أثر "لاأنتونيا":

–خمنى أنت. ويضيف قائلاً: "ياالضاّلتنا!"، أو شيئاً من هذا القبيل.

فى مرات أخرى، وعلى ضـوء لمبة الغاز الخافتة، كـانت "لاأنتونيا" تحكى له، أثناء انتظارهما لعودة أختـه "إيلينا"، قصة "روباتشول". لقد لاحقوا "روباتشـول" لأنه كان دائم التورط فى الجرائم والاعمـال المشينة وعندما أمـسكوا به قدموه للمـحاكمـة وحكم عليه بالاعدام. ويوم تنفـيذ الحكم ايقظه الحارس فى الثالثة والنصف صباحاً قائلاً له: "روباتشول"، انهض، إنهـا الساعـة" لكنه استـدار نصف استـدارة على الخيـشة لغلـبة النعاس عليه وكان على الحارس هزه ست مرات والصياح فيه مرات أخرى مماثلة: "روباتشول، أفق حانت ساعتك"، لكى يستيقظ.

لم تكن تطرف للصـبى "إلوى" عينا، كـما لا تطرف عـين "لاديس" الآن والعجـوز "إلوى" يقص عليهـا الحكاية. كان الصـبى "إلوى" يسأل متعجـلا: وبماذا أجاب "روباتشول"، يا "أنتونيـا"؟ وتواصل "لاأنتونيا" كلامـها" قـال: طيب بس من غيـر زعل). ارتدى "روباتشول" مـلابسه وحلق ذقنه ومشط شعره ثم مثـل أمام الحارس وقال: "أنا جاهز، وعندئذ

اقترب القسيس وسأله: "روباتشول"، ستكون بعد قليل فى ذمة الله، ألا تريد الاعتراف؟». لكن "روباتشول" بصق وقال: «الغربان فيما بعد». وأراد أحدهم أن يعصب عينيه لكنه ابتعد وقال: «لا تفكر فى هذا». وعندما سقطت السكين فوق عنقه نظر نحو القسيس وصاح: «تحيا الجمهورية الشعبية!». ثم تدحرجت رأسه نحو الدّلو ومن هناك تابعت الصياح، وهى منفصلة عن الجسد والعينان جاحظتان: «تحيا الجمهورية الشعبية!».

تمكنت "لاديسِ" من السيطرة على رجفة وهى تسأل:

- هل يمكن أن تتحدث الرأس وحدها، يا سيدى؟

- حسبما رأينا، يا بنتى. ابن عم "لاأنتونيا"، الذى كان عضوا فى لجنة تنفيذ حكم الإعدام، دعا على نفسه بالموت إن كان ما يقوله غير صحيح.

إلى جوار "لاديس"، فى المطبخ، كان العجوز "إلوى" يستحضر دفء "لاأنتونيا"، مثل بخار اصطبل لاذع ومعتم. على خلاف ذلك، فإنه عند الاستيقاظ كل صباح فى السرير الواسع يشعر بوجع أسنانه من الصورة الباردة لأخته "إيلينا". لم تصدر أبداً عن أخته "إيلينا" بالرغم من رابطة الدم وكبرها عنه بخمس وعشرين سنة لَفْتةٌ تعينه فى الحياة أو تشعره بالدفء. ومع ذلك، فإن العجوز "إلوى" لم يكن يحمل لها أية ضغينة، لأن "إيلينا" أخته، ومثلها "سوثيسو" زوجة ابنه "ليونثيتو"، لم تختارا شخصيتهما، وعلاوة على هذا فهناك أشخاص قد وُلدو ليمدوا غيرهم بالدفء وآخرون وُلدوا لتلقيه. لكن "إيلينا"، بهجرانها، لم تكن هى التى تنبثق عنها ذاكرته، بل الشعور فقط ببرودتها. كان شعورا مبهما، لكن العجوز، لكى يَهُشّه، فإنه كان يتخذ وهو جالس فى السرير الوضع الدفاعى الغريزى للجنين، وعيناه مصوبتان نحو إطار المنبّه. وبهذا الشكل، كان يحل محل الإحساس بأخته ما علق بالذاكرة من الالتزامات

الماضية للوظيفة: «في التاسعة والنصف -كان مُدَوَّنا- رَفْع دفتر التوقيعات». وبعد هذا بقليل: «في العاشرة إلا الربع؛ تقديم التقرير للأمانة العامة». ثم: «في العاشرة والنصف، تقرير بالأعطال وإخطار السجل العام».

في بعض الأحيان، والصباح لم ينصرم، كان يصطنع النوم، وبين أطياف الغفْوة، كانت تبرز واضحة المعالم المطبوعات التي ظل يعبؤها بدقة خلال خمسين عاما: «قسم النظافة»، «سير العمل»، «تأشيرة حارس مقلب القمامة». حلم ذات مساء بأن "كرّاسكو" أرسل إليه بكومة هائلة من المطبوعات وقال له برصانته المعهودة: «إذا لم تملؤها جميعا لن تغادر المكتب؛ هذا أمر من "دون كاستور"». استيقظ فزعا، يلفّه العرق، خَدِرَ اللسان. منذ الإحالة إلى المعاش، والعجوز "إلوي" يعاني من الكوابيس دون حاجة لارتخاء المنْطَقة. كانت بِدعة كريهة. اعتاد أن يحلم بإصبع "كرّاسكو" المتَّهِم أوَ بالقمامة التى تتكوم فوقه ولا تجعله قادراً على تحريك إصبعه أو إصدار إشارة احتجاج. سابقا، فى حياة "لوثيتا" زوجته، كان يحلم، أحيانا، أحلاما واعدة. لدرجة أنه حلم مرّة بأنهم نَصَّبوه عمدة والكل يناديه بصاحب السعادة وكان هو يناشدهم بآلام المسيح أن يَعْدِلوا عن ذلك وينادونه بـ "إلوي" أو "دون إلوي" على الأكثر لأن هذا يَتناسب مع طبيعته في التصرف. لكن "لوثيتا"، زوجته، كانت تنهره وتوصيه بترك مرءوسيه ينادونه بصاحب السعادة لأنه إذا أعطى الثقة للناس انتهى بهم الأمر إلى التجرؤ عليه. لكنه عندما استيقظ، كفاه رؤية وجه زوجته وهو مغطى بالخِمار ليعرف أن ما مضى كان مجرد حلم.

حدث له نفس الشئ الآن عند نظره إلى المُنبِّه. لكن الكوابيس تطارده في الآونة الأخيرة حتى وهو مستيقظ، ولكي يفر منها كان يضع نفسه

بحركـات خرقاء داخل الـدثّار ويلجأ إلى المطبخ. ويمـجرد أن يصل إلى هناك كـان دفء "لاأنـتـونيـا" يطغـى على برودة المطبــوعـات وبرودة "كرّاسكو" وبرودة أخته "إيلينا". وكان يسأل:

- ألم يمرّ ساعى البريد، يا "ديسِ"؟

- مرّ منذ قليل.

- ولا شئ، يا بنتى؟

- لا شئ.

كان يجلس عـلى الكرسي وسرعان مـا تبدأ قرقـرة الجذوات فى قـهر تحجرّه الداخلى شـيئاً فشيئـاً. كان يغمض عينيه كمـا لو كان ينبش رفات الستين عاما الأخيرة من حياته:

- "لاأنتـونيا" لم تكن سـيئـة، يا بنتى. كثـيراً مـا كانت تقـول لى: «الكليتان توجعانى، يا وسيم الوجه».

- أكانت جريئة لهذا الحدّ! تقول لك يا وسيم الوجه.

كان العجوز ينهرها:

- وهل فى ذلك شئ يا "ديسِ". لم أكن سـوى طفل وقتـها. وكنت أسألها: «أين توجد الكليـتان، يا "أنتونيا"؟». فتفك أزرار فتحـة الفستان وتكشف لى مكانهما. كانت "لاديسِ" ترفع قبضتها إلى فمها وتهز رأسها مرارا كما لو كانت توبخ طفلا:

- هيا، يحتاج هذا لشجاعة كافية.

- لماذا، يا بنتى؟ -كان العجوز يسأل مستقصيا.

- مرّة ثانية! (بقى لك عين تسأل؟) -كانت الفتاة تقطع الحديث.

حقيقـة أن العجوز استطاع بفضل "لاأنتونيـا" إنقاذ سنوات خمس من طفولته. زوج أخته كان يدعى "أليخو" وكان هو يناديه بكلمة يا عم. كان للعم "أليخو" جسد عملاق وذراعا قـزم وفى كل مرة يرجع فيها مخمورا كان يحـمل هدية لأختـه، لكنها كـانت تخرج إلـى باب المخدع مُـلَوِّحة بصليب وتقول بصـوت جنائزى وكأنهـا تطرد روحا شريرة: «ابتـعد عنى، أيها الشيطان». عندئذ كان العم "أليـخو" يذهب، فى وداعة، إلى حجرة الصبى ويخلع مـلابسه على ضوء الـدهليز حتى لا يرى الصـبى، لو كان ساهرا، عورته. وبالرغم من ذلك، ففى بعض الليـالى كان الصبى يميز، فى الظل، عورتـه وذراعيه الصـغيرين وكـأنهمـا بلا مفاصل عـند المرفق وشعره الكثّ، وعندما يطفئ النور ويسمع عمه يحدث نفسه ويبكى أحيانا كان يمتلكه رعب مخيف وكريه ويحن إلى "لاأنتونيا".

فى المسـاء، تحت الضوء المـترنح لمصـباح المطبخ الغـازى، كانت "لاأنتونيـا" تحضر سلّة الملابس وتقـول له: «أدخل الخيط فى الإبرة، يا وسـيم الوجه، فلم يعـد النظر يسـعفنى». فـتلمع عـينا الطفل "إلوى": «بخيط أحـمر، يا "أنتونيـا"!». فتهـز كتفـيها القـويين وتبتـسم: «بخيط أحمر؛ لـتنزعه بعد ذلك وضع خيطا أبيـضاً بدلا منه، إنه لحياكـة ملابسى الداخليـة». وهناك، وهو جـالس إلى جوار "لاأنـتونيـا"، كـان يستـمع لحكاياتها الكئيبة أو يتحدثان عن مشـاكل أخته وزوجها. كان الصبى يقول لها أحيانا: «بالليل خرجت أختى بالصليب مرة أخرى». فترد عليه: «هذه هى الحكاية التـى لا تنتهـى أبدا». أضاف الصـبى فى إحـدى المـرات: «بالليل أتى العم "أليـخو" لينام معى وعندمـا أطفأ النور ظل وقـتا طويلا يحدث نفسه». تركت "لاأنتونيا" الحياكة ورمقته بعينيها: «وماذا كان يقول، يا وسيم الـوجه، ماذا كـان يقول؟». أجـاب الصبى: «كان يـقول: مع هذه المرأة الواحد...». أشارت "لاأنتونيا" على نفـسها بعلامة الصليب: «يالله

من هذا الهواء! . لا تذكـر لأختك كلمة من هذا، أسـمعت؟». «نعم، يا "أنتونيا"». «إنها معصية». «نعم، يا "أنتـونيا"». «لكنها معصية مغلّظة، أيها الصـغير. أنت نفسك يجـب أن تعترف بها غـدا لتكرارك لها الآن». «لقـد قلت مـا قلت لأنك سـألتـيني، يـا "أنتـونيـا"». «لا يهم؛ عليك بالاعتراف غدا». «حسنا، يا "أنتونيا"».

بعد عدة أشهر، ذهب كل هذا مع الريح، والعجوز، الذى كان لايزال صبيا وقتها، وجد نفسـه مضطرا لتغيير مصدر الدفء والحنان. لقد ذهبت أخته إلى "بلباو" لتعمل مـدبرة منزل، ثم رحلت بعد ذلك إلى دير صديقتها "إيروينا"، وكان هذا مـا تمنته دائماً. أمـا زوج أخته فقـد هاجر إلى نزويلا بينما ذهبت "لاأنتونيا" لتعمل عند السيدة "إيمليا" حاضنة أطفال.

لاحظت "لاديسِ" أن العـجوز، الجـالس على الكرسى المـسـتـدير، ينطح الهواء برأسه. قالت فجأة:

- (حتنام، واللا إيه؟).

فزع العجوز "إلوى":

- لا عليك، يا بنتى.

لمست أنفها لمسة خفيفة:

- سيدى، المنديل.

تنظف بحركة آلية.

- هيا، احكى لى شيئاً. تبدو وكأنك فى مأتم -قالت الفتاة.

- وما الذى تريدين أن أحكيه لك، يا بنتى؟

وضعت "لاديسِ" يديها على خاصرتها وهى تبتسم:

- حكاية "إمّابو"، يا سيدى -أجابت دون تردد.

-٦-

دون الخوض فى التفصيلات، فقد عاملتهـا "لامارثى" كأخت لها وعندما كتبت لـها من القرية أجابتها الأخرى بمـجرد وصول الخطاب، وبعد ذلك، لم تكد تخبرها بموعد وصولها حتى خرجت لتنتظرها على محطـة الأتوبيس، وبعد ذلك أيضـاً، أخذتهـا من يدها -كما يـقولون- وطافت بهـا أرجـاء المدينة لـكى تعلمـها التـصـرف كمـا ينبـغى. فى أعماقـها، كانت "لاديس" توقِّر صـديقتها؛ كانت مـعجبة بشـدّة ببياض بشرتها؛ بعينيها الزرقاوين الفاترتين الخاليـتين من التعبير؛ بعدم خجلها من المجنَّدين الجـدد الذين يلاحقونها؛ بطبعـها المتشيـطن والمتقلِّب؛ بطريقتهـا فى المطالبة عندما يكون لها حق؛ حـتى بقدميهـا المفلطَحين اللذين يعذبانها أثناء جولات الآحاد التى لا تنتـهى ويُجبرانها، فى نهاية المطاف، على الجلوس فوق مـقعد أو على حافـة الرصيف ولو كُنَّ فى شهر ديسمبر.

عادات "لامارثى" المتحضرة غـمرت "لاديس" -المعتادة على البشرة الصفـراء الضاربة إلى الخضـرة التى لَوَّحتها الـشمس وعلى تَرويع الذباب بلطمات قاسية وعلى الصياح للمطالبة بما يخصها -بالدهشة، فى البداية، وبالإعجاب بعد ذلك.

لكن، بالرغم من كل هذا، ظلّت القـرية فى دمهـا، ولذا فإنهـا كانت أحيانا تقول وهى منبهرة:

- أماه، تصورى لـو أن هذا الميدان انتقل لقـريتى وشاهده الناس هناك!
بالرغم من أن قريتها لا تكاد تبعد سبعـة فراسخ عن المدينة الإقليمية إلا أنها

كانت تتخيلها مكانا مبهمـا وفى غاية البعد؛ ومع ذلك، كانت القرية بالنسبة لها المَحَكّ الذى لا فكاك منه. كانت "لامارثى" تنهرها:

- إنْسِ القرية (بقَه)؛ (هوه مفيش) فى الدنيا غيرها!

لكن "لاديسِ" لم تكن تستطيع الفكاك من صـورة قريتها؛ فـقد كانت أقوى من رغبتها؛ بل أقوى منها ذاتها:

- تخيلى لو أن هذه السينما كانت فى قريتى بدلا من مكانها هنا.

وتحت الثُّقْل الباهظ لجـرأتها كانت تحكُّ إصبعهـا السبّابة فى الأوسط محـدثة رنينا وتضحك متـخيلة وجه "البيكـاثا" الذى لم يصل لأبعد من حدود "ثيريثيا"، و"ماتيلدى" و"دون خيرونيمو"، القسيس، و"لاكايا"، زوجة أبيهـا و"سلبينا"، أختهـا، و"فيديو" ووجوه الجـميع إذا وقع هذا الشئ الذى تتخيله. لم تكن "لامارثى" تكف عن كلماتها القميئة. وتظهر دائمـا تشددها مع العـجوز: «هيـا، لو قلت لأحـد أن العم البخـيل هذا يستخدمك نظير مـائتى بيزيتة فلن يصدق». كانت "لاديسِ" تسكت، أو، على الأكـثـر، تُعلِّق دون حـماس: «(شـوفى) يا "مـارثى"، هذا الأمـر يخصنى؛ (ومـا فيش حدّ) له عنـدى حاجة». فى تلك الحـالات، كانت "لامارثى" تُـصَعِّد الأمـور: «قولى له على الأقـل يشترى لك ثـيابا، أن (يدعبس) فى جيبه». كانت "لاديس" تتحمل فى صمت كلمات صديقتها المصوبة كالطلقات نحوها لأنها كانت تعرف أن العجوز لا يفيض منه شئ ولم تكن تريد أن تعـتصره. وبالرغم من ذلـك، فقد طلبت منه ثـيابا منذ ستة أشهر لأن الدّثارين اللذين أحضرتهما معها من القرية كانا يستحقان أن يُقَدَّما صدقة لمسكين وفوقهما خمسة ملليمات، واشترى لها العجوز مئزرا ووعدها بشـراء فستان وخُـفَّين بفلوس المنحة. لـكن المنحة وصلت ولم يقدّم العـجوز تفسـيرا. كانت الفـتاة تحسّ بأن الوقت، بعـد الإحالة إلى

المـعاش، ليس مناسـبا. قـبل هذا بليلتـين ضبطت العـجوز وهو ينتـزع مصباحى الصالة والمرحاض من مكانهما. ارتبك العجوز عندما رآها وقال من فوق الكرسى الذى كان عليه: «مـا نفعله هنا فى النور يمكن فعله فى الظلام، أليس كذلك، يا بنتى؟».

قام بعد ذلك بتفريج همّه فى آلة التصوير. بعد عشرين يوما من إحالته إلى المعاش، وجـدته "لاديسِ" فى الصالة وقد قلب كل شئ فيـها رأسا على عقب.

اعتاد قبل ذلك على تمضية الآحاد الـمشمسة فى الشرفة وأخْذ لقطات (على الفاضى والمليـان) بآلة التصوير الفارغـة لكنه لم يعتد إقحـام نفسه داخل البيت. عندما رأى الفتاة توسل إليـها حتى تجلس على الكَنَبَة وتظل بلا حـراك لعـدة ثوان لأنه سيلتـقط لهـا صـورة نادرة. تركت "لاديس" المقشّة وأخذت مكانها على الكنبة وهى مـشدودة للغاية ثم سألته بابتسامة مصطنعة بينما كانت تنظر شزرا إلى الآلة:

- جد هذا أم هزل، يا سيدى؟

وَارَبَ شيش النافذة لكى يدخل شعاع الضوء.

- طبعا هزل، يا بنتى، ثمن الفيلم اليوم يقدّر بثرورة.

قالت:

- لو تصنع فى معروفا ذات يوم وتلتقط لى واحدة حقيقية.

كانت "لاديسِ" تحلم بإرسال صورة إلى "سلبينا" لكى تقوم بإيصالها إلى "البِيكاثا". بالرغم من عدم مـوافقة "لامارثى" على هذه الفكرة، إلا أن ما يُـقال عن "البـيكاثا" وعلاقـته الجـديدة بـ"ماتيلدى" قـد أفقـدها صوابها. وعندما تنفرد بنفـسها لم تكن تفكر فى شئ آخر. كانت إذا رأت

السماء تَنْشَقُّ، ذات ليلة، عن نجمة مُذَيَّلة، تهتف فى سرِّها بحماس بالغ: «ليحبنى "البيكاثا"، ليحبنى "البيكاثا"!». فقد علّموها منذ أن كانت طفلة بأن من يعبّر عن أمنية فى تلك اللحظة يتحقق له دائما ما يريد، وحب "البيكاثا" لها يعتبر حلمها القديم. لكن "لاسلبينا"، أختها وزوجة "الأوتروبيو"، قد كتبت لها مؤخراً: «أعرفك بأن "البيكاثا" و"ماتيلدى" من الصيف وهما فى غاية الانسجام». ولذلك فإن "لاديس" وهى لاتزال توكل النجوم الشاردة نجواها، كانت تتمتم دائما، بمجرد أن تُنهى النجوم مشوارها فى السماء، وعيناها غائمتنان قليلا: «أماه، ياله من رجل وغد!». حقيقة، أنه فيما عدا مهرجان "لوس كينتوس" واحتفالات عذراء "لاجيًا" ويوم "سانتا أجيدا" الذى تأمر فيه النساء، لم تكن "لاديس" تحنّ إلى القرية. ولم يكن يؤلمها بُعاد "البيكاثا" أيضاً. "البيكاثا" عند استحضاره على البعد، كان مَجْمَعًا للفضائل. فلم يكن، عند تذكره فى المدينة، تفوح منه رائحة الاصطبل، ولم يكن يمشى وكأنه يُجَرُّ، ولم تكن ساقاه منفرجتين مثل قوس، ولا عيناه متحدتان.

بمعنى أنه كلما تأقلمت "لاديسِ" مع المدينة كلما طفا على مخيلتها "بيكاثا" متحضر ومُرَفَّه، مشابه، إلى حد ما، للأبطال الذين كانت تعجب بهم فى السينما مساءً بعد آخر.

لم تكن "لاديسِ" تكثر من الذهاب إلى السينما حتى لا تبدد راتبها. «إذا دخلنا السينماكل يوم، فعلى الراتب السلام»، كانت تقول لصديقتها "لامارثى". وعندئذ توبخها صديقتها: «يا بخيلة؛ ما فائدة النقود إذن!». لكن النقود بالنسبة لـ«لاديسِ» كانت فعلا ذات فائدة. ففى سنتين ونصف فقط اشترت بياضتين للسرير، فوطتين، ثلاث ملاءات، مفرشا أزرقا وحقيبة لتحفظ فيها متاعها. ومن جهة أخرى فهى تريد أن تشترى قميصا وسترة من الصوف المشغول لأن "لاسلبينا" كتبت لها قائلة: «أعرفك بأنه

فى فبــراير على الأكثــر، سيــذهب "اليكاثا" إلــى المدينة لأداء الخــدمة العسكرية». كــانت الطلبات كثــيرة، ولذا فإنهــا كانت تفضل التــجوّل فى الشارع جيئة وذهابا، متأبطة ذراع "لامارثى"، تشدُّ من أزْرها فكرة الإبقاء على الراتب من أجل أشياء أكــثر فائدة. ومن جهة أخرى، كــان للتجوال فى الشارع بواعــثه وأســبابه. فالمُــجنَّدون يُستَبْــدَلون كل عام وقــد كانت معجبة بالعسكريين، بمشيتهم المتأنية ذات الإيقاع. كانت تفضل، وإن لم تُعْرب عن ذلك صراحة، جنود سلاح الفرسان لأنهم يذكرونها، على نحو مــا، بـ"اليكاثــا". لم تكن الفتــاة تعنى بتــحليل الأســباب، ولو فــعلت لتوصلت إلى أن وجه الشبه بينهــما يكمن فى رائحة الاصطبل التى تنبعث من كليهما. كانت "لامارثى" على عكســها، تفضل جنود سلاح المشاة، ربما لأن تجاوزهم حدودهم -خاصــة إذا كانوا قد تدربوا على يد العرّيف "أرخيــميرو" -كــان يسعدها ســعادة بالغة. وعلــى خلاف هذا، لم تكن "لاديسِ" تغــفر أدنى تجــرؤ لا من جنود ســلاح الفرســان ولا من جنود سلاح المَشــاة: «إلْمس مرة أخرى، يا منبع القذارة، وســألطمك لطمة لن يتعرف عليك أحدٌ بعدها ولا حتى أمك»، كانت تقول عند اللزوم وعيناها خارج محجريهما.

كانت الفتــاة تؤمن بفكرة مُلحّة عن العفّة وتدافع عنــها بكل ما أوتيت من شــجاعة. ولــم تكن هذه الفَكرة نابعة، تمــاما، من أســاس دينى لأن صاحــبتها لم يكن يعــشش فى عقلها الصــغير ســوى معتقــدات بدائية. فبالنــسبة لها، كانت عذراء "لاجــيّا"، قديسة قريتها، أعظم شئ فى هذا الوجود. عند نومها واســتيقاظها، كانت الفــتاة ترفع قبضتيهــا إلى فمها وتطلق سلسلة من القبلات نحو الصــورة المُعَلّقة فوق رأس سريرها، ثم تتمتم فى خشوع: «مع الله أنام، مع الله أســتيقظ، مع عذراء "لاجيّا" والروح القدس».

كانت هذه الأسماء تشكل جَلَبَةً غامضة داخل عقلها. فهى لم تذهب إلى المدرسة إلا قليلا وعندما توفّت والدتها حجزتها الأشغال فى البيت. ومن جهة ثانية، فإن "لاكايا"، زوجة أبيها، لم تهتم بتأصيل مشاعرها الدينية. فى القرية كانت توجد حالات أخرى كثيرة مشابهة. ودون الحاجة إلى الرجوع بالذاكرة كثيراً إلى الوراء لازالت الفتاة تذكر العام الذى حاول فيه دون "خيرونيمو"، القسيس، تحديث عيد "سان روكيه" وجمع لهذا الغرض دستين من الصبية فى الجوقة.

كانت سيقان الأولاد تتدلى من بين القبضان وتبتسم أفواههم ابتسامات مترقبة . وسألهم القيس بمجرد وصوله : «من هو " سان روكيه " المبارك ؟» .

ارتفعت بالتدريج أربعة وعشرون صوتا نَدِيّا: «أوّاه ، سان روكيه" يا مبارك يا من اختارك الرّب زوجا لأمه!». اشتاط دون خير ونيمو غضبا، بدأ يُخَزِّن زَبَداً فى شدقيه وطردهم من الكنيسة وبعدها أقلع عن الاحتفال بسان روكيه. حدث هذا عندما أطَلّت الخصومة برأسها بين "دون خير ونيمو" و"دون فيديل " المُعَلّم، الذى كان يدير بالاضافة إلى وظيفته مصنعا للطوب اللِّبن خارج القرية. لم يكن الصراع يتجاوز الطابع الشخصى حتى عثر القسيس على الصبية وهم يغنون فى الشوارع الموحلة:

أبونا قدح بغطاء قصدير ،
بيّض الله وجوهنا يوم النشور .
من بين بضعة شجيرات للزيتون
تمرق حمامة بيضاء
أنصع بياضا من البلّور .

فى اليوم التالى انتقل القسيس إلى المـدينة لكى يخبر الأسقف بسخرية المعلّم من أشدّ الاشياء قداسة تدخلت فيما بعد لجنة التفتيش وبالرغم من عدم اسـتطاعتهـا تقديم دليل ملموس ضـد المعلّم الذى احـتج قائلا بأن الصبـيان إذا لم يكونوا قادرين على فـهم الاشياء الطبـيعية فلنا أن نتـصور مدى تخبطهم عندما يتعلق الامر بتفسير ما وراء الطبيعة إلا أن "دون فيديل " لجأ فى نـهاية المطاف إلى طلب التـقاعـد المؤقت لمدة تـزيد عن عام وتقلّ عن عـشرة والـى تكريس جهـوده لمـصنع القـرميـد. علّق " دون خيرونيمو " على ذلك قائلا بأن المعلّم «يغزل بخيط رفيع جدا» ومن يومها بدأ أهل القـرية ينادون الـمعـلّم بكلمـة "دون فـيـديو "بدلا من" دون فيديل " . *

بعد ذلك ببضع سنوات استفحلت الـخصومة بين الإثنين عندما حدثت واقعة الجراج .

كان القسيس يقول أنه من غير المُـتصَوّر أن يتعاون رجل مع قوى الشر صراحة. ردّ عليه دون فيديل الذى انتفخت أوداجه بأنه يبيع طوبا ولا شئ أكثر وأن على عمله العفَاء لو كان عليه فى كل مرة يشترون منه عربة طوب التّحـرّى عما إذا كان هذا الطوب سـيُبنى به مرحـاض أو كشك. بدأ دون خير ونيمو فى الصياح وبما أنه كان ضخم الجثة وله يدان هائلتان فإن دون فيديو لم يكن يُوَفّق فى مجادلته ويكتفى بترديد كلمات شكلية : «حسنا ، إيه؟ دون بصق» وعلى هذا المنوال كانت الأمـور تمضى بين الإثنين حتى قدمت "لاديس " إلى المدينة.

* الإسم الحقيقى للمـعلّم هو "فيديل" ، وهو إسم علم فى الأسبانية. لكن بعـد اتهامه أمام لجنة التفتيش الدينية بالسخرية من المقدسـات واستطاعته الخروج من التهمة بذكاء، وقول القسيس عنه أنه «يغزل بـخيط رفيع جداً» (كناية عن سخريته الذكـية وعدم القدرة فى ذات الوقت على إدانتـه) غيّـر أهل القـرية إسمـه بمـا يتناسب وعبـارة القـسيس وحـولوه إلى "فيديو". وهذه الكلمة تعنى: الشّعْريّة الرفيعة جداً- المترجم.

بغض النظر عـما تقـدم ذكـره ، فإن الفـتاة ظلـت تخلط فى عقلهـا الصغيرين مفاهيم مختلفـة بالرغم من وجود قاسم مشترك بينها «الله سان روكيـه ، عذراء لاجـيّا الـروح القدس كـانت أفكار لاديس الدينية تظـهر واضحة فى نقطتـين لا ثالث لهما : الجنة التى تنتظر من كـانوا أخيارا فى الدنيا ويصلّون كـل ليلة بلا انقطاع: «مع الله أنام مع الله أستـيقظ . . .» وتُشبِّهُـهَا (أى الجنة) بسماء زرقاء صافـية، مثل مفرش سـريرها، تجوبها بعض السحب التى يـمتطيهـا المُوعَدُون، وجهـنّم بضوء من لهب والذى يختزن عقلها صورة حيّة له: حريق مخازن الغلال بالقرية والذى حدث فى أغسطس عـام ١٩٤٥. نار شاسـعة تحـترق فيـها، دون أن تفنى أجـساد الكافـرين وكل أولئك الذين دون أن يصلوالحـد الكفر قـد أغفلوا تهـاونا الصلاة ذات ليلة عند النوم أو ذات صباح عند الاسـتيقاظ ولم يقولوا «مع الله أنام ، مع الله أستيقظ . . .».

ومن هنا فـإن "لاديس" حتـى فى الايام الاشد عناء كـانت توجِّـه كل ليلة عينيهـا المسطحتين إلى عـذراء لاجيّا وتتمتم فى خـشوع «مع الله أنام ، مع الله أستيقظ مع عذراء لاجيّا والروح القدس». أغلـفت الفتاة صلاتها مرة واحدة فقط أثناء مرضها بالأنفلونزا واستيقظت فزعة فى الثالثة صباحا وهى تنتحب .

ألقت بنفسها من على الســرير وصلّت، لكن الشك عَشَّش فى صدرها لأن اليوم كان قد انتهى فى الثانية عـشرة مساءً ولم يهدأ لها بال إلا بعد أن أكّد لها العجوز أن ذلك فى عُرف رجال الفلك والعلماء ، أما بالنسبة لبقية البشر فإن الشمس هى التى تفتتح اليوم الجديد.

فى البداية أربكتها المدينة وحدث لها شئ مماثل مع غرفة نومها لكنها اعتادت على المدينة بالتدريج وأصبحت غـرفة نومها أعز ما تملك وأقرب الاشياء إلى نفسها. هناك فى القرية لم يكن لديها أبدا شئ خاص بها ولذا

فإن ترتيب حاجياتها وامتلاك غرفة بائسة أيقظ في صدرها الآن حماسا منقطع النظير لم يعد يهم أن يكون المكان بنافذتيه العلويتين الصغيرتين والمطوّقتين بشبكة معدنية وببعض القضبان المتداخلة ضيقا ومعتما فقد كان يتراءى للفتاة مضيئا للغاية حتى أنها استطاعت أن تُضفي عليه سمتها الشخصي «ولو كان هذا على حساب نقودها» كما كانت تقول لصديقتها "لامارثى" عندما كانت هذه تعترف بشئ من التحفظ أن المكان لا ينقصه شئ.

هداها تفكيرها لوضع لوح من الخشب على شكل رفّ بجانب حوض الغسيل المثلوم واشترت بنصف بيزيتة شريطا من اللّزْق الشفّاف لتثبيت صورة عذراء " لاجيا " فوق رأس السرير وعلى الكومودينو ، الذى أكلته القَرَضَة ، وضعت القوقعة الحجرية التي وجدتها وهى طفلة فى الصحراء والتي قال عنها " دون فيديو" أنها إحدى الحفريات كما وضعت المشابك ذات الرؤوس الملونة والصورة التى يرجع تاريخها لأعياد ١٩٥٠ ويظهر فيها مطموس المعالم البيكاثا فى جانب وأخت "لاديسى" "لا سلبينا" إلى جانب "الاوتروبيو" و"الدلفين" الابن الأكبر لصاحب دكان التّبغ والذى كان قد تقدم لخطبة " ماتيلدى "

فى البداية كان تُخفى هذه الصورة مع بعض أشياء تخصها فى صندوق صغير من الخشب غطاؤه مطلى بالورنيش ويحتوى على مرآه فى ظهر الغطاء لكنها أخذت تستخدم بعد ذلك هذا الصندوق الذى كانت تُعلق مفتاحه الصغير فى دوبارة حمراء تتدلى حول عنقها فى حفظ خطابات لاسلبينا التى أرسلت لها "لامارثى" على القرية منذ شهور مضت صورة فورية لعمل بطاقة شخصية ومعها قصاصة من صحيفة يومية صدرت العام الماضى تتحدث عن حادث سيارة وورد فيها إسم قريتها و" دون خيرونيمو" ، القسيس ، و" دون أوليبانو" و"دون فيديريكو" ، الطبيب، بالرغم من أن الجريدة أطلقت عليه ،خطأ، إسم " دون فرانثيسكو" .

لكن "لاديسى" كانت تُولى التسريحة اهتماما أكبر. فنتيجة لنصيحة "لامارثى" التى عاملتها بالرغم من حدّة طبعها كأخت لها ، ولموافقة الفتيات اللاتى كنّ يجتمعن بها الساعة السابعة من أيام الآحاد أثناء قدّاس " سان بدرو"اقتنت " لاديسِ " علبة كريم صغيرة ماركة بيّا أوروا" للاعتناء ببشرتها وكل ليلة قبل صلاة «مع الله أنام ، مع الله أستقيظ . . . » كانت تضع فوق وجهها لَحْسَةً من الكريم فى حجم حبة الحّمص. كانت الفتاة تنتظر معجزة فى البداية قالت لها " لامارثى " «إنها الوسيلة المضمونة لتطليق القرية». وكانت تنتظر بفارغ الصبر تحّول بشرتها، وكل خميس وكل أحد كانت تسأل صديقتها بنظرة قصيرة حالمة : "مارثى " هل طَلَّقَتُ القرية الآن ؟

كانت " لامارثى " تتسم بفظاظة فطرية لم يخفف من وَقعها الاحتكاك بالمجندين الجدد لسلاح المشاة ولا معاكسات العرّيف أرخيميرو" ردّت:

- على مهلك ، يا حلوة : (إنت مُشْ مستعجلة شوية)

على الرَّف ، بجوار علبة الكريم «بيّا أوروا» ، وضعت "لاديسى" أحمر شفاه، نصف دستة من بنسات الشعر، كيسا يحتوى على مسحوق البودرة، علبة ورنيش صغيرة وقطعة صابون ذات رائحة نفّاذة .

كل عالمها كان موجودا بتلك الحجرة واذا أحسّت ذات يوم لاى سبب من الأسباب باليأس يهدد روحها أو بأن قدميها لا تحملانها فإنها كانت تحبس نفسها هناك وتنهمك فى ترتيب الرّف أو الصندوق الخشبى الصغير وهكذا تبدأ شيئا فشيئا فى استرداد سكينتها واذا أحسّت كذلك بشئ ما يملك عليها نفسها أو مفعمة بحافز ما ، فإنها كانت تتناول من على الكوميدينو صورة أعياد ١٩٥٠وتتأملها فى ثبات ، فى إلحاح ، إلى أن تبدأ الشخصيات أخيرا فى التحرك ويبتسم لها " البيكاثا" أو يغمز لها بعينه. فى تلك الحالات كان وجه الفتاة الخشن يلين ، تتسع فتحتا أنفها ، ترتعش قليلا شفتها السفلى المتشققة ، وعيناها المعتمتان الكابيتان عادة كانتا تتألقان ببريق دمعة.

-٧-

اعتـاد "بولدوبومبـو" ،الرجل الرياضى ، أن يسأل فى لـحظات وَجْد رومانسـية : «منْ من الأربعة سـيعيش أكثـر؟» أيامها كـان يتدرّب بكرات الجمبـاز التى اخترعها الدكـتور " ساندون " وأوصت بها المراكـز الطبية الشهيرة لكل من يريد تقوية عضلاته ولم يكن يشك وقتها أنه الأطول عمرا بينهم. لكن تُقَـدِّرون وتضحك الأقـدار؛ لقد مـات "بولدو بومبـو" بداء السلّ فى ٨ فبـراير ١٩٢٩ بالرغم من كُرات الدكتـور "ساندون" وبالرغم مما حققه من مآثر على الدّراجة.

فى الطريق إلى محطة التنـقية ، ذكّر العـجوز "إلوى" صديقه عـيسى بهذا. لوّح عيسى بالعكّاز الخفيف وقال أثناء توقّفه:

- أفضل ما أذكره ل" بومـبو" تلك المرّة التى أهدى فيها ببـغاء طويل اللسان لأختى "لوبى" فقد كانت تمر بأزمة وأعانتها هدية بومبو" على تجاوزها.

تنهد العجوز "إلوى" بعمق مـرّر المنديل بسرعة على طرف أنفه. فى الفتـرة الأخيرة كـان عيسى يتـهرب منه دائما؛ لم يكن يُوَفق فى حـصاره داخل ملعبـه . كان صديقـه ظاهرة عجيـبة. من مدة لم يعـد يشغل فكره سوى الوصول إلى المائة، الشمس الفـتيات، وعلى وجه الخصوص بطنه الكسول. كثيـرا ما ناشده العجوز " إلوى "بالتغـوّط فى الخلاء لكنه كان يقـاوم بشدة. كـان العجوز " إلـوي" يقول «فى الربيع والصـيف ينصلح حالى وأمـشى كالساعة». وعندئذ يَحْـتَجّ عليه عيـسى: «هذا يتوقف على طبيعة الشـخصية (شوف) "أجوادو" كان يتعـرض لتيار الهواء وهو يراجع الملفّات القديـمة . يظن أن ذلك راجع للتراب الذى يستنشـقه لكن فَتّش أنت عن السبب!»

لقد عانى عيسى منذ الطفولة من عدم انتظام عملية التغوط وكانت أخته "لوبي" تقـول أنها لا تزال تذكـر والدته وهي تضع له نقط الزيت بصـفة شبه مستمرة وأنها كانت تبكي لتصورها أن هذا يمكن أن يُلحق به الضرر. من جهته كان عـيسى يُبرِّيء ساحته مؤكدا بأن أخواته كنّ سـببب عزوبيته وأن تصرفه في النهاية لا يتسم بأي ضرب من ضروب البطولة لأنهن عزفن أيضاً عن الـزواج من أجل تربيته. ومـع ذلك ففي النادي حيـث لا يخفى شئ كانوا يؤكـدون على أن أويا "الصغرى لم تسنح لها الفـرصة أبدا على حين أن " لوبي " كانت مـتهالكة منذ صباها علـى " بولدو بومبو" لكنه فيما عـدا هدية الببغاء لم يقدم لهـا بارقة أمل. كما كانت معـروفة كذلك فضيحة الحارس الذي لم يصنع فيهـما معروفا. مضى زمن كان يشكل فيه " بولدو بومـبـو"ويـبـين باثكيث"، الذي رحل دون انتـظار في الرّدهة، وعيـسى والعجوز " إلوي " مـجموعـة مترابـطة ومتمـاسكة. حدث هذا خلال المدّة التي وصل فـيها المواطن النّزيه والعفـيف " دون نيكوميدس فرنادث بينيا " إلى منصب العمودية والذي نُفِّذ في عهده مشروع المجاري العملاق وسـفلته الميدان والشوارع الرئيسـية كان ذلك الزمن هو زمن أيام الرّخاء والذي حلّت فيه الإضاءة الكهربائيـة محل الإضاءة بالكيروسين وقد أقامت البلدية من أجل الاحـتفال بالحـدث السعيـد معرضا رائعـا للزراعة والصناعة والتجارة والفن لَفَت أنظار العالم أجـمع. كانت أصداء الاحتفال المهيب لا تزال عالقة بالاذهان عندما أخذ فخامة السيد " دون نيكوميدس فرناندث بينيـا" بَرْدا وهو يزيح الستار عن تمثال كـولمبس تحت وابل من الأمطار وسرعان ما تحوّل البرد إلى التهاب رئوي لم تُفد معه وسائل العلم الحديثة ومات بعده بأربعة أيام. أبرزت الصحـيفة المحلية المُصاب الجلَل بإيجاز شجيّ «دون نيكوميدس فرنادنث بينيا عمدة المدينة مات وهو يؤدي واجبه أسكنه الله فسيح جنته».

فى تلك الأيام كان العجوز "إلوى" قد تسلّم عمله فى البلدية وخلالها بدأت ساق العم "إرمنس"، حنانه الثانى، تتعبه. كان العم "إرمنس" يقول للفتى "إلوى" ان اهتمامه بمشاكل البلدية ينحدر عن أسلافه. كان العم "إرمنس" رجلا نباتيا ذا مهارة فائقة فى ابتداع الفكاهات والدفاع عن قضايا خاسرة. لكنه كان شديد الاستقلالية ويفضل عدم الزّج بنفسه فى متاهات واذا كان يتسلى بأوراق اللعب وعُرضت عليه أية قضية فإنه كان يتهرب منها متعللا بكثرة مشاغله. من حين لآخر كان العم "إرمنس" يقرأ عليه الخطابات التى وجهها والده إلى الصحيفة اليومية مطالبا بمزيد من التحضّر وعند الفراغ من قراءتها كان يفعل مالا بد منه وهو التأكيد بأن تلك الخطابات يمكن أن يكون كاتبها ثرفانتس لكن إلوى نونيث هو الذى سطّرها لأن الحياة هكذا متقلّبة وغريبة الاطوار.

أمام محطة التنقية دار العجوز "إلوي" حول نفسه مرتين باحثا عن وجه الشمس وقال لعيسى بعد ان مرّر المنديل بنعومة على طرف أنفه :

- عمى "إرمنس" كان رجلا رحب الصدر، هذا هو النعت المناسب له قلت له ذات يوم أننى لا أريد الذهاب إلى المدرسة، أتعرف بماذا ردّ علّى؟

صوّب اليه عيسى ابتسامته الوردية

- ماذا ؟ سأل مستقصيا

- قال لى «افعل ما يحلو لك، الحياة قصيرة وإذا جعلناها مريرة بإجبار بعضنا البعض على فعل ما لا يحب فلا تستحق أن تُعاش» ولهذا السبب عملت فى البلدية.

الجولات اليومية للعجوز "إلوى" وصديقه عيسى يرجع تاريخها إلى ١٩٢٩ وهو نفس العام الذى توفى فيه "پولدو بومبو" الرجل الرياضى. قبل هذا التاريخ كانت تربطهما علاقة حميمة لكنها غير متواصلة. انتظمت

علاقتهما ابتداء من ٩ فبراير ١٩٢٩ وكان الاثنان يتواجدان فى تمام الرابعة مساءً تحت البواكى بجوار مكتبة "أفروديسيو نينيو". قبل خمسة وعشرين عاما كانا يمشيان دون حساب للمسافة ويتحدثان بحماس شبابى. لكن الحماس أخذ في التراجع رويدا رويدا، ومع الحماس حب الثرثرة، ومع حب الثرثرة طول المسافة. ابتداء من ١٩٥٥ ، نادرا ما كانت مسيرتهما تتجاوز المقابر أو محطة التنقية أو مطعم " جسپارين ماركيز". عند تلك الأماكن كانا يمشيان على مهل وكأنهما مرغمان عليه وكان الحديث يمضى بطيئا وكأنهما مُرغمان عليه. كانت علاقتهما تتألف من الصمت والذكريات الدفينة. لقد تربيا معا وترعرعا سويا وعاشا نفس الحياة وفي نهاية الأعوام الطوال لم يعد يحّس أحدهما بقدرته على أثارة دهشة الآخر. كان من الضرورى الوصول إلى الشيخوخة حتى تبدو لهما الاشياء مدهشة من جديد وجديرة بالحكاية. ومع تعثّر الحوار وصل الشِّقاق. لم يكن عيس يفهمه أو لم يكن يريد فهمه. كان عيسى يرفض صنع حاضره من خلال ماضيه. صحيح أن الزمن قد تغير جذريا لكن هذا لا يبرر إمكانية تغيّر عيسى معه. كان يوجع العجوز " إلوى " تشبث عيسى بعصر لا ينتسب إليه، عصر يستعصى على المقارنه بعصر شبابه.

فى عصرهما كان العالم أكثر جدّية وكانت المشاكل الخطيرة تُناقش دون عجلة، بالجدية المناسبة، ومجلس بلدية "دون نيكوميدس فرناندث بينيا ذاته "اجتمع بكامل هيئته اثنا عشر اجتماعا استثنائيا فى ١٩٠٣ ليقرر سَفْلتة الميدان وأربعة عشر اجتماعا ليقرر إنشاء شبكة الصرف الصحى، ولم تكن الجدّية تنسحب فقط على الهيئات بل شملت الموظفين أيضاً. عندما التحق بعمله في البلدية نادرا ما كان زملاؤه يخصصون أوقات فراغهم للحديث عن النساء والأمور التافهة. فى عصره كانوا يناقشون قرار «كونت دى ألميناس» بالمساهمة فى تكوين هيئات المحلَّفين المختلطة أو مناقشة البطالة العامة فى برشلونة.

كان عـيسى نفســه، والذى انتهى وقتـها من تأسيس وكـالة الاعلانات الخاصة به فى شـارع " لوس جريميوس، "يقول : «الأثر الأول لهـيئات المحلفين المخـتلطة يتمثل فى تنظيم العلاقة بين المـالك والعامل وتوفير التناغم المطلوب بين العمل ورأس المال». كانت الأمور هكذا وفجأة، لا أحد يعرف لماذا، كيف ولا متى، انقلب كل شئ رأسا على عقب. كان العــجـوز "إلوى" على وعى تام بمـا حـدث لكنه لم يُوَفَّق فى تحـديد أسبابه. كان فكره يتجـه إلى الحرب الأهلية لكن الحرب فى رأيه ليست مبررا لكل هذا التحول. كان الشئ الذى لا يختلف عليه اثنان يتمثل فى قيام الشبان الحاليون مثل كرّاسكو بقتل ساعات الصباح فى الغمز واللّمز على العجائز واذا لبســوا، على سبيل المصادفة، مـسوح التأمل والتدبر فمن أجل التأكيـد، كما كان يفعل "موروخيل" عــلى أن تذكرة السينما توازى قيمة ثلاث ساعات من عمل الموظف وأن هذا يخّل بالتوازن بين الدخل والنفقات.

فى طريق العودة من عند مـحطة التنقية ذكّر العجـوز "إلوى" صديقه عيسى بنقاشه مع " پيپين باثكيــث " والذى دافع فيه عن هيئات المحلفين المخــتلطة وعن موقف كونت دى ألمانيس " تجـاه القضية، لكن عـيسى ضرب البلاط بطرف عكّازه ودون أن يمسك عن الابتــسام للشمس وللحياة ردّ بجفاء:

– ظل "باثكيث " طوال حياته مريضـا بداء العصب. أتذكر أنه فى حالات الاكتئاب كان يتغوط فى غدير الحديقة بقصد تسميم الأسماك الملّونة.

تعّرف العجوز "إلوى " على عيسى وهو صبى لم يتجاوز السادسة فى مدرسة مدام " كاتروكس" الفرنسية. وقتذاك كان عيسى يُضَفِّر شعره وكان زملائه ينادونه:

«إيزابيلا» غير أنه لما يكن يعبأ ويرد عليهم بصوته المائل الى العذوبة:

«اذا كنت طفلة فـهذا أفضل لى». فى سـن التاسعـة قصت له. أخـته "لوبى" "الضفائر لكنها كانت تعطّره فـازداد الطين بلّه عندما أصبح مراهقا لم يكن يكترث بالفـتيات وإذا اقترح " بولدو يومـبو"، الرجل الرياضى، التسلل إلى دار الحمامات إلعامة لمباغتة "لاباكيتا أوردنيث" وهى متخففة من ملابسها، فإنه كان ينتظرهم جالسـاً على مقعد فى مكان قريب. وقتها لم يكن "بولد بومـبو" مشهـورا لانه لم يكن قد ذهب بالدراجـة بعد إلى "سان سـبستـيان " على مـرحلتين فقط أو إلـى مدريد دفعـة واحدة دون توقف لمـشـاهدة حـفـل تتـويج الملك؛ بالرغم من تـدربه آنذاك بكرات الجمـبازالتى اختـرعها الدكـتور "ساندون " وأوصت بهـا المراكز الطبـية الشهيرة لتقوية العضلات.

كـان "بولدو يومـبـو" الرجل الرياضى، يعـيش تحـت وطأة الفكرة المتـسلطة للقوة الجسمـانية وعندما رجع من مدريد قـال وقد علَته خـيبة الأمل: باه*، الملك تمثال من الحلوى، أمن أجل هذا كل هذه الجلَبة!».
أحاط به زمـلاؤه، مشغـولين بالحفل، وسألوا مـستفـسرين عمـا إذا كان صحيـحا أن القطارات كانت تعج بالمـسافرين الذين شغلوا كل ركن فـيها حتى دورات المياه، وأن الحجرة الواحـدة كانت تُؤَجَّر بثلاثين بيزيتة، وأن أمراء أجانب حضـروا الحفل وكيف بدت الإضاءة التى اختلط فـيها ضوء الكيروسـين بضوء الكهـرباء المدهش، وأخيـراً، ما إذا كـان صحيـحا أن جلالتـه قد تعثـر فى السجادة أثناء حَلفـه لليمين وأن "مـاركيز دى لابيـجا أرميـخو" قـد حذره قائـلاً: «يا صاحب الجلالـة لكل منا عثـرة واحدة فى الحياة. لـيحرص جلالتكم على أن تكون هذه هى الأخـيرة». لكن "بولدو يوميو" تجاهل كل هذا، علاه التجهم كـما لو كان يحسّ بأنه قد احتيل عليه وأخيراً قال: «لا يحمل شيئاً من معالم الرجولة، صدقوا ما أقول».

* Bah (باه): صيحة احتقار فى الأسبانية- المترجم.

كان عيسى على النقيض تماما من "بولدو بومبو". لم تفارق الابتسامة عيسى منذ نعومة أظافره. الآن، وهو شيخ، يُظهر عند الابتسام ثلاثة أسنان من الذهب. بالنسبة لـ"ديس"، فقد أطارت الثلاثة أسنان الذهبية للسيد عيسى برُجا من عقلها. بعد وصولها إلى المدينة بأيام قليلة قالت للعجوز "إلوى": «من على بُعد ميل يُرى ما يحمله السيد عيسى هنا»، ثم حرّكت أصابعها فيما يشبه عدّ الأوراق المالية. قال لها العجوز: «يا بنتى، لماذا تفكرين فى هذه الأشياء؟». رفعت الفتاة شفتها العليا كما كانت ترى "دون أوليبانو" وهو يفعل مع الجياد لمعرفة أعمارها وأبانت عن أسنان ضاربة إلى الصفرة وغير متساوية: «مرة أخرى -قالت-. لديه ثلاث قطع من الذهب». تركت شفتها وبما أن العجوز لم يرد أضافت: «أَحْسَن صنعا. لو عندى رأس مال، لكان أول شئ أفعله هو ملء فمى بالذهب». قالت هذا فيما يشبه التعريض بالعجوز "إلوى" لأن طاقم أسنانه الذى يودعه ليلا فى إناء لم يكن به ولا قطعة من المعدن المطلى بالفضة. وبالرغم من هذا فإن طقم أسنان سيدها قد أثار دهشتها أيضاً عند وصولها. فى البداية، كانت "لاديس" تمضى أوقاتا طويلة تتأمل ذلك الجهاز فى ذهول، وكأنها تشاهد معدة فوق مائدة تقوم بعملية الهضم لحسابها الخاص.

أفزعتها إمكانية أن يكون ذلك الهيكل الوردى، المُرصَّع بقطع الأسنان، من اللحم لكنها تجاسرت ذات صباح ولمسته وعندما تأكدت من صلابتها اعترتها خيبة أمل. اعتاد صديقه عيسى منذ نعومة أظافره على الابتسام المستمر. لهذا السبب، ولصوته العذب ورائحته العَطِرة وتفضيله لأربطة العنق اللافتة للنظر ولنفوره من دار الحمامات العامة، نال سمعة سيئة. كان صديقه "إلوى" يُفنِّد الشائعات التى تدور فى النادى، إذ أن سلوك عيسى يرجع -طبقا لرأيه- إلى تربيته بين النساء. لقد حاول جاهدا، قبل عدة سنوات، إخراجه من هذه الدائرة لكن خجل عيسى من

الفتـيات كان يزداد كل مـرة عن سابقتـها. ذات يوم، ودون إخبـار أحد، غاب عيسى عن المدينة وعاد بعد أسبوعـين ليؤكد أن مدينتهم مثل مدرسة لصغـار السِّن، ومن أراد العبث فـعليه بيـاريس، ففى هذه المـدينة لاتُباع الفتيات بل تُهدى، وبنات عُلب الليل لا يرتدين سوى ورقة صغيرة (ويقول إيه ويحكى إيه) وإذا لَمَّحَ أحـد أصدقائه إلى فـتيات خـدمة "الفيـجارو" كانت تصدر عن عيسى إيماءة احتقار ويقول: «هذا شئ تافه فى باريس".

وبالرغم من ارتياب "بولدو پومبو"، الرجل الرياضى، وتعليقه الساخر بأن «عيسى (بتـاع) كلام» إلا أنهم بدأوا يحترمـونه فى النادى وكانوا إذا أرادوا الإشارة إليه لجأوا إلى مطْلع القـصيدة الذى يقول: «ذو الحياة المسـتقيمة هذا، إلا أن عقدته حلَّت فى باريس...».

كانت "لوثيتا"، امرأة العجوز، تحس تجاه عيسى بنفور شديد، وكثيرا ما سـألت زوجها عـما يجده فى هذا الرجل حـتى يتحـمله كل يوم. لقد كانت تجهل أن وراء عيسى تتواجد مـدام "كاتروكس" والمدرسة الابتدائية؛ وتتـواجد "لاأنتـونيا"، حنانه الأول؛ ويـتواجـد العم "إرمنس" وإشراقـاته العبـقرية و"لاروسينا"، ابنة "لافوينـساتنا"، الخادمـة القادمة من مرسـية؛ وتتواجد "لاباكيتا أوردونيث" وعبثها ودار الحمامات العامة؛ ويتواجد "پيبين باثكيث" وكآبته؛ وتـتواجد فتيات "الفـيجارو" والخناقة مع طلبـة المدرسة الحربية؛ وهيئات المحلفـين المختلطة، وبمضى الزمن، تواجدت حتى هى و"جويتـو" -ابنه الصغيـر- الذى رحل فى الثانية والعـشرين دون انتظار فى الرَّدهة؛ أى تتواجد -باختصار- وراء عيسى حياة بأكملها.

كانت جولات العجوز "إلوى" وصديقه عيسى تنتهى عادة أمام حوائط "سـان ألديفونسـو" القديـمة الرمـادية، حيث تلمـلم الشمس خـيوطهـا الأخيرة. فى ذلك المسـاء كان يجتمع فى المـيدان الصغير عدد كـبير مَن الصبيان وفتيات ثرثارات فى عمر "لاديسِ". نقر العجوز "إلوى" بإلحاح

على ساعد صديقه ودون أن يلتفت إليه كليةً حتى لا يفقد ملاطفة الشمس الواهنة قال له:

- الأطول عمرا هو واحد منا نحن الإثنين.

أطبق عيسى جفنيه لحماية عينيه ثم سأل:

- الأطول عمراً؟

- نعم -أضاف العجوز "إلوى"-. كان "پولدو پومبو" يتساءل دائماً: «من من الأربعة سيعيش أكثر؟». ألا تذكر ذلك؟

أسند عيسى ظهره إلى الحائط القديم، وعيناه مطبقتان فى نشوة وقال:

- "پومبو". أفضل ما أذكره له تلك المرة التى أهدى فيها ببغاء طويل اللسان لأختى "لوپى". كانت تمر بأزمة وأعانتها هدية "پومبو" على تجاوزها.

اختفى نصف قرص لشمس برتقالية منتفخة هناك، خلف ربوة عجفاء، وهيمن شلل متنامى على الميدان الذى بقى فى دقائق معددوة مظلما وبارداً وصامتًا. كان الجدار الحجرى لايزال يحتفظ ببقية من حرارة عندما فتح عيسى عينيه وشاهد "إلوى" وهو ينظف ميكانيكيا طرف أنفه بالمنديل. أبرز عيسى ابتسامته الوردية، جلد الهواء بعكازه، ثَبَّت القبعة بلمسة من إصبعه وقال بادئا السير على مهل:

- إمش رويدا رويدا.

-٨-

فى منتصف شهر نوفمبر، مثل كل عام، نشطت رياح الشمال من عقالها. بعد ساعات قليلة بقى الميدان عاريا وخاليا إلا من بعض العصافير الدّورية والعقاعق التى كانت تتحمل نُذُر الشتاء فى شجاعة. بدت الأشجار، والرياح تهزها بعنف، وكأنها هياكل ترقص على بساط لامع من الأوراق الصفراء. هدأت الرياح بعد يومين. بدأ يرتفع من النهر ضباب الخريف وغرقت المدينة فى سكون مُكَبَّل بالأغلال، منذرا بصقيع ديسمبر القارص. لكن الثلج وصل هذا العام قبل الصقيع. جاء متخفيا وراء سحب معدنية رمادية وفى غمضة عيْن غطّى المدينة ورشقها ببطء وإلحاح بنُدفه الرقيقة، كاسيا الشوارع والأسقف بالبياض. وعلى خلاف كل التوقّعات، استمر الجو هكذا خمسة أيام بلياليهن. انكمشت الحياة فى المدينة الصغيرة على نفسها، مثل حلَزون داخل قوقعته، ينتظر ظرْفا مواتيا للنهوض من العدم. كان العجوز "إلوى" يستقبل كل صباح، من موقعه على السرير، الصمت الجليدى للشارع. من وقت لآخر كان يرسل سحيبات هشّة مائلة إلى البياض.

منذ أسبوع وهو ينهض متأخراً كثيراً عن المعتاد. لم يكن المعاش يكفى وأعطى تعليمات لـ"ديس" بعدم استخدام التدفئة حتى اليوم الحادى عشر من الشهر. الآن، وهو قابع فى السرير، يخيل إليه أنه يسمع الترسّب اللّدن لنُدَف الثلج على الأسفلت. أحس بالبرودة، برودة غير محددة جعلَته يرتجف. ولكى يخفف من البرودة كان يخبئ طرف قدمه اليسرى خلف باطن ركبته اليمنى ويغيّر الوضع بعد ذلك. فى النهاية، وبعد أن تعب من هذه اللّعبة، أخذ يهرش بقسوة وعناد بطنه من فوق المنطقة حتى أحسّ بتجمع الدم تحت الجلد. حرّك رأسه حركات متشككة:

«يصرّ خيل على أن الرجل في السبعين لا يعتبر عجوزا هذه الأيام؛ أعتقد أن هذا مجرد كلام».

منذ عدة أيام قابلة في الميدان، لكن "خيل" مدّ له يدا خائرة ورطبة ثم فتح عينيه العبوستين على آخرهما وقال دون أن يتوقف: «معذرة، دون إلوى؛ لأنى على عجلة من أمرى». عندما ابتعد همهم من بين أسنانه: «يا للشياطين، لقد ساءت صحة العجوز فى خمسة أسابيع ما يمكن أن تسوءه فى خمس سنين». ومع ذلك، فقد التفت نحوه، لوّح بيده وصاح: «إبق على ما أنت عليه! لقد أزاح المعاش من على كاهلك خمس سنوات على الأقل!».

بينما كان الثلج يتساقط، طافت بذهن العجوز فكرة أن الحياة عبارة عن صالة انتظار، وكما يحدث فى صالات الانتظار يوجد فى الحياة من يتجول من مكان لآخر لكى يشغل نفسه وينسى أنه ينتظر. الاكتئاب الذى يمكن أن تحدثه فى نفسه هذه الأفكار كان يعوّضه الاعتقاد بأنها أفكار نيّرة وذكية. لكنه كان إذا تدبّر فيها لبعض الوقت فإنه كان يصل إلى نتيجة مؤلمة مُفادها أن تلك الأفكار، سواء كانت ذكية أم لا، لا تناسب من هو فى مثل حالته. كان "پيپين باثكيث" يؤكد فى عام ١٩٣٠ على أن المعاش هو صالة انتظار الموت، ودون الرجوع كثيراً إلى الوراء، فإن "كرآسكو"، زميله فى القسم، كان يقول بوقاحة، كل مرة يمر فيها على حوائط "سان إلديفونسو"، أن العجائز والمحكوم عليهم بالإعدام يقتربون من الحوائط لكى يجدوا شيئاً يتكئون عليه لحظة السقوط. وسواء كانت هذه الأفكار تناسب من هو فى مثل حالته أم لا، فإنها سرعان ما بدأت تتمدد داخل عقله، ونتيجة لذلك كان العجوز "إلوى" يلقى بنفسه من على السرير وهو يرتجف ثم يرتدى الدثّار الذابل ويلجأ إلى المطبخ. وهناك، بجانب "لاديس"، يعتريه وهو يستمع لقرقرة النار العذبة فى المكان إحساس مُرضٍ بالتوازن.

- ألم يمر ساعي البريد، يا "ديس"؟

- مرّ منذ قليل.

- ولا شئ؟

- لا شئ.

كان يحرك رأسه ليخفي استياءه:

- حسنا، يا بنتي -كان يضيف-. المهم الصحة.

ثم يجلس على الكرسي، ملتصقا بالفرن، ويداه المرتعشتان والبنفسجيتان مبسوطتان فوق الصفيح الساخن. أيّ عارض ولو بسيط كان كافٍ لمدّ جسور الاتصال بينهما:

- اللعنة!، لقد اكتويت بالنار.

- كوني حذرة، يا بنتي.

- مرة أخرى! وماذا تريدني أن أفعل؟

دهنت "لاديسِ" إصبعها الملسوع بالزيت والدقيق، ثم أوضحت:

- هناك، في القرية، ماركوس، أخي النصف شقيق، اكتوت ساقاه ذات مرة أثناء إشعال النيران للاحتفال بذكرى "سان خوان".

- هل لك أخ نصف شقيق، يا بنتي؟

- كان لي. براكسيلس، الثعلب، أخرج أحشاءه بمذراة خلال فيضان ١٩٥٢.

- يالله! أصحيح هذا؟

- في غاية الصحة.

- أخبريني، يا بنتي، كيف حدث هذا؟

أمسكت الفتاة عن العمل برهة. نظرت إلى العجوز بهياج واضح، وبما أنها وجدته خائر القوى فقد استأنفت عملها وأضافت متدرعة بالصبر:

- الذنب لم يكن ذنب الثعلب وحده، صدقني. كان النهر قد جرف بقرته و"الماركوس"، الذى كان عبيطا، لم يكن له من عمل سوى الصياح: «فليسقط المطر، ليسقط المطر، بحق عذراء الشجر!» وعندئذ التقط الثعلب المذراة وقضى عليه فى مكانه. حدث كل هذا فى زمن أقل من الزمن الذى تستغرقه حكايته.

عندما انتهت "لاديسِ" حرّكت يدها المصابة فى الهواء:

- اللعنة!

قطّب العجوز جبهته:

- يؤلمك، يا بنتى؟

- (شوف)! "دون فيديريكو" كان يقول: «ليس هناك أسوأ من الحروق الجافة والجروح التى تسببها الأحذية».

- دون فيديريكو؟

- طبيب قريتى.

- آه!

فى الخارج، كان الثلج يتساقط بطريقة محزنة. على الأفرع المتفخة لأشجار الموز تَشكّل إفريز أبيض. نظر العجوز إلى النافذة وارتجف. عقف بعد ذلك ذراعيه فوق بطنه وسأل:

- وهذا الفتى، يا "ديسِ" ماذا حدث له؟

- أىّ فتى؟

- المكّار، يا بنتى، صاحب المذارة.

أطلقت الفتاة ضحكة وضربت على فخذها براحتها:

- أىّ مكّار بحق الشياطين! تقصد الثعلب؟

- هذا، يا بنتى، الثعلب.

- قبضوا عليه، لكنه ليس فتى كما تظن. أراهن على أن سنّه تزيد الآن عن الثلاثين.

تنهد العجوز. للحظة لم يُعد يُسْمَع فى المطبخ سوى ضجيج الأوانى. كانت نظرة العجوز تهيم قلقة من ركن لآخر. توقفت أخيراً على الفتاة. قال بنغمة شاردة:

- زوجتى حرقت ذات مرة "جويتو"، ابنى الثانى، بزجاجة من الماء المغلى.

- الذى مات؟

- نعم. كان آخر عَفْرَتَة، ولا توجد شقاوة لم ترد عليه. عندما حرقته زوجتى لم يكن عمره يتجاوز الأسبوعين. كانت تحمله فى عربته الصغيرة إلى طبيب الأطفال لكنه تحرك بداخلها فانسكب عليه الماء المغلى. ولكثرة بكائه كانت أمه تتساءل: «ما الذى جرى له اليوم؟». لكن الطبيب قال بعد أن فكَّ قماطه: «بخٍ بخٍ، هذا حرق من الدرجة الثانية». عندئذ استولى علينا الفزَع، وبكت "لوثيتا».

كانت "لاديس" ترمق سيدها من منتصف المطبخ دون أن تَطرُف لها عين، ويداها الضاربتان إلى الحُمرة معقوفتان فوق حجرها. كانت تتمنى أن يروى لها العجوز الحكايات كاملة ويتملكها دائماً الخوف من تركه لها دون تكملة. وهذا كان يحدث باستمرار وخاصة عندما تتحول نظرة العجوز -دون سبب واضح- إلى ما يشبه الشفافية ويحملق فى الفراغ. أمسكت بطرف الحديث لتفادى حدوث هذا:

- وبسبب تلك الحروق مات الرضيع؟

هز العجوز رأسه فى عناد:

- أوه، لا! أخبرنا الطبيب أن الأمر يمكن أن يكون خطيرا جدا فى رضيع كهذا، لكنه نظّف له الفقاعة وأوصى بدواء لكى... -أخرج المنديل من جيبه ومسح بنعومة طرف أنفه-... لكى يُرَشّ برشّاش على الحرق. تبادلنا السهر عليه أنا و"لوثيتا"، زوجتى، طوال الليل وفى الصباح أوشك الحرق على الاندمال. لكن الطفل لم يكف عن الصراخ وأخيراً اكتشفت زوجتى أنها لم تعطه ثديها لأكثر من اثنتى عشرة ساعة.

انفرج فم الفتاة عن ابتسامة مبتسرة:

-معلوم -قالت-. لو قالوا لك أن الطفل سيغدو شابا لو فعلت هذا الشئ* ما فعلته، أليس كذلك؟

سكت العجوز. كان لحديثه مع الفتاة هذه الميزة. لم تطالبه أبداً بإجابة. إذا سكت، شكرته على صنيعه ولا شئ أكثر. لكنه فى الأيام الأخيرة كانت تمر عليه أوقات يفقد فيها صبره. كان يتجه حينئذ إلى النافذة ليرى الثلج وهو يتساقط. من حين لآخر كان يحدث نفسه: «ها هو "مارتينيث" عائد من الدكّان». أو: «"دون إستانيسلا" يحرص على الذهاب إلى البورصة وهكذا سيغرق العالم». أو: «ها هو "دون ديموفيلو" ذاهب إلى المدرسة. تشير الساعة إلى الثانية عشرة إلا ثلاث دقائق».

فى اليوم الخامس لنزول الثلج، أطلّت "لاديس" من النافذة ومعها العجوز. لم يَبْقَ للمدينة، المُخَدَّرة تحت الثلج، سوى فوّهات المداخن لكى تُفصح عن حيويتها. تحوّل العالم إلى صمت متأجج. مَرَقَت

* يبدو أن الفتاة (لاديس) تقصد الرضاعة، التى هى بالطبع حكر على الأمهات- المترجم.

دراجة، وأمـام النافذة، أحدثت عـجلتها الأخـيرة صريراً مـدوياً. ضربت الفتاة براحتها على فخذها وأطلقت ضحكة عالية:

- كان هذا الشقىّ على وشك السقوط على وجهه.

وبَّخَها العجوز:

- يا بنتى، بأى حق تُطلقين عليه لفظ «الشقىّ»؟

- كما ترى، هَوَس -ردت الفتاة.

ابتعد العجوز عن النافذة، قَرَّب الكرسى من النار، وجلس ثم قال وهو يعقف ذراعيه ببطء فوق بطنه:

- "بولدو بومبو"، صديقى، ذهب إلى مـدريد على دراجة. لا أعتقد أن هذا مَدعاة لـتسميتـه شقيًا، يا بنتى. لـقد كان يريد فقط حـضور حفل تتويج الملك.

قطّبت الفتـاة جبينـها. قالت أخـيراً فى حرارة وبنظرة مـتلألئة وكـأنها عثرت فجأة على حلّ لمشكلة أرَّقتها طويلاً:

- الملك هو الذى يأمر وينهى فى كل شئ، أليس كذلك يا سيدى؟

- نعم، له ولاية على كل شئ فيما عـدا القدر. وكما ترين، يا بنتى، رجل كهذا كان لديه كل ما يريد، ومع ذلك لم يكن يملك أبًا.

استولى البرود على نظرة الفتاة:

- لاتبدأ -قالت الفتاة بشئ من الارتياب- الكل له أب حتى الأشد فقرا.

- ومع ذلك لم يكن لديه أب؛ هذه هى الحـقيـقة، يا بنتى. وعنـدما وُلد دثّروه فى ملابس سوداء. فالمولود، مع ما كان له من سلطان، لم ير أباه أبداً.

أفزعت "لاديس" خصلة من الشعر المتدلى على جبهتها بلكمة. قالت بغضب دفين:

- ها أنت وموّال كل مرة.

فى الخارج، لازال الثلج يتساقط بعناد مُهيِّج للأعصاب، والشوارع والأسطح كانت مكتسية بصرامة متيبسة. وفى كل مرة كان يقترب فيها العجوز "إلوى" من النافذة يعتريه التململ الناجم عن الحبس الانفرادى. كان البياض الذى يطوّق العمران يدمى عينيه.

أحيانا، وهو إلى جوار النار، كان يغفو ومن ثمّ كان على "لاديس" لفت انتباهه: «سيدى، المنديل». فيلمس أنفه بخفّة ويقول فزعا أثناء إخراجه للمنديل من جيب الدِّثار: «شكرا، يا بنتى». وفى أحيان أخرى، كانت الفتاة تقص عليه، بهدف تسليته، حكايات مرتبطة بالثلج مثل حكاية "لاأدريانا"، جامعة الصمغ، التى مزّقوها بالسكاكين عند مدخل الجبل أو حكاية أعياد "لوس كينتوس" عندما تساقط الثلج، عام ١٩٤٧، وشلّ حركة الوافدين وظلت القرية بكاملها ترقص حتى الشمالة أربعة أيام بلياليهن، أو حكاية ضبط "براكسيدس" بواسطة "الأوتروبيو"، زوج أختها، ذات ليلة مقمرة.

كانت تقول:

- لم يكُفّ "براكسيدس" يوما عن أفعاله السوداء وسرقة دجاجة من الحظيرة. كان "الأوتروبيو" يقول: «سأكمن له ذات ليلة وسيدفع ثمن ما اقترفه من قبل». انتهز فرصة نزول الثلج وقال لنا: «أتريدان الذهاب معى؟». وذهبت معه أنا وأختى "لاسلبينا". كَمَن له فى نافذة الحظيرة وكنا نراقب نحن الاثنتين من فوق كتفه. كان العجوز يرمق الفتاة متشوقا:

- ثم ماذا؟ - سأل.

تابعت "لاديس":

- كان الثلج يلمع تحت ضوء القمر على حين بدت أشجار الصنوبر سوداء داكنة. ظللنا هناك لأكثر من ساعتين. وفجأة، التفت "الأوتروبيو" نحونا وقال: «ها هو قادم، إلزما الصمت». تقهقر بعَجُزِه استعدادا للوثب...

قاطعها العجوز:

- "ديسِ"، لا تتفوهى بكلمات خالعة العِذار.

رفعت الفتاة رأسها واستفسرت:

- هل أخطأت القول؟

- لا، لكن يمكنك سرْد الأحداث بشكل آخر.

بدا المطبخ وكأن الضوء يغمره فجأة. رفعت الفتاة، التى كانت تتأهب للرد على العجوز، رأسها بغتة كمن أصابها الفزع، نظرت دهشة حواليها ثم جرت أخيراً نحو النافذة وهى تصيح بصوت يشوبه الهلع:

- الشمس، يا سيدى! إنها الشمس!

أخذت النسمات القادمة من جهة الغرب تداعب الأفرع المتيبسة لأشجار الموز ثم تنعطف نحو السماء الرصاصية اللامعة؛ وبين الفجوات تسلل ضوء أصفر رطب انتفخ تدريجياً بنفس القَدْر الذى كانت تطارد به الرياحُ السحبَ مثلما يطارد كلبٌ أغنامَ القطيع.

-٩-

أكملت "لاديسِ" العشرين ربيعا يوم الأحد الموافق ١١ ديسمبر. كانت قد قالت اليوم السابق لصديقتها "لامارثى"، أثناء حديثهما فى المسقط المتسخ، بكآبة لا تشوبها شائبة: «أنا أتقدم نحو الشيخوخة». ولم يكن هذا مجرد كلام، فقد كانت "لاديسِ" تظن منذ أن بدأت تستعمل عقلها أن الشيخوخة تبدأ فعلا بعد العقد الثانى من العمر والفتاة التى لا تتزوج قبل هذه السنّ ستكتب عليها الرَّهْبنة. لكي تخفف من اكتئابها، لجأت الفتاة إلى غرفتها، وعيناها المتوحشتان مُسَمَّرتان على صورة أعياد ١٩٥٠ ولأمر ما، لم يكن فى الحسبان، امتنع "البيكاثا" هذا المساء عن الابتسام أو الغمز لها بعينه، وعندما نادى عليها سيدها لأخذ الدرس، اضطرت لمسح وجهها بالبودرة وشفْط المخاط مرتين حتى لا يلاحظ عليها البكاء. وكالعادة، بسط العجوز الصحيفة أمامها وهو يشير بظفره إلى العناوين السوداء وتهجّت:

- الزعيم يرفض pue* أسبانيا. . .

قال العجوز:

- لا، يا "ديس"؛ ليست pue بل que. إذا كان الحرف التالى يقع خلف بطن الحرف الأول، فالحرف الأول هو p وليس q. أفهمت؟

- نعم يا سيدى -ردت دون اقتناع.

---

* أبدلت الفتاة حرف P بحرف P، لأن الكلمة المقصودة هى que، ومعناها فى الجملة "أن". أما "Pue" التى نطقتها الفتاة فليس لها أى معنى، ومن ثمّ فإن العجوز يقوم بتصحيحها لها كما نرى- المترجم.

- إفهمى، يا بنتى. فكرى فى كلمة تبدأ بـ pe أو pi. كلمة تحبينها، أسمعت؟ وبهذا الشكل لن تنسى.

حركت الفتاة شفتيها وكأنها تصلى ووَشا جفناها المطبقان عن تركيز موجع. كان العجوز يلاحظها فى إلحاح. انطفأت الفتاة فجأة، أدارت عينيها، رفعت يديها إلى الخدّين الأحمرين ولفتت إليه رأسها المنتصرة:

- "Picaza" -قالت بازدهاء.

- "پيكاثا"، (ماشى) -قال-. كيف أتت إلى فكرك كلمة شديدة الغرابة كهذه، يا بنتى.

ابتسمت وهى مرتكبة وظلت تتمتم "پيكاثا"، "پيكاثا" بحركة آلية، وأخيراً أضافت:

- إنها الصداقة.

سأل:

- هل لك صديقة بهذا الإسم؟

اشتد خجل الفتاة:

- إنه لقب، أتعرف؟ إنه صديق وليست صديقة لكى يكون عندك علم.

- حسنا، يا بنتى.

الآن، وهى إلى جوار "لامارثى" فى الطريق إلى الكنيسة، تفكر فى الاختلاف الموجود بين p، q وفيما يثيره من تسلية احتماء حرف «i» من Picaza، كالجبان، خلف البطن الكبير لحرف P. لكنها لم تقل شيئاً لصديقتها. وبالرغم من أنها كانت أحياناً تحس برغبة عارمة لكشف سرّها إلا أن شوقها فى مفاجأتها كان أقوى. كانت الشمس لم تشرق بعد وحشائش الحديقة مكْسُوَّةً ببياض الصقيع وأقدام الفتيات تترك آثارها على

الطريق. كانت "لاديسِ" محشــورة داخل المعطف الطّوبى، وتقبض على ذراع صديقتها، من عند الكوع، وتحدثها فـيما يشبه الهمس قائلة بأنها لا تعتقد أن "لاتاسيا" ستتزوج لأن الرجال إذا دخلوا المرج مرة لا يتزوجون بعدها. كان المــعطف الطّوبى ضيقا للغاية عليــها ويظهر طرف الدِّثار من تحته. لقد استخدمته من قبل كل من "لادورو" و"لاسلبينا" و"لاكاندى" و"لاألفونسينا" وانتقل إليها وهى فى الرابعة عشرة وعلى الرغم من أنها قد أكملت اليوم العشرين وأصبح المعطف ضيقاً وذابلاً وملطخاً بالعرق تحت الإبطين إلا أن الفتاة تفكر بحكمة فى إمكانية استخدامه موسمين آخرين.

تقف الكنيسة شامخة على الطرف الآخر من الحديقة وفى فصلى الربيع والصيف كانت "لاديسِ" تنتــهز فرصة استيــقاظ العصافيــر لكى تفتت لها قطعة خبز فى نفس الوقت الذى تــقوم فيه بتقليد صفيــر الشحارير. كانت العصافير الدّورية والحمائم تستجــيب لصفيرها وتحيط بها وأحيانا، عندما تكون وحدها، تهبط باطمئنان على يديها وكتــفيها. كان صفو "لامارثى" يتعكر من تصرف صــديقتها: «تحملين القــرية فى دمك»، قالت لها ذات يوم. عقــدت "لاديسِ" العزم على ترك عادتهــا، لكن العصافــير الدّورية نظرت إليها الأحد التالى بعيــون شديدة التوسّل، مغردة بشكل موجع ومن ثمّ فقد قررت العودة إلى سابق عهدها حتى ولو غضبت "لامارثى". لكن "لامارثى" اقتــصرت على هزّ كتفــيها والقول لهــا: «أنت أشد فظاظة من حجر بئر، يا حلوة».

أما فى الشتاء فلم تكن الشمس تشرق قبل الثامنة ولم تعد هناك مشكلة لأن الطيور كانت لاتزال هاجعة أثناء عبورها الحديقة.

قالت لها "لامارثى" هذا الصباح وهما على السلّم: «عقبال مائة سنة، يا حلوة»، وطبعت قــبلة شكلية على وجنتــها. اعتــرى "لاديسِ" الخجل

وهى تذكّرها بدعوة الإفطار فى المحل الخاص بعمل المقليّات وأوصتها بألا تقل كلمة للأخريات لأنها تعرف أن "لاتاسيا" تستغل مثل هذه الأشياء للاستظراف وهى اليوم ليست على استعداد لشئ من هذا القبيل. وفى الكنيسة لم تستطع التركيز ولم تحس، مثلما يحدث فى مرات أخرى، بنظرة عذراء "لاجيّا" وهى تسقط فوق عنقها الخانع. عادة ما كانت "لاديسِ" تتلهى أثناء القدّاس بعمل إيماءات لزميلاتها أو بالضحكُ على منظر الصيادين الذين يصطفون بصحبة أدوات الصيد، مثل جيش، على مقاعد الجهة اليسرى. كانت فقط تلملم نفسها فى ورع عندما يدق مساعد القسيس الجرس الصغير. فى تلك اللحظات كانت الفتاة تحس بأن عذراء "لاجيّا" تتسلل عبر القبة العالية فتنكمش ويعتريها إحساس بأنها تراب ورماد، وتضرب بحرارة صدرها بقبضة يدها ضربات توقيعية بينما تتمتم: «مع الله أنام، مع الله أستيقظ، مع عذراء "لاجيّا" والروح القدس». وتتلقى وهى منحنية فوق مقدمة المقعد الخشبى صدمة عينى العذراء مثل وخزة إبرة دقيقة فى فقرة العنق الأولى؛ وتظل بلا حراك لعدة لحظات، وكأنها جماد، حتى تعلن الدقّات المتكررة للجرس الصغير بيد مساعد القسيس عن عودة العذراء إلى السماء ثانية من خلال القبة العالية دون أن تهشمها أو تلطخها، وعندئذ يمكن لـ"ديسِ" العودة إلى تسديد الضربات بكوعها لزميلاتها وإلى إيماءاتها دون خوف من عقاب.

بعد انتهاء القدّاس، تحكى الفتيات فى البهو ما طرأ من جديد خلال الأسبوع الفائت: حالات الاستغناء، حالات الالتحاق الجديدة بالخدمة، الأمراض ... الخ. أو تُقَدِّمن الجديدات فى الحىّ لكى تعرفهن الأخريات، بينما تتوارى النجوم فوقهن أعلى الشارع:

- هذه أختى؛ هذه صديقة.

أو يتداولن النصائح المقصودة:

- هذا مثل ما تفعله "لاناتى" التى (تُطَفِّش) كل صيف خطيبا. وبالرغم مما تسوقه من تبريرات فليس هذا بالعمل الطيِّب.

أو:

- لا تضعى قطنا يا "بورى"، اعملى بمشورتى. بعد أن يلمسه سيحدث ما لا تحمد عقباه.

أو:

- أتعرفين ما يقوله لى "الإميليانو"؟ إذا لم أرد عليه، سيخطب أختى الشهر القادم، تصورى!

لكن "لامارثى" لم تفسح المجال اليوم لأى تعليق لأنه بمجرد أن بدأت الحلقة تتشكل، وقفت فى الوسط وقالت وهى تشير إلى "لاديسِ".

- يا بنات، اليوم هو عيد ميلاد هذه.

لم تجد "لاديسِ" وقتا للاستياء لأن أربعا وعشرين زميلة وثبن عليها وأمسكن بأذنيها وشعرها ولم يتوقفن إلى أن تدحرجت على بلاطات البهو الحجرية، بين نقيق يزهق الأنفس. عندما نهضت كانت ركبتاها تنزفان وبدت، بشعرها الغير منتظم المبعثر فوق وجهها فى خصلات متلبدة، مثل شخصية كاريكاتورية كوميدية. وأثناء قيامها بتنفيض التراب من على المعطف سمعت صوت "لاتاسيا":

- لم أكن أعرف أن عيد ميلادك يوافق "سان أنتون".

رفعت "لاديسِ" رأسها، وعروق جبهتها منتفخة وقالت بصوت منطفئ:

- اغلقى فمك، يا مؤذية!

كانت على وشـك البكاء لكن عزة نفـسها منعـتهـا. ومع ذلك، ففى الطريق إلى مـحل المقليـات، وهى على انفـراد مع "لامارثى"، عندمـا كانت الشمس تبزغ من فوق الأسطح، لفتت على استحياء انتباهها:

- بأى مناسـبـة فـعلت هذا يا "مـارثى"؟ قلت لك أنـنى لست على استعداد للمزاح اليوم.

هزّت "لامارثى" كتفيها:

- هيا، يا حلوة، لا تأخذى الأمور مأخذ الجد.

كانت "لامـارثى" تمشى وهى تجـرجر حذاءها مـثل جندى مسـتـجد ويهـتز نصـفهـا الأعلى المـترهل مـع كل خطوة تخطوها. و"لاديس"، بساقيها الأقـصر من ساقى صاحبتها، كانت تركـض مثل كلب صغير إلى جوارها حتى تستطيع مجاراتها. لم تفـتح فمها قبل الجلوس أمام المنضدة البدائية فى مـحل المقليات. فى جانب من المحل كـانت توجد زمرة من الصيادين يتـحدثون بصوت عالٍ وعلى طاولة المحل، سكّيـر يتناول كأسا من "الروم". على المنضدة المجاورة كانـت لاتزال مطويّة بعناية صحيفة ذلك اليـوم. نظرت "لاديس" إليهـا بطرف عـينها. كـانت يمكنها قـراءة العنوان الكبيـر الذى يتصـدر الصفحـة الأولى دفعة واحـدة. وكانت على وشك قراءته لكن النّادل اقترب فتحكمت فى نفسها. بعد أن طلبت أكواب الشيكولاته التفتت نحو صديقتها:

- فى مكان كهذا تقام حفلات الزفاف فى قريتى.

بدت "لامارثى" وكأنها ساهمة:

- عند العم "بوتى"، أليس كذلك؟ -قالت فى فتور.

- نعم، عند العم "بوتى". كيف عرفت؟

- حضرت مرة هناك.

تناست "لاديس" ضغينتها فجأة وقرّبت كرسيها من كرسي صديقتها:
-المفروض- تحدثت بلهجة من يقول سراً- أن أتزوج في يوم كهذا. قررت ذلك منذ أن كنت صبية- الزواج في عيد ميلادى. وأنت، يا "مارثى"؟

- سأقرر وقتها.

-عندما كانت والدتى على قيد الحياة، كانت تقول: «سأقدم لكل واحدة منكن دجاجة يوم زفافها، كما كانت تفعل المرحومة حماتى». لكنها ماتت وبما أن "لاكاپا" لا ترسل لى حتى بالسلام فى خطاب فلن تحرك ساكنا، أليس كذلك يا "مارثى"؟

- (بُكْره نشوف).

اقترب الفتى بالشيكولاته والعجائن المقلية. كان الصيادون يتناقشون بصوت عالٍ فى جانب من المحل ووضعت الكلبة بلون القرفَة يديها على المائدة فضربها أحدهم وقال لها متوعدا: «مكانك، يا "دوللى"» وعندئذ تكوّر الحيوان ممتثلاً تحت المائدة القريبة ووجّه لصاحبه نظرة متوسلة. قال صاحبها فى فخر: «هناك فى أمريكا لا يوجد حَجْل حقيقى، بل نصف مخنث؛ لكى تسقطه، يكفى أن تحمل عليه». رفع "لاديس" نظرها نحوه ثم حطّته بعد ذلك على المائدة القريبة حيث توجد الصحيفة، وتهجّت فى سرِّها: «الز- عيم- يس- تق- بل- الـ- مـ- لك- سيـ- مون». وضعت يدها على ذراع صاحبتها وقالت (بالفُم المليان):

- هناك فى قريتى، يذهب العريس والكفيل لإحضار العروس من دارها. ينتظر الجيران عند الباب وإذا لم تحييهم العروس بظُرف تنهال عليها السخريات. كان كل همّى هو تكرار هذا التنبيه على "لاسلبينا": «مُدّى يدك للجيران. مدى يدك للجيران، يا امرأة». وكانت تسير وهى هائجة وتصيح فىّ: «ألا تريدين إغلاق فمك!». لكننى كنت أفعل هذا لمصلحتها. فلو لم

تفعلى هذا تنهال عليك السخريات وتلازمك صفة ثقل الدم. حقا، يا «مارثى»؟

ردت «لامارثى» بفتور:

ـ هذا معروف فى القرى.

ـ وإذا أرادت الجارات بعد ذلك وضْع السوتيان للعروس، تتركهن يفعلن ذلك. إنها حفلة لهو ومرح!

كانت الفتاتان تأكلان بنهم. افتتنت «لاديسِ» بالصحيفة من جديد ولكى تقهر رغبتها قالت لصالحبتها:

ـ فى كنيسة قريتى يوجد صفّان من المقاعد، الصفّ الذى على اليمين للصبيان والذى على اليسار للبنات هذا فى قدّاس أيام الأحد أما فى حفلات الزفاف لا أحد يهتم وعلى مقاعد الصبيان يجلس مدعوو أحد الطرفين وعلى مقاعد البنات يجلس مدعوو الطرف الآخر. أحياناتتعانق نظرات الطرفين فيما يشبه الترويح بمروحة؛ يا لها من أشياء!

خرج الصيادون والكلبة بلون القرفة تتسلل بين سيقانهم حرصا منها على عدم البقاء متأخرة. صاح بائع العجائن المقلية: «حظا طيبا!». فردت المجموعة فى صوت واحد: «شكرا». بعد قليل دخل رجال المطافىء البُدَلاء، والتى توجد نقطتهم على بعد ناصيتين من ا لمحل. نظر إليهم السكّير باطمئنان وهو مضطجع على الطاولة. اقتربت «لاديس» أكثر من صديقتها وهمست فى أذنها:

ـ يوم زواج «لاسلبينا» ما من واحدة إلا وكان لديها كلام تقوله لها. ولم يتركوا «الأوتربيو» يستكين ولو للحظة وعندما أقبل الليل وضعت «لاكولويكو»، ربة منزل القسيس، ومعها «الدلِفين» وكلّ

العصابة شَرَكاً من الجلد فى سرير العريسين. يالها من ليلة! لحسن حظهما لم يتفكك السرير. يوم أن تزوجت «لادانيلا» وضعوا لها تحت الحشيّة قطعة من الخشب متصلة بجرس صغير وبقى الجميع منتظرين فى الشارع وعندما رنّ الجرس تسلقوا الشرفة وضبطوهما...

...تخيلى، يا «مارثى»، على أية حال ضبطوهما!

الآن لم تعد «لامارثى» تأكل العجائن المقلية. وكالعادة كانت عيناها المائعتان منطفئتين وساهمتين. قالت:

- أفضل البقاء عزباء على الزواج فى قرية، (شفتى بَقَه).

- (ياشيخة روحى). حفلات الزفاف لاطعم لها فى المدينة. فى قريتى تشتركين فى الحفل العاشرة صباحا ولاتنتهى منه حتى العاشرة من صباح ا ليوم التالى. فى الأول المشروبات الباردة، ثم يأتى دور الغداء، بصحبة «أوركسترا» وكله، وبعد ذلك العشاء. وأنا لا أتحدث عن أموات، يا «مارثى»؛ اذهبى إلى هناك وستجدين أختى كى تقصه عليك.

تثائبت «لامارثى». من على المائدة القريبة جذبت الصحيفة انتباه «لاديس» مرة ثانية: «الز - عيم - يس - تق - بل - الـ - مـ لك - سي - مون». أنقذها من جديد صوت السكِّير. سقطت منه النقود عند الدفع فأرغى وأزبد بينما كان يجمعها وهو جالس على الأرض:

- (باين عليه مبسوط، مُش كده يا «مارثى»؟)

- نعم.

ابتسمت «لاديس» بتعبير آت من الأعماق. قالت:

- هذا لايقارن بما جرى فى قريتى خلال تناول المشروبات الباردة فى حفل زفاف «لاسلبينا» بدأ الفتيان وكأس تأتى، وكأس تروح، و«يعيش

القسيس» و«يعيش المدعوون» وتعرفين الباقى. فى النهاية سكر الجميع وأخذوا يغنون: «مع الـ بين ـ بيربين ـ بيمبين، مع الـ بان ـ بارايان ـ يمپان*، من لايعجبه النبيذ فهو حيوان».

وكوّنوا حَلَقة حول «دون فيديل»، المدرس، الذى لايشرب، (وهات ياتَرِيقة). حتى القسيس نفسه كان ضمن الحلقة، تصورى يا «مارثى».

ـ إنه المزاح.

ـ لازلت إلى الآن عند رأيى. إذا لم أستطع تقديم مشروبات وغداء وعشاء وإحضار فرقة موسيقية (زى الناس) فلن أتزوج. هذا ما أقوله باستمرار له، واللا إيه يا «مارثى»؟

ـ من حقك.

والشياب نفس الشىء. .تزوجت «لاسلبينا» على أية حال. ولايعنى هذا الذهاب عارية. فلن تذهبى إلى بيت زوجك يوم الزفاف دون قميص. أفضل الزواج غدا ولو بقميص واحد. (واللا إيه رأيك) يا «مارثى»؟

وكزت صديقتها بالكوع:

ـ (أمّا نشوف) ـ ردت «لامارثى».

انكتمت «لاديس» لحظة، ثم قالت:

ـ لست متضايقة، حقا يا «مارثى»؟

ـ أتضايق من ماذا؟

ـ تناولى إذن المزيد من العجائن المقلية.

---

* هذه الكلمات ليس لها معنى والغرض منها تكوين جملة موسيقية يتفق آخر مقطع منها مع المقطع الأخير للأغنية- المترجم.

ـ لاأستطيع إدخال فمى ولا واحدة زيادة؛ أنا على الآخر.

ابتسمت «لاديسِ». ذهب نظرها رغما عنها نحـو الصحيفة من جديد. كان رجال المطافيء يتحدثون بأصوات غلـب عليهاالنّعاس. خرج السّكير وهو يتمـايل. مدّت «لاديس» يدها فجأة، أمـسكت بالصحيفـة، انطفأت وهى تقول بعينين مستديرتين ومضيئتين:

ـ «مارثى»، سأخبرك بشىء.. الآن أستطيع القراءة!

عضّت صديقتها شفتها السفلى. تابعت «لاديسِ»:

ـ انتبهى، سترين.

كانت تضع بعـصبية إصبـعها الخشن تحت السَّطْر المـكتوب بحروف كبيرة عندما وقفت «لامارثى» وقالت كمن أخِذ على غِرّة:

ـ لكن، أتعرفـين كم الساعة، ياحلوة؟ تجلس الواحدة لأكل الـعجائن المقلية وتنسى حـتى إسمها. فى مثل هذه الساعة تكونـين قد ا نتهيت من قلْب حجرتين رأسا على عقب. هل دفعت الحساب؟

-١٠-

ذات مساء، وهو مرتكز على ركبتيه بجوار السرير كالعادة، قرر العجوز «إلوى» زيارة «باتشيكو»، صاحب محل النظارات. كانت تسيطر على العجوز آفة الاعتقاد بأن اليوم الذى لايرتكز فيه على ركبتيه لمدة نصف ساعة بعد الأكل تتآخر عنده عملية الهضم . يحرص العجوز «إلوى»، بعد تجاوزه السبعين، على عاداته الخاصة من أجل المضىّ قُدُما فى الحياة وإذا حدث وانتقده أحد فإنه يستعين بالمنطق والخبرة الشخصية للدفاع عن تلك العادات. عندما ضبطته «لاديس» أول مرة وهو مرتكز على ركبتيه بعد الغداء أغلقت الباب وهى مرتبكة. صاح: «ادخلى، ادخلى يابنتى، فأنا لا أصلى». لم تقل الفتاة شيئا لكنها لم ترفع عينيها من عليه طوال الوقت وتذكرت وهى تنتفض رعبا «الأبولينار»، ابن عم «الأوتروبيو»، زوج أختها، الذى فقد عقله لأن الريف كان يُطْبق على أنفاسه ولم يجد فرصته فى المدينة.

وبالرغم من ذلك، فقد كان العجوز «إلوى» يقول لصديقه عيسى أنه من البديهى أن تتم عملية الهضم عند الإنسان وهو مرتكز على ركبتيه بأفضل مما لو كان على قدميه لأن المعدة فى الحالة ا لأولى تكون أقرب إلى الأرض وبالتالى يكون تأثير الجاذبية على الطعام أشد قوة والدليل على ذلك ما يلاحظه من سهولة الهضم عند الأطفال، وإلا فما السر فى أن الأطفال تتم عندهم عملية الهضم أسرع من البالغين. . قال له بعد ذلك أنه لو حرص أىّ شخص طبيعى على هذه العادة وأفرغ مافى بطنه فى الحديقة كل يوم فبإمكانه أن يبلغ أرزل العمر.

فيجيب عيسى على هذا قـائلا بأن لكل إنسان خواصه وأن «أجوادو»، دون الذهاب بعيدا، كان يستريح على مراجعة الملفّات القدميـة وحسبما يدعي فقد كان ذلك بسبب ما تحـويه هذه الملفّات من تراب، لكن معرفة السرّ في هذا أمـر غير مسـتطاع. كان العجـوز «إلوى» يضحك بينه وبين نفسه من تلك الوسائل ويـستحثه على تجربة طريقتـه، وأيضا صعود سلّم بيته وهو منحنى من عند الخصر فى زاوية مستـقيمة لأن الحجاب الحاجز يتزحزح فى هذه الحـالة من مكانه ويمكنه صعود خمسين درجـة بل ستين دون إجهاد للـرئتين. . ذات يوم، والعجوز يصـعد السلّم هكذا إصطدم بـ «دون أوريليو»، الرسّام الهندسى، مخـدوم «لامارثى»، الذى كان يهبط فى تلك اللحظة وتحيّـر العجوز ورفع يده بخـجل إلى جناح القبّعة فـابتسم فى تسـامح «دون أوريليو» ولم يقل سـوى: «ظننتك تقلّدالثـور يا «دون إلوى». منذ ذلك الحين والعـجوز يتوقف عند كل دوران فى السلّم للتـأكد من عدم هبوط أحد حتى يتفادى الوقوع فى حرج جديد.

عادة ما يتخذ العجوز «إلوى» القرارات الخطيرة أثناء بدء عملية الهضم وهو مرتكز عل ركبتيه أمام السـرير. هكذا قرر ذات مساء زيارة «باتشيكو» فى محل النظارات وحثّه على إعادة تنظيم نشاط جمعية التصوير.

قبل يومين كـان قد قرر زيارة زملائه فى الهيـئة لتهنئتـهم على السرعة التى تَصَرَّف بهـا عمال النظافة بعـد سقوط الثلج. ومع ذلك، فقـد قاسى وقتها من خيبة أمل كبيـرة. لقد كان يتصور أن ظهوره المفاجيء فى القسم سيقـابل بحفاوة بالغة، لكن «دون كاسـتور»، الرئيس، لم يقل له سوى: «أرأيت؟ الصحافـة تؤلّب الرأى العام ضدنا». لم يرفع أحد عينيـه ما عدا كـرّاسكو الذى شَهَـر من بعـيد الإصـبع السـبّابة وأداره فـوق رأسه عـدة لحظات. قـال العـجوز «إلـوى» وهو ينظف بآليـة طرف أنفـه بالمنديل: «عندما سقط الثلج تصرف العاملون بمهارة. وقـد أتيت خصيصا لتهنئتكم

على ذلك». لم ترتفع عينا «دون كاستور» من فوق أوراقه. تأخر خمس دقائق فى الردّ على العجوز وعندما فعل لم ينظر أيضا إلى وجهه: «هذا ما تقوله أنت . أنت طَرَفٌ ـ خرج صوته عميقا عند إضافة ـ: لست الصحافة. نحن نفكر جديا فى إعادة ترتيب الهيئة».

نزل العجوز من على الأرضية الخشبية واقترب من المدفأة. راودته الرغبة فى الابتعاد عن المكان لكنه لم يحسم الأمر. كان يتأمل المكتب القديم بأرضيته الغبراء وموائده التى أكلتها القرضة وحزِم المطبوعات الضخمة ـ قسم النظافة، بيان العمل، تأشيرة حارس مقلب القمامة ـ وكأنه يراها لأول مرة. وشيء غريب، كان يتشبث بالمدفأة فى نهم، خوفا من أن يدفعه حماسة العفوى وحبه القديم للهيئة، إلى إحدى الموائد حيث يعمل زملاءه. تنفس الصعداء عندما رأى "موروخيل" ينهض ويتقدم نحوه، لكن خيل لم يكن يريد تحيته بل دَفَعَه قليلا حتى يستطيع المرور إلى السكرتارية العامة: «من فضلك، دون إلوى». عندم عودته قال له، دون أن يتوقف: «الصحافة تؤلب الرأى العام ضدنا. تدّعى أن المدينة متسخة. ها قد رأيت! نسعى الآن لتعديل مواعيد العمل ودراسة زيادة العمالة».

أحس العجوز بالخجل . كان يخجله التواجد هناك بلا عمل، متشبثا فى عتَه بالمدفأة، بينما يعدّ زملاؤه القدامى خطة لإعادة ترتيب قسم النظافة، لكنه لم يقرر مغادرة المكان. عندما همّ بفعل هذا أخيراً، نهض "كرّاسكو" متثاقلا وخرج للقائه وقال له: «أهلا، بالجدّ الصغير»، ثم أخذه من ذراعه واقترب به من مائدته القديمة فوجد فتى شاحبا، له أذنان كالجناحين، يحتل مكانه وعندما أحس بهما الفتى رفع رأسه فسأله «كرّاسكو»: «كيف التحقت بالعمل هنا، يا «بن»؟، اشرح للجد». تلعثم الفتى وحاول أن يقف على قدميه، لكن «كرّاسكو» أقنعه بالعدول قائلا له: «لاتضايق نفسك، الجد من أهل البيت»، وعندئذ حرّك الفتى أذنيه

وقال: «عن... عن طريق الاختبار». واجه «كرّاسكو» العجوز «إلوى»: ما رأيك؟ لقد سمعت». ثم التفت نحو الشاب: «قل للجد كم امتحان دخلت، هيا يا «بن». بدا الفتى وكأنه كلب مُرَوَّض: «ثلاثة. واحد شفوى، وآخر تحريرى والثالث عملى». نظر كراسكو» إلى العجوز: «مارأيك؟». كان العجوز يرتجف. لقد كان يعتقد أحيانا أن «كراسكو» مخلوق شرير ولديه القدرة على القتل لوسنحت له الظروف.. اتجه «كراسكو» مرة أخرى إلى الموظف ا لجديد: «بن، قل للجد كم كيلو جرام فقدتها وأنت تستعد للاختبار هنا، هيا». رد الفتى، مرتبكا، ومطوحا أذنيه مثل قزم خرافى(*): «ثمانية ... لكنى استرجعت الآن اثنين ونصفا». «حسنا -قال كراسكو- أمامك الجد. دخل الهيئة منذ مايزيد عن الخمسين عاما بإصبعه، ولمكافأته على مدة خدمة قضاها فى توافه ا لأمور أعدوا له مأدبة وأعطوه ميدالية ومعاشا طوال الحياة، ما رأيك فى هذا يا «بن؟». تورد الفتى خجلا، حرّك أذنيه وابتسم. ظنّ أن الأمر مجرد دعابة. ابتسم العجوز ايضا فى محاولة لتمييع ا لموقف، لكنه أحس بخوف يتملكه وقال: «أنت دائما هكذا يا «كرّاسكو»، «تحب المزاح» ـ لكن «كراسكو» استعار سمت القاضى لكى يقول: «أنا لا أمزح، أيها الجد. هيا يا «بن»، أخبر الجد أننى لا أمزح». عاود «بن» الابتسام مرتبكا فقال العجوز: «أنا ذاهب، لقد تأخرت» وعندئذ انحنى كراسكو على يد العجوز المرتجفة وطبع عليها قبلة مصطنعة.

كان العجوز «إلوى» يصاب بالهلع كل مرة يتذكر فيها هذا المشهد كانت الذكرى توقظ فيه إحساسا بالتقزز أو الخوف وكان يحرك رأسه من جهة لأخرى لكى يطرد هذا الهاجس. ودون سبب واضح غدت فرائصه

* الكلمة هى gnomo، ومعناها: عفريت أو قزم خرافى يقوم بحراسة كنوز باطن الأرض، حسبما تدعى كتب الخيال العلمى- المترجم.

ترتعد الآن من صورة المكتب، وكأنهم وضعـوا على بابه كلبين متوحشين للحراسة. حَنّ إلى «باتشيكو» . «إنه شيء آخر»، قال لنفسه.

وفعلا، استقبله «بـاتشيكو» بمودة لدرجة أن نظارته التي بدون حامل، ذات العدسات الشديدة النظافة، كانت تبتسم له في غير تكلّف. في النادى كـانوا يؤكـدون على أن «باتشـيكو لايحـتـاج إلى عـدسـات، لكنه كـان يستخدمها من باب الدعاية للمحل. قال له «باتشيكو»: «طلعتك ولا طلعة القـمر، يا «دون إلوى». منـذ متى ولم ير أحـدنا الآخـر؟». كان مـحل باتشيكو خلاّبـا؛ مليئا بالأغراض البرّاقـة والسيلوفان وأضفت عليـه مهارة صاحبه الزخرفية جواً يوحى بالنظافة المطلقة.

ـ اجلس، يا «دون إلوى»

جلس العجوز، مرّر المنديل على طرف أنفه وتنحنح بافتعال، ثم قال:

أتتذكر، يا «باتشيكو» محاضرتى فـى الجمعية عام ثلاثة وثلاثين. أومأ «باتشيكو» بالإيجاب وهو يبتسم، ويداه الغليظـتان ذات الأظافر المصقولة قابعتان فوق الفاترينة:

ـ كنت أقول لك «لاأجـيد التعـبير وصـوتى ضعـيف، لكنك أصررت وجعلتنى هدفا للسخرية يومها. أتذكر يا «باتشيكو»؟

صدرت عن «بـاتشيكو» إيمـاءه غير ملحـوظة لآنسة ترتدى المـعطف الأبيض لكى تستقبل زبونا. وضع مرفقيه بعد ذلك على الفاترينة ونظر إلى العجوز. كانت نظارته ترسل بلمعان يعشى الأبصار.

ـ لازالت الكاميرا «كونتاكس» ٣,٥ معك يا «دون إلوى»؟

أحس العجوز بالحيرة. ردّ:

ـ عن هذا أود أن أحدثك بالإضافة إلى أشياء أخرى.

جعّـد «باتشيكو» جـبهـته، مُرَكِّـزاً، وكأن الكلمـات التى ينتظرها من العجوز ذات أهمية قصوى:

ـ ما الذى يساويه اليوم فيلم ٦x٩؟ سأل العجوز فى كـثير من العنت، وتنحنح فى النهـاية وكأنه يفتـح باراشوتاً حتى لاينهـار سؤاله فـجأة، بل يسقط برفق على مُحَدثه.

بشىء من اللامبالاة ألقى «باتشيكو» بعلبة صفراء فوق الطاولة:

ـ هذا حسن . ثمنه ٢٤,٦٠ بيزيته، لكنه ممتاز.

كان لمعان نظارة «باتشـيكو» يربك العجوز. تصور أن بإمكانه الاطلاع على بؤسه بتلك النظارة.

ـ كل شىء ارتفع ثمنه ـ قال ـ . أصبحت الحياة لاتطاق.

ـ بالنسـبة لك لا . خـذ هذا وسـدد ثمنه عندمـا تحب. أنت فى هذا المحل وزير المالية.

ـ شكرا يابنى، لكنى لا أستطيع قبول هذا.

ـ ولم لا؟ «خـيـمـيـتـا»، غلّفى هذا الـفـيلم. لاتسـجلـى ثمنه فى الخزينة. خذ. هدية من المحل.

كل مرة ينطق فيـها «باتشيكو» كلمة «المحل» كـانت تنتفخ أوداجه ويرفع الصوت ويضفى عليه سَمْتاً توقيـريا وكأنه يقوم بالركوع أمام مذبح. وكل مرة كان العجوز يحس بالارتـباك أكثر. حاول أن يشرح لصاحـبه أنه ما جاء من أجل ذلك، لكن «باتشيـكو» كان يبتسـم بنظارته ولم يترك له الفرصـة. بعد ذلك، ولكى يشكر له حسن صنيعه، ظل العجوز يذكره طوال ساعة ونصف بملابسات محـاضرته عام ١٩٣٣ وقال له أن «لوثيتا»، امـرأته، غضبت منه وقالت له أنه من أجل هذا الدَّوْر كان الأفضل له البقاء فى البيت. تحدثا

بعد ذلك عن الجمعية وباغته العجوز «إلوى» بقوله: «أنها ماتت» وسرعان ما أدرك قوة الجملة لأن «باتشيكو» كان يتولى رئاستها وأراد إصلاح ما أفسده، لكن «باتشيكو» لم تظهر عليه أمارات الإحساس بالإهانة واستأذنه عدة مرات «معذرة، «دون إلوى»، لكى يستقبل الزبائن وكان العجوز ينتظر هادئا وفى كل مرة كان يرجع فيها «باتشيكو» كان يقول له: «معذرة، فهذه الساعات من النهار تكثر فيها الحركة».

فيوافقه العجوز، وعندما هَمَّ بالانصراف، بالغ «باتشيكو» فى كرمه معه وحثه على زيارته باستمرار وقال له العجوز: «من نشاطى عام ١٩٣٣ يتابنى السرور فقط عندما أذكر ما قلته لى عند وجود صورتين فى غاية الروعة من بين الصور التى التقطتها». كانت نظارة «باتشيكو» تبتسم وتؤيد وقال له العجوز «إلوى» أنه سيواظب على زيارة المحل. فقد كان من دواعى سروره دائما تبادل وجهات النظر حول التصوير، وأنه يمكن بالتعاون بينهما إعادة الحياة لنشاط الجمعية.

فى الأسبوع السابق على أعياد الميلاد، نزل العجوز «إلوى» إلى الحديقة صباحين متتاليين ومعه «لاديس» وصورّها وهى مضطجعة على مقعد معاكس للضوء، وتحتها مياه الغدير اللامعة. أتم العجوز المهمة بإتقان، كان يقيس المسافة ثلاث مرات، يُغيِّر الضوء بعد كل صورة ولكى يتغلب على رعشة يديه كان يبحث عادة عن نقطة ارتكاز ثابتة للكاميرا. كان النهار قد أوشك على الانصرام وأصبح الجو فاترا فتجمعت حفنة من المشاهدين حولهما. تملك الغضب «لاديس» لأن العساكر المستجدين لم يكفوا عن تعليقاتهم ا لساخرة أثناء جلوسها ولم تتوقف هى الأخرى عن تسديد الشتائم لهم ونعتهم بأوصاف مثل «أوساخ» و «أقذار»، وقد أدى كل هذا إلى فقدانها للهدوء والاتزان.

كانت تصيح فى العجوز:

ـ هيا، ياسيدى! لقد أمضيت القيلولة بكاملها فى هذا.

ويعود العجوز لقياس الأمتار ويتملكه والكاميرا فى يده غرور المحترفين:

ـ الصبر، يابنتى.

عاد إلى محل النظارات بعد ثلاثة أيام وجلس على الكرسى المُستَنِد إلى عمود المرايا.

ـ الثلاثة فى خمسة سلعة غير مناسبة اليوم. أليس كذلك؟ ـ سأل «باتشيكو» فجأة.

ـ معذرة، «دون إلوى».

ـ عذرك معك، يابنى.

كان «باتشيكو» يستقبل زبائنه. أخيرا اقترب من العجوز:

ـ «زيس» أرسلت حديثا كاميرات ١X٨، لكن لمعانها أكثر من اللازم؛ يحتاج ضبط غشائها لكثير من العمل ـ قال.

كان العجوز ينظف طرف أنفه:

ـ أعتقد أن الجهاز البصرى الأزرق لابد منه فى الكاميرات الجيدة، أليس كذلك؟

ـ معذرة، «دون إلوى».

ـ عذرك معك، يابنى.

كان «باتشيكو» يتلكأ فى العودة، بينما ينتظره العجوز فى صبر متأملا الكاميرات، النظارات، المناظير والإعلانات الزخرفية للفاترينات: «عدسات القرنية: فريدة، بسيطة، معبرة، نظيفة، ملائمة، منتقاة..

معلومات مستفيضة؛ جرّب دون أىّ التزام». «استعمل «زين» الجديدة التى تشتمل على مقياس».

«بوصلات، مجسِّمات، عدادات للمسافة ومقاييس للحرارة».

ـ لاتزال الثلاثة فى خمسة تحتفظ بمكانتها ـ قال «باتشيكو» ـ يحتاج ضبط غشاء الواحد فى ثمانية لعمل كثير.

ـ حقا؟

ـ بالطبع

ـ تعتقد أن كاميرا «كونتاكس» مثل التى معى...؟

ـ معذرة، «دون إلوى».

ـ عذرك معك، يابنى.

كان العجوز إلوى يستمتع بتواجده داخل محل النظارات، حيث يلفّه ذلك الجو المريح، الفاتر والمعقّم. لكن «باتشيكو» كان يتلكأ كل مرة أكثر فى العودة إلى جواره.

عندما رجع العجوز بالفيلم بعد يومين سأل «باتشيكو» فزعا:

ـ هل تفكر فى الانتظار، «دون إلوى»؟

ارتبك العجوز؛ لكن «باتشيكو» كان رجلا جريئا وسريعا فى اتخذ القرارات. ابتسم بخرطوم متغضن، مثل أرنب:

ـ ادخل المعمل وتولي تحميض الفيلم بنفسك، ما رأيك؟

كان العجوز يرتعش مثل طفل فقير وضعوا بين يديه فجأة لعبة غالية الثمن.

اصطحبه «باتشيكو» إلى البدروم وساعده فى ارتداء الرّوب الأبيض.

«حسنا»، كان يكرر العجوز «إلوى». «جرِّب أولا فى فيلم تالف. خذ»، حذّره «باتشيكو».

«إطمئن، يابنى». عندما وجد العجوز نفسه وحيدا، فكر فى «لاديس». لقد أمضت الفتاة ليلتين ساهرة تفكر فى الصور لأن العجوز أكّد لها أنها ستكون مثل التى تتصدر المجلات.

لاقى العجوز عَنَتًا فى تعويد عينيه على الظلمة؛ كما صَعُب عليه أيضا التأقلم مع فكرة استحواذه على معمل خاص به، لكى يقوم بتحميض عمله فيه. منذ أن عمل بضعه أشهر وهو صبى فى محل للتصوير الفورى على ألواح معدنية كان هذاهو حلمه الذهبى. سمح له الضوء الأحمر أخيرا بالتمييز بين السوائل والأوانى. جرّب أولا بماء وبفيلم تالف وسارت الأمور على مايرام. فكّ الفيلم بعذ ذلك من على الهيكل المعدنى، شحن الإناء الاسطوانى، صَبَّ الحامض وأخذ يهزّ فى أناة. أحس بانفعال حاد وعنيد فوق معدته؛ الانفعال الصافى والخالص للمبدع. وعندما رفع، أخيرا، الفيلم فى الضوء لم ير إلا ورقة شفافة، ناصعة البياض.

تصادفت خيبة أمله مع دقّات «باتشيكو» المتعجلة على الباب: «دون إلوى»، اختصر، سنغلق المحل» رفع العجوز المزلاج وأطلعه على نتيجة عمله، نظر «باتشيكو» إلى السوائل وقال:

ـ خلطت بين الحامض العامِل والحامض المُظْهِر.

حاول العجوز الابتسام وهو يخلع الرّوب الأبيض. لانت عيناه وكشف عن عتمة غريبة. فكر: «ربما أهدى إلىّ «باتشيكو» فيلما آخر». لكن «باتشيكو» قال فقط، وهو يشير إلى أسفل البنطلون:

ـ بالإضافة إلى ذلك لَوَّثت نفسك. هذا أسوأ. هذه البقع لاتزول.

فكر العجوز «إلوى» فى «لاديسِ» وهو يقول:

ـ وهل بيدى شيء أفعله!

-١١-

عندما قرر العجوز «إلوى» الاحتفال بليلة عيد الميلاد بصحبة «لاديس» وتكليفها بشراء زجاجة نبيذ أحمر فاتح من الحانة الموجودة على الناصية كانت لديه دوافعه.

فمن النادر أن يقدم العجوز على فعل شيء دون سبب. عندما أقدم على هذه الخطوة كان مقتنعا بوجود أشياء كثيرة عليه أن ينساها، وأشياء أخرى جديرة بالاحتفاء. ومن الأشياء التى كان عليه نسيانها، على سبيل المثال لا الحصر، موضوع الصور؛ وتلاشى الدفء من الهيئة التى كان يعمل بها؛ علاوة على الورقة الحمراء التى طلعت له في دفتر البقرة؛ وأخيرا، موضوع البطانية الشائك. لقد أصيبت «لاديس» بخيبة أمل عميقة وقاسية فى موضوع البطانية.

قبل ليلة عيد الميلاد بيومين كسبت الفتاة بطانية من الهدايا التى تقدمها سنويا «مؤسسة أعمال البرّ» لمن تتفق بعض أرقام كوبوناتهم التى ابتاعوها منها مع الأرقام الفائزة فى السحب الغير عادى لليانصيب. وبالرغم من ذلك، فعندما ذهبت الفتاة للمطالبة بها، وهى متأبطة ذراع «لامارثى». أخبرها المسئول أن الرقم الفائز بالبطانية هو ٤٩١٨٣ وليس ١٠٠٩٤ لأن الأرقام التى تتفق مع بعض أرقام الجائزة الخامسة عشرة لايتم حسابها وفقا لمسلسل الجريدة بل طبقا للترتيب الذى خرجت به أرقام الجائزة من صندوق الاقتراع السرّى. ألَحّت الفتاة وألحفت فى الطلب، لكنها بعد أن تيقنت من أنها لن تحصل على شيء، انطفأت ووصفته وهى تصيح بالخسة والجبن، هددها المسئول بالإبلاغ عنها، لكن الفتاة هاجت أكثر وكان لزاما على "لامارثى" استخدام القوة لإخراجها من غرفة ذلك الموظف.

بعد ذلك، فى البيت، روت «الاديسِ» ماجرى للعجوز وهى تنتحب وتوسلت إليه كى يذهب معها للمطالبة بالبطانية لأن الجميع يسخر من الخادمة؛ لكن إذا كان المتحدث سيد فإن الأمر سيختلف.

فى المساء وصل العجوز إلى بوابة «مؤسسة أعمال البرّ» ومعه الجريدة والكوبون لكن المسئول أكّد له ثانية على أن الأرقام التى تتفق مع بعض أرقام الجائزة الخامسة عشرة لايتم حسابها وفقا لمسلسل الجريدة بل تبعا للترتيب الذى خرجت به أرقام الجائزة من صندوق الاقتراع السرّى، ومن ثمّ، فإن الرقم الفائز بالبطانية هو ٤٩١٨٣ وليس ١٠٠٩٤. ومع ذلك فقد حاول العجوز إثارة شفقة الرجل بلفت نظره إلى أن الأمر يتعلق بفتاة مسكينة فى الخدمة، لكن الرجل المسئول قال له أن لسانها لم يكن كذلك، ومن جهة أخرى، فمما هو إلا عبد المأمور ولا يستطيع فعل شىء ونظرا لفشل العجوز فى مهمته فقد قرر الاحتفال بليلة عيد الميلاد فى المطبخ بصحبة الفتاة التى انفجرت عندما عرض عليها الأمر.

ـ أو تقدر على هذا.

ـ ولم لا، يابنتي؟ الجو جميل هنا. وهكذا يمكننا أيضا تبادل أطراف الحديث.

قبل أن يحين الموعد ظهر شىء جدير بالاحتفال وأصبحت زجاجة النبيذ الأحمر الفاتح لاتعتبر ملطفا للآلام فحسب بل حافزا جديدا للسعادة أيضا. تحقق المأمول اليوم السابق، على غير المتوقّع، مع وصول البريد. صاحت «الاديسِ» من على الباب:

ـ خطابات، ياسيدى. توجد خطابات!

شرع فى الجرى بوثبات حائرة، وفى عجلته، ارتطم عَجُزه بطرف المائدة، لكنه لم يشعر بأىّ ألم. بعد ذلك، عند فتح المظروف، أصبح

تنفّسه صعبا ولاهثا. من خلال عدسة تكبير غائمة لمح العجوز السقيفة الجميلة والدمى الملونة والحاشية المتقنة وعبارة «أجمل التهاني» مطبوعة بحروف مذهبة، وأسفل، على الخطوط الدقيقة التى تغطيها الكلمات كان يوجد توقيع مألوف لديه: «ليون» وعندئذ، رفع الكارت عاليا وقال بوجه مرتخ بفعل سرور غامر:

- إنه من ابنى، يا «ديس»! الفتى يكتب لى من مدريد.

امتلأ كل جسده بشوق عارم ونظر من جديد إلى الكارت وعندما قالت له «لاديس»، بوجه محتقن، و هى على وشك الانفجار: «وأنا الأخرى جاءنى خطاب، ياسيدى»، همهم: «إنها مصادفة».

صعدت الفتاة بعد ذلك إلى حيث توجد «لامارثى» وأثناء غيابهم لم يبعد العجوز عينيه الرطبتين والرخوتين من على الكارت وعندما رجعت «لاديس» سألها: «أخبار طيبة، يا بنتى؟» ، لكن الفتاة بدت وكأنها فى غيبوبة فاضطر لتكرار السوال أربع مرات، قالت بعدها وكأنها استيقظت فجأة: «طيبة» ووضعت يدها على قلبها وضغطت بحب على الخطاب الذى انتهت من إخفائه فى صدرها.

كان الخطاب من أختها «لاسلبينا» ، زوجة «الأوتروبيو» وقرأته لها «لامارثى» دفعة واحدة. كانت «لاسلبينا» تقولك «أختى، أُعَرِّفُك بأن البيكاثا سيذهب إلى المدينة فى السابع من الشهر القادم للالتحاق بالجيش، وسيحمل لك عند ذهابه بعض السجق والدجاج مما ننتجه هنا». أوشكت الفتاة على الاختناق وضغطت على قلبها فأحست به يدقّ بين الضلوع مثل ناقوس أصابته لوثة. بعد فترة لمست الذراع العارى الأبيض والبض لصاحبتها وقالت بصوت منْهك: «إنه قادم، يا «مارثى»، أتعرفين؟». ردت «لامارثى» :«نعم ، ياحلوة». أضافت «لاديس»: «خلال

خمسة عشر يوما ، يا مارثى». قالت «لامارثى دون أن تتوقف عن العمل: «نعم، ياحلوة». فجأة، تحسست «لاديس» بجزَع خديها المتوردين وقالت: «مارثى، من فضلك، هل طَلّقت القرية الآن؟». ردت «لامارثى» دون أن تنظر إلى وجهها: «ألا تتعجلين الأمور حبتين ، يا حلوة!».

أحست وكأن السقف ينطبق على الأرض وأوشكت على الإجهاش بالبكاء.

سألت، بالرغم من هذا، وبعد جهد جهيد: «ستذهبين غداً إلى قدّاس عيد الميلاد، حقا يا «مارثى؟». اشتاطت صاحبتها غضبا، ثم قالت: «أتتحمل عظام كعبىّ شيئا مثل قدّاس عيد الميلاد؟». حينئذ انصرفت «لاديس» وهى شبه نائمة وفى البيت ، كان على العجوز سؤالها أربع مرات عما إذاكانت الأخبار طيبة لكى تعود إلى رشدها.

أشرق اليوم التالى على مهل بالرغم من برودته وتَسَلّلَ جوّ عيد الميلاد عبر النوافذ الزجاجية فأزكى المشاعر والأفئدة. أضواء الواجهات الزجاجية ومُكبِّر صوت «رويث جاندا رياس»، صاحب محل الديسكو، الذى يذيع الأناشيد الدينية، وزجاج القهاوى المُلَفَّع بالبخار، والرجفة المتقطعة للأجراس، الحواشى الضئيلة اللامعة لأشجار الموز، والبهجة المرتاعة للأطفال، كانت جميعها تؤكد على أهمية هذا التاريخ. وإذا كان هذا قليلا، فإن العجوز « إلوى» قد أمضى المساء فى المطبخ، مشاركا فى الإعداد للعيد وأمر الفتاة بإحضار زجاجة نبيذ أحمر فاتح، وقال لها أخيرا بعد تهيئة كل شيء: «إجلسى، يا «ديسى». صدرت عن الفتاة حركة ريبة مثل التى تصدر عن زوجة جديدة فى أول ليلة لها وقالت: «لا أعرف ماذا جرى لى، ياسيدى». أبعَد الكرسى قليلا: «أنت عبيطة، يابنتى؟ اجلسى». امتثلت الفتاة حينئذ، شدّت طرف الدِّثار وثَبّتَته بين ساقيها ثم جلست. ملأ العجوز الكأسين بالنبيذ ثم رفع كأسه:

ـ من أجل الخطابات! ـ قال.

طأطأت رأسها:

ـ (أمّا بتطلع منك حاجات)، ياسيدى! ـ وبما أن العجوز كان ينتظر فقد أخذت كأسها أخيرا وأفرغته في جوفها دفعة واحدة. وسرعان ما شاهدت «البيكاثا» قريبا جدا منها وبدأت نشوة غازية تصعد من المعدة إلى القلب. قال العجوز بينما كان يأكل فى صخب:

ـ فى مثل هذا اليوم منذ أعوام طويلة، كان عمى «إرمنس» يفتح لنا خزانة الملابس التى يحتفظ فيها بملابس أسلافه وكنت أنا و«لاروساليتا»، ابنة «لافويتتيسانتا» وأصدقاؤنا نرتدى الأقنعة ويعقد لنا عمى مسابقة فى النوادر وأخرى فى الشعر وثالثة فى الأناشيد الدينية وكان يقدم للفائز فى كل مسابقة «دورو» من الفضة. ألم تشاهدى «الدوروس» الفضية، يابنتى؟

ـ أىّ «دوروس»؟

ـ المستديرة.

كانت الفتاة تحدّق بنظرتها المتلاشية المعالم وعندما كان العجوز يحسّ بعينيها الكليلتين يتخلى مسرعا عن مواصلة:

ـ كلى، يابنتى.

تنبّه العجوز فجأة إلى أن «سوثيو»، زوجة إبنة، لم توقع على الكارت علما بأن هذا لم يكن يكلفها شيئا، ولقتل هذه الفكرة فى المهد تناول جرعة أخرى من النبيذ الأحمر الفاتح فأحس بسريان حرارته وحِدته ونشاطه أسفل ساقيه. ثم قال:

ـ لم تُفتَح مدريد فى يوم واحد.

ـ مدريد؟

ـ (شوفى)، يابنتى. مكتب التوثيق فى مدريد أكثر تعقيدا مما تتصورين.

كانت الفتاة تنظر إليه دون أن تعى ما يقول. كانت تفكر فى مجيىء «البيكاتا» وغنائه لها وحدها «الريليكاريو» و«لماذا تتملكنى الأحزان» بصوت كالهمس. قالت:

ـ هناك فى قريتى، فى مثل هذه الليلة، كان «ماركوس»، أخى النصف شقيق والعبيط، يثير ا لضجة بإنفحة الخُنزير ويزعجنا جميعا.

أخذ العجوز جرعة أخرى من النبيذ الأحمر الفاتح لكى ينسى «بيبين باثكيث» وأفكاره السوداء عن المعاش. عندما تحدث، تشبث لسانه قليلا بسقف الفم:

ـ هل لك أخ نصف شقيق، يابنتى؟

نظرت إليه متبرمة:

ـ كان لى ـ قالت أخيرا ـ براكسيدس، الثعلب، قضى عليه فى مكانه بمذارة خلال فيضان ١٩٥٢.

كان للنبيذ الأحمر الفاتح، وسكون الليل ودقات الأجراس البعيدة الفضل فى إشاعة جوّ من الألفة بينهما. قال العجوز بصوت متلجلج:

ـ عندما ولدت مات أبى. لم أتناول عشاء ليلة عيد الميلاد ولا مرة مع والدى. حدث لى نفس ما حدث للملك.

ـ الملك هو الذى يأمر وينهى فى كل شىء، أليس كذلك، ياسيدى؟

ـ نعم، يابنتى، له ولاية على كل شىء فيما عدا القدر. وكماترين رجل كهذا كان لديه كل ما يريد، ومع ذلك لم يكن له أب.

شرب العجوز من جديد لكى ينسى يُتمه. وأخذ جرعة نبيذ أخرى لكى ينسى جويتو، ابنه الصغير، الذى رحل دون انتظار فى ا لردهة.

أردف أخيرا:

- «بولدو بومبو» ، صديق قديم لى، ذهب إلى مدريد على دراجة لكى يشاهد حفل تتويج الملك. استغرقت رحلته ست عشرة ساعة.

كانت رأسه تفور تنبت فيها الذكـريات مثل فقّاعات صابون تتحطم عند انفجـارها وتذوب فى ا لهواء. كانت الفـتاة تستـمتع بتواجـدها إلى جوار العجوز، منصتة لحديثه الذى لاينتهى، مدفوعة بحافز تواجد «البيكاثا» إلى جوارها بعـد أيام قليلة وعندما شرع العـجوز فى سرد حكاية «لا أنتـونيا» حنانه الأول، تناست الطعام وعندما روى لها العجوز الحكايات التى كانت تقصها عليه «لاأنتونيا» عندمـا كان طفلا، لم تكن تطرف لها عين. . وعندما حكى لهـا العجـوز أن أخـته «إيلينـا» كانت تخـرج وبيـدها الصليب من باب المخدع وأن العم «أليخو»، زوجها، الذى كان عملاقا وله يدان مثل يدىّ قزم، كان يذهب للنوم فى غـرفته ويحدث نفـسه حتى أنه كان يبكى أحـيانا، كانت «لاديسِ» تختنق بالبكاء. وأضاف العجوز:

- كلى، يابنتى - توقف قليـلا لكى يبتلع الطعام، ثم أضـاف: حدثت بعد ذلك واقعة انتهاك المقدسات، وهذا أسوأ ما فى الموضوع.

- انتهاك المقدسات؟ - سألت الفتاة بجفاء.

- خرجت أختى وبيـدها الصليب لكن العم «أليخو» كان ثمـلا، فسدد ضربة للصليب وأسقطه على الأرض ثم داس عليـه وهشّمه. أوضحت أم لا، يا بنتى؟

أو مأت الفتـاة إيماءة مبهمة وكـأنها تشير على نفسهـا بعلامة الصليب تحوّل لونها إلى الأحمر القرمزى:

ـ ياللعذاراء! ـ قالت فزعة.

ـ وصاحت أختى بأعلى صوتها : «انتهاك للمقدسات». «كفر».

وعندئذ غادر البيـت ومعه الهدية انفصـلا فى النهاية، وذهبت هى إلى «بلباو» لتعمل مدبرة منزل فى دير صـديقتها «إيروينا»، وهذا ما كانت تريد فعله منذ زمن طويل.

أما هو، فقد رحل إلي فنزويلا. إلى أمريكا، تعرفين؟ وبقيت وحدى. لكنى لم أعبـأ بهذا وتحملت، وعندما مـاتت نشرت لها نعيـا فى الجريدة وأقمت القدّاس على روحـها خلال أيام العزاء التسعـة. رفع فجأة الكأس الممتلىء حتى منتصفه وقرّبه من كأس الفتاة ثم قال:

ـ من أجل عمى «أليخو».

ارتجفت الفتاة:

ـ أمّا هذا فلا ـ قالت.

ـ حسنا، كما تريدين ـ قال. وشرب. بمفرده

بدأت الأجـراس تتحـاور بحمـاس من فوق الأسطح اللامـعة بفـعل الجليد. أخذ شعـور فاتر ومطمئن بالرخاء يترسّخ فى خاطـر الفتاة. بينما كان العجوز مشغولا بأكل سمك المـرجان وانتزاع الشوك بإصبعه. انتهزت الفتاة الفـرصة لكى تشرب، وعندما انتهت، وضـعت الكأس فوق المائدة وسألت:

ـ وماذا كان من أمر «لاأنتونيا»، ياسيدى؟

تلعثم العجوز:

ـ لا أنتونيا؟. . . آه! ـ استعاد انتباهه : شتان بين هذا وبين ما حدث لها.

ـ هذا. لقد ظُلمت الفتاة. دائما يُؤْخَذ الصالح بذنب الطالح. . ويكون نصـيبنـا نحن الخادمـات أسـوأ ما فى المـوضـوع. هذا ما تـقوله دائمـا «لامارثى» ومعها كل الحق.

ـ لامارثى؟

ـ صديقتى التى تعمل فى الطابق الثالث ـ ردت «لاديس» وهى ثائرة.

كان العـجوز يحس بسحـابة تطفو داخل رأسـه وتجعل معـالم الصور تتلاشى عنده.

نهض وقال بعناد، وهو يتكىء على الحائط ومقطبا جبينه فى محاولة للتركيز:

ـ هذا صـحيح. الصـالح بالطالح. في غـاية الصحـة، يابنتى. ابنى «جويتو» هناك بعيدا، مات ولم يفعل شيئا يُسأل عنه لا أقول هذا لأنى أبوه بل لأنه بالفعل لم يسىء لأحد أبدا.

تشبث بظهر الكرسى:

ـ هيا، إجلس ـ قالت الفتاة بلهجة آمرة ـ. لو وقعت الآن سيكسر لك ضلع.

امتثل العجوز. جلس بتثاقل لأن ساقيه بدتا وكأنهما استُبدلتا بملامس كثيرة تلتف حول أرجل الأثاث مثل أخطبـوط. قالت الفتاة وهى تشير إلى الأنف: «سيدى، المنديل». «آه، حسنا»، قال العجوز دون أدنى خجل ثم أضاف بعد أن تنظف وحفظ المنديل فى جيبه:

ـ كان «ليونثيتـو» معجبا بالكتب لكنه كان نحيفـا، ولكى نغذيه بما فيه الكفاية، قررنا شـراء لحم خنزير مجفف له وفى كل مرة كان يقتـرب فيها

أخوه من شرائح اللحم تثور ثائرته. كنت أقول لزوجتي حينئذ: «هذا الفتى لابد وأن يفوقني». وكما ترين، يابنتي، فقد أصبح موثق عقود في مدريد وهو في الثانية والأربعين.

أخذت «لاديس» جرعة نبيذ أخرى. كان خدّاها متوردين وأحست بجلد وجهها مشدودا وكأنه مشمّع. قالت:

ـ ماركوس، أخي ا لنصف شقيق...

التفت إليها العجوز، في كثيرمن الاهتمام:

ـ هل لك أخ نصف شقيق، يابنتي؟

هاجت هياجا مشوبا بالغضب والحيرة. قالت بصوت يقترب من الصباح:

ـ كفّ عن هذا الاستخفاف.

كان صخب الأجراس يزداد وضوحا وقُربا. كان يتسلل عبر الزجاج الذى يَلُفّه الضباب مثل تَسَلُّل عذراء «لاجيّا» من ثنايا القبة العالية في كل مرة يهزفيها مساعد القسيس الجرس الصغير أيام الآحاد أثناء قدّاس السابعة في «سان پدرو».

كان الجو حارا في المطبخ ونبتت تحت عيني العجوز حلقتان ورديتان. نظر إلى الفتاة، التي أمالت رأسها وانهالت على أذنها ضربا براحتها:

ـ ستؤذين نفسك، يابنتي.

ـ لقد بدأت. كأن بداخلها بعوضة.

بالضرب لن تتوصلي إلى نتيجة.

ابتسمت، ثم قالت:

ـ لايفلّ الحديد إلا الحديد.

لكن «البيكاثا» كان يرفرف عندها في اللاوعي تَمَنّت أن تعلن الأجراس خبر قدومه. قالت بغتة:

ـ لن تتأخر عن حضور حفل زفافي عندما أتزوج.

نظر إليها العجوز وكأنه عائد من عالم آخر. تَشكَّل فوق عينيه شيء أشبه بالغشاوة البللورية:

ـ أين، يابنتي؟

ـ مرة أخرى! طبعا في قريتي.

تملكه الحماس فجأة:

ـ سأذهب بصفتي كفيل، هذا ما أعتقد. سأكون كفيل حفل زفافك، يابنتي!

ـ اتفقنا ـ قالت الفتاة. ثم أضافت بعد لحظات من الصمت: يالها من حفلة !تلك التي تُقَدَّم فيها المرطّبات. يبدأ الفتيان وكأس تروح وكأس تأتي ثم يشكلون جوقة ويغنون: «مع البين ـ بيريبين، مع البان ـ بارابان، بمبان، من لايعجبه النبيذ فهو حيوان». يالها من سهرة!

أبدى العجوز «إلوى» اهتمامه:

ـ كيف يكون هذا، يابنتي؟

ـ ماذا، الغناء؟ هكذا يكون: «مع البين ـ بيريبين، بيمبين ـ مع البان ـ بارابا، بمبان...».

نهض العجوز بصعوبة. أحسّ في صدره بالهياج المُفْرِح والمُحْزِن للأجراس:

ـ هيا، يا «ديسي» ـ قال وهو يمدّ ذراعيه كمن يدعوها للرقص.

وقفت الفتاة على قدميها فأخذها العجوز من يديها وتحت اللّمبة الضعيفة التى لاتزيد عن ٢٥ فولت، بدأ الإثنان فى الدوران المحموم وظلالهما تتضاءل وتتضخّم فوق الحوائط دون توقف، وأصواتهما الغير متجانسة كانت تهدر فى مواجهة الخواء والعزلة والخوف:

ـ مع البين ـ بيريين، بيمبين ـ مع البان ـ باراباان، بمبان ـ من لايعجبه النبيذ ـ فهو حيوان!!! مع البين ـ بيريين، بيمبين ـ مع البان ـ باراباان. . . !!

ـ توقف الأرض تدور بى. . !

كان العجوز يضحك ، ويضغط كل مرة بشراهة أكثر على يدى الفتاة الخشنتين:

ـ هيا!! مرة أخرى، يا «ديسى». بصوت أشدّ.

ـ مع البين ـ بيريين، بيمبين ـ مع البان ـ باراياان، بمبان. . . !!!

«لا أنتونيا»، «جويتو»، «لوثيتا»، «بيبين باثكيث»، «ليونثيتو»، «بولدو بومبو»، العم «أليخو» وابنة «لافوينتيسانتا» كانوا يرقصون حولهما، كانوا يقتربون ويبتعدون بطريقة جنونية وكان العجوز «إلوى» يغمز بعينيه ذاهلا، وعندما ينتهى يضحك ويصيح:

ـ بصوت أشد !!! بصوت أشد !!!

ـ توقف الآن، ياسيدى، الأرض تدور بى!!

وعندئذ يضغط أكثر على يدى الفتاة اللتين تتصببان عرقا:

ـ مع البين ـ بيريين، بيمبين ـ مع البان ـ باراباان، بمبان ـ من لايعجبه النبيذ ـ فهو حيوان!!!! مع البين. . !!

ـ أترك يدى، ياسيدى، أنت تؤلمنى!!!

لم يكن يسمعها:

ـ مع البين ـ بيريبين، بيمبين ـ مع الـ . . . . !!!

دقّ جرس الباب فجأة فتوقف العجوز والفتاة أتوماتيكيا. تشبث العجوز «إلوى» بظهـر الكرسى وظل هكذا لبـعض الوقت وعيناه مُـسَمَّـرتان على الأرض محاولا الاعتماد على ساقيه الواهنتين. قال، بعد عدة ثوانٍ:

ـ الباب يدق يا «ديسِ»، افتحى.

خرجت الفتـاة وهى تترنح وعندماعادت كان العـجوز قد جلس على ا الكرسى واضعـا رأسه بين يديه. عندما سـمع «الاديس» رفع وجها اعـتراه الهزال والشحوب فجأة. قالت الفتاة خجلة:

ـ إنها فتاة الطابق الأسفل؛ ترجو منا الكفّ عن الضوضاء؛ يوجد مريض. . .

بالرغم من انتظارهاله اليـوم السابق بطوله، هكذا، ويدون مقـدمات، في ظلّ السلّم ويتلك الثياب والقبعة التي يغطي خيالها العينين. لم تعرفه «لاديسِ».

قال، في جسارة تشوبها الهيبة، محاولا وَصْل علاقتهما بالماضي:

ـ مـ . . . . ماذا تقول الجاهلة الأكثر جهالة من كل الجاهلات؟

ـ «بيكاثا»! ـ صاحت حينئذ بحنان.

كان «البيكاثا» يتـأبط علبة أحذية من الكرتون عليهـا بقع من الشحم، مربوطة بحبل. ظل الفتى عدة ثوان عـلي عتبة الباب، الوقت اللازم لكي تعتاد «لاديسِ» على الظل ولتفحـصه بالزّي الجديد. لم ينزل الحماس من على وجه الفتاة. رفعت يديها إلى فيها وقالت متحيّرة:

ـ آي، أماه! (مين كان يقوللي). هيا. ادخل.

تقدم مزهوا في الممر بسـاقيه القصيرتين المقوستـين، مجرجرا الحذاء الأسود ذي ا لنصف رقـبة على الخشب المتـآكل. بعد أن دخل المطبخ، أزاح القـبعـة إلى الخلف، جلس على الكرسي الـذي اعتـاد العـجـوز الجلوس عليه كل صباح ووضـع مرفقيه على فخذيه. كـانت الفتاة تتأمله وهي شـاردة، يداها الضاربتـان إلى الحمرة معـقوفـتان فـوق حجـرها، ملامحـها الخشنة مضـاءة بابتسامة حنون. لكنه، علـى خلاف العادة، بدا مرتبكا، مُشَوَّشا وشارد الذهن.

حاولت «لاديسِ» التَقَرُّب منه:

ـ تعرف أنك لائق في الزّي العسكري؟

ـ يـ . . . يمكن.

لمحت المعدن المذهَّب فوق متوازى الأضلاع الأحمر الموجود على طَيَّتَىْ صدر السترة:

ـ ظننتك ستلتحق بسلاح الفرنسان.

ـ ا . . . . ابن عم «دون أوليبانو» جعلنى جندى مراسلة، أنظرى هنا ـ قال مبررا.

قطعت الفتاة حبل العلبة وقدمت له بعض الشطائر. كان «البيكاثا» يلتهم الطعام دون أن ينظر إليها، منزويا، مثل كلب فى بيت غريب.

حاول الفتى مرتين تقلّد طابع الجرأة لكن المدينة، وتلك الثياب، كانت تثقل كاهله. كان يرتفع بينهما حاجز غير مألوف من الوحشة. كانت تظن أن «البيكاثا»، بمجرد أن يصل، سيحكى لها عن أشياء من هناك وسيغنى لها «الريليكاريو» و«لماذا تتملكنى الأحزان». لكن «البيكاثا» لم يكن يفعل سوى التهام الطعام دون أن ينظر إليها، منزويا، مثل كلب فى بيت غريب.

حاول الفتى مرتين تقلّد طابع الجرأة لكن المدينة، وتلك الثياب، كانت تثقل كاهله. كان يرتفع بينهما حاجز غير مألوف من الوحشة. كانت تظن أن «البيكاتا»، بمجرد أني صل، سيحكى لها عن أشياء من هناك وسيغنى لها «الريليكاريو» و«لماذا تتملكنى الأحزان». لكن «البيكاثا» لم يكن يفعل سوى التهام الطعام وإذا سألت عن شىء، أجباها دون أن يرفع رأسه على خلاف عادته فى القرية كل مرة يستعد فيها للتحدث أو الغناء، فقد كان من الممكن ـ على حد قول «كولويكو» خادمة القسيس ـ رؤية خلايا مخّه من فتحتى أنفه الصغير.

والشيء الأخير لم يتغير فيه، فـالبيكاثا، كماكان يفعل في القرية، عليه أن يستعد(*) إذا أراد أن يقول شيـئا، لأنه طبقا لكلام «دون خيـر ونيمو» الذي يُكنّ له كثيرا من التقـدير ـ يحدث له نفس ما يحدث للطائرات التي تحتاج لَبعض الوقت حتى تتمكن من الإقلاع.

ـ الـ . . «الكارابلانا»، خطيب كريسـبولا، سيؤدي الخدمـة العسكرية في المغرب.

ـ ياللعذراء، كيف ستستقبل «كريسبولا» هذا الخبر!

ـ خـ . . خَمِّني أنتِ.

خيّم الصـمت من جديد. . تعاظم القلق في قلب «لاديسِ». اسـتعانت بكل الوسائل لتقيم جسرا من المودة بين الاثنين. قطّعت السجُق بالسكين:

ـ تناول شريحة من السجق؛ لاتكن خجولا.

كـان يأكل دون أن ينبس ببنْت شـفة، دون أن يوجـه إلى الفتـاة نظرة واحدة من عينيه، الـشديدتي الالتصاق واللتين تبدوان كـعين واحدة عندما يدقق النظر بهـما. كـانت «لاديسِ» تفكر في «مـاتيلدي» وغصّـة مؤلمـة تتشكل أعلى صدرها.

قالت في محاولة أخيرة:

ـ أمّاه، شكلك لم يتغير.

ـ أ . . . . أنا دائما هكذا.

---

* Tomar carrerilla تعني: أخـذ خطـوتين قـبل بدء الرقص. ومـعناهـا في الجـملة أن "البيكاثا" عندما يشرع في الكلام فإنه يحتـاج لوقت واستعداد لكي ينطق بالكلمة الأولى- المترجم.

ـ يجوز، لكن بـعد قضـاء وقت بالمدينة فـإن الأمر يختلـف ـ عندما تنتهى من الخـدمة العسكرية ستكون قـد نفضت عن نفسك غبـار القرية؛ هذا ما يحدث للجميع.

ـ جـ . . (حنشوف). هذالايمكن التنبؤ به.

جرّبت الفتاة أشكالا جديدة للاتصال، دون فائدة. فالفتى كان يتحصن داخل صمـت متوحش بعـد مضى بعض الـوقت وعلى خلاف مـا كانت تنتظر نهض. خـرج صوت «لاديس» بصـعـوبة قالت له من على البـاب: «إبقى عـدى، تعرف الآن الطريق». وسـرعان ما وجـدت نفسـها وحـيدة فصعدت عند «لامارثى» وأجهـشت فوق صدرها بالبكاء. كانت «لامارثى» تقول: «هيا، ياحلوة، دعك من هذا».

وتنتحب «لاديس»: «لايحبنى»، يامارثى. الآن لايحبنى». . ولامارثى تربت على ظهرها: الرجال غيره كثيرون. لم يكن هذا الكلام يسليها، فقد كانت مـعدة على مـقاس جسـارة البيكاثا وتطاولاته وهذا السـلوك الخائر والغير مفهوم من جانبه، كـان يفزعها. «ليس هذا البيكاثا الذى أعرفه لقد غيـرته الحقـيرة ماتيلدى». فـترد عليـها «لامارثى»: «هونّى عـلى نفسك ستموتين كمدا».

أمضت «لاديس» أياما سيئة منذ أن أخبـرتها «لاسلبينا»، أختها، بقدوم «البيكاثا».

خرجت ثلاث أمسـيات مع «لامارثى» وفى الثالثـة لم تكن قررت بعد شراء السِّترة الخضراء المنقـوشة بالأحمـر. أدخلها اهتمامـها بأثاث عش الزوجية فى نفقات كثيرة وقد حضر البيكاثا قبل ما هو متوقع. . ومن جهة أخرى فـقد أنهكهـا أيضا رسم الخطط مع «لامـارثى» وهما تتـحدثان فى مسـقط النور. كمـا كلفها هذاالشـجار مـرتين مع «لاتاسيـا»، التى كانت

لاتمل من التعريض بهـا قائلة أنه من الأفـضل لها انتظـاره جالسة لأنـها ستتـعب من طول الوقوف. لم تعتقـد «لاتاسيا» بوجوده أصـلا. وقد كان يسعدهـا توبيخها على مـا فعلته ليلة رأس السنة: «هيا، نسـيت نفسك مع العجوز، لو لم أصعد لجاء عاليـها واطيها». كانت «لاديسِ» تثور وتصيح فيها لكى تمسك لسانها، وتصفها بحقيرة ومؤذية، لكن الأخرى كانت تمد رقبـتهـا، مثـل الدجاج أثناء الشـرب، وتقول: «الحـقائق تؤلم». كـانت «لاديسِ» ترتعد من مـجرد التفكير فى انتـشار الإشاعة وتصـور «البيكاثا» لشيء لَم يحدث ولهذا فـإنها كانت تفضل أن تسخر «لاتاسـيا» وتقول أن عليهـا ا لانتظار جالسـة لأنها سـتتعب مـن طول الوقوف، حتى تسـتطيع التظاهر بالغـضب من هذا الكلام بقـصد أن تتـمـادى «لاتاسيـا» فى هذا الجانب وتنسى الآخر.

فى المـساء، بعد أن انتـهت من غسـيل الأوانى صعـدت «لاديس» عند «لامارثى» من جـديد. لم تستطع التـزام الهدوء. كـانت أكثر سكينـة لكنها عادت لتزرف بعض الدموع قالت لصديقتـها أنها لاتعرف ماذا دهى «البيكاثا» فهو نصف مذهول ولا يتكلم، لايضحك لايمد يده، ولا أى شيء.

تغضنت شفتاها المتشققتان عن تبويزة لتقول:

ـ آى، يا «مارثى» على مزاحه الذى كان لايكف عنه! لقد تغير.

لكن «البيكاثـا» عاد المساء الـتالى وبدأ قلب «لاديسِ» فى الخفـقان الغير منتظم عندمـا أحست بتلك الرائحة المميـزة التى تجمع بين رائحة العـرق الآدمى ورائحة الإصطبل والجلد الـمنقوع فى الشـحم. لم يكن «البيكاثا» المعـهود بمرحه العدوانـى وحركاته الصبيـانية بل إنه حتى لم يقص عليها شيئا ممـا هنالك مثل حكاية المعجزة أو عش اللقلاق كانت تقول لتشجعه:

ـ كانت كدمة من أثر ركلة.

د. . . دعك من هذا لقد كان لها قلب حقيقى وبهادم وكل شىء كان القسيس يرى ضرورة فحصها قبل الإدلاء بأى تصريح لأن «لاتينا» عندما تسللت من بين قدمى الذكر لتُخرج هذه الخليقة استعانت بقولها: «ياقلب يسوع، أنقذها». وعندما خرجت كانت تحمل فوق ذراعيها قلبا أحمرا حسن التصوير.

ـ شىء مدهش.

ـ لـ. . . . . لقد حدث هرج ومرج بين أهل القرية جميعا، وتَجَمَّعت أكثر من ألف نفس بدار «لاتينا».

ـ وعش اللَّقلاق؟

ـ جـ . . حظ عاثر، ليس إلا. . لو سقط العش قبل دقيقة، لما حدث شىء؛ ولو سقط متأخرا دقيقة، لاشىء أيضا. لكنه سقط عندما كان التوأمان يلهوان تحت البرج، والباقى معروف. طبعا وزن العش كان ثقيلا جدا.

قطبت «لاديسِ» جبهتها الضيقة:

ـ ياترى إيه شعور «لاكنديلاس دلوقتى»

ـ خـ . . . خمنى أنت.

فكَّ الفتى بعد ذلك أزرار السُّتْرة، أخرج ورقة متسخة من الجيب الداخلى وقال:

ـ يعدُّ القسيس لاحتفالات العذراء هذا العام إعدادا غير مسبوق. . ما حدث فى السنوات الماضية لايساوى شيئا بالمقارنة بهذا.

بسط الورقة وقرأ بنغمة روتينية يتخللها بعض التردد:

ـ ا. . . . انطلاقـا مـن خـالص الحـرص علـى إعـادة الروعـة لاحتفالاتتابعـذراء «لاجيّا» بما يتناسب وماضيهـا التليد، فإننا نطلب العون من أبناء القرية، ونحن على ثقة بأن يجد هدفنا الصـدى الذى يستحقه من أجل تمجيد الرّب وقديستنا عذراء «لاجيّا».

<u>بـ .... بيان بالنفقات</u>

تـ . . تسع قداسـات، إضاءة طوال العام، حقـوق القسيس، مسـاعد القسيس، شموع، الخ. . . . . ٤١٠٥ بيزيتة

مواعظ ديسـمبرالثـلاثة (التكلفة التـقريبيـة، نحن فى سبـيل استيـفاء الإجراءآت مع الأب فيديريكو). . . . . ٣٠٠٠٠ بيزيته

أ. . . . الألعاب النارية. . . . . ٥٠٠٠ بيزيتة

أ . . . . . المشروبات (التكلفة التقديرية) . . . . ٣١٧٥ بيزيتة

أ . . . . . . الخطابات والمراسلات. . . . . ٧١٠ بيزيتة

إ..... إجمالى ١٥٩٩٠ بيزتية

ك . . كل فـرد يمكنه التبـرع بالمبـلغ الذى يريده، وسـيـتم توزيع المرطبات بما يتناسب وحجم التبرعـات. من سيساهم بأكبر مبلغ سيكون من نصيبه ميدالية بداخلها صورة لـعذراء «لاجيّا» وستعلق على طية سترته بشـريط صغيـر عليـه العلم الوطنى. . وكل من يساهم بـأكثر من خـمس بيزيتات سيحتل مكانا بارزا فى الاحتفال الدينى.

ـ لـ . . . لو ساهم كل فرد فلن يكون المبلغ كبيرا.

ـ أ . . . اشترك فى الإعداد للاحتفال بعذراء «لاجيّا».

عندما انتهى «البيكاثا»، كانت «لاديس» على وشك الاعتراف بأنها ايضا تعرف القراءة لكنها قررت عدم التسرع فى الإفصاح عن المفاجأة . . ودون أن تتفوّه بكلمة نهضت، خرجت ثم عادت ومعها بيزيتة مطوية بعناية أربع طيّات:

ـ خذ ـ قالت ـ أعطها للقسيس نيابة عنى.

وضع البيزتة بإصبعه الأوسط فى الجيب الداخلى للسترة ثم قال:

ـ و . . وصل المبلغ الآن إلى عشرة آلاف وخمسمائة بيزيتة . بالمزاد على الطائر البنّى جمعوا أكثر من سبعمائة بيزيتة من المدرسة وحدها.

قطبت الفتاة جبينها:

ـ المزاد؟

ـ جـ . . حمل المدرس الطائر و«التشيتشو»، ابن «لاكريسبولا»، رفع الرقم إلى ٣٢٥ بيزتية فقال له المدرس حينئذ: «هذه النقود من أجل القديسة العذراء، أتأخذ الطائر أم نعرضه فى مزاد آخر؟». فجبن الصبى وقال نتركه لمزاد آخر.

وبقيت الثلاثمائة خمس وعشرون للقديسة. . وبهذا الشكل جمعوا أربعمائة بيزيتة، ومن فصول الفتيات ثلاثمائة أخرى وبما أن أحدا لم يجرؤ على أخذ الطائر فقد تركوه عند قدمي العذراء . ويتناقل الناس الآن القول بأن ثبات الطائر وعدم طيرانه يعتبر معجزة أخرى للعذراء.

كانت الفتاة تنظر إليه باهتمام:

ـ ألا يستطيع الطيران من مكانه عند قدمى العذراء؟

ابتسم «البيكاثا» ابتسامة العالم ببواطن الأمور:

ـ لـ . . . لقد أعطاه لى المدرس، ونتفت ريشه بنفسى.

ـ أيقدر على هذا ، «دون فيديل»؟

ـ لـ . . ليس «دون فيديل»، بل الجديد. «دون فيديل» ترك القرية منذ عامين.

لم يكن القسيس يطيق حتى رؤية صورته. لاتقولى لمخلوق كلمة عن نتقف ريش الطائر.

عندما ذهب «البيكاثـا» كانت «لاديس» أكثر هدوءا فى المسـاء، وهى بقميص النوم وذراعاها معقوفان طلبت من عذراء «لاجيّا» أن يحبها «البيكاثا».

فى مساء ا ليوم التالى، ارتدت السـترة الخضراء المنقوشة بأحمر لأول مرة لكى تستقبله، وبالرغم من عـدم تعليقه بشىء فقد لاحظت من خلال نظراته الجريئة المختـلسة أن الأمور بينهما قد تغيرت. كرر على مسـامعها بعد ذلك وهو يدقق فيها من فوق لتحت:

ـ أ. . . . أتعرفين أن المدينة تناسبك؟

خافت الفتاة من أن يعتـريه الطابع السيىء ولو أن هذا كان أفضل نظرا لما تسـير عليه الأمور بينهـما. كانت «كـولويكو»، خادمة القسـيس تؤكد على أن «البيكاثا» فتى طبيعى ما لم يتـملكه الطابع السيىء فإن سيطر عليه فـهو أهل لارتكاب أى جـرم وقتـها أحـيانا، فى الجنازات البـاذخة كـان «البيكاثا» يخـرج صوتا معتـما وكأنه صادر من أعـماق القبور بقصـدر تخويف العـجائز، الـلاتى كنّ يعلقن على هذا بعـد الخـروج من الكنيسـة بقـولهن: «ياللمسيح، يالشيطان «البيكاثا»؛ لقد حبس اليوم أنفاسنا».

عندما ما قتل العقعق ضربا بالعصى وعندما نتف جناحى الطائر البنّى وعندما كان كان يضايق «لاديسٍ» فى الخلاء، فإن البيكاثا» كان يتصرف كذلك تحت تأثير الطابع السيىء، لكن بعد الجمود الذى وجدته عليه «لاديسٍ» منذ اليوم الأول لقدومه فإن هذا السلوك السيىء من جانبه لم يعد يقض مضجعها.

شرع «البيكاثا» فجأة فى الترنّم بأغنية «خاليسكو» وبساق فوق أخرى كان يتابع اللحن بفمه. لم تقاطعه عندما كان يتحرك «البيكاثا» كان يملأ المطبخ بنتانة تختلط فيها رائحة العرق برائحة االإصطبل والجلد المنقوع فى الشحم. كان هو الذى أقلع عن الدندنة بمبادرة منه ليقول بابتسامة مُغتَرّة:

ـ ط.. طالما ظل «البيكاثا» فى الجيش فلا مكان فى القرية للأفراح أو المآتم الباذخة.

وضع القسيس إعلانا بهذا على باب الكنيسة.. إذا لم يغن «البيكاثا» لاشىء يمكن عمله.

ربّتت على كتفه فى مودة:

ـ يا لها من أهمية، يافتى.

ـ لـ لأنى أستطيع

ـ سنرى.

انفتح فراغ من الصمت ولملئه، ضغطت الفتاة على أذنها الموجِعة عدة مرات براحة اليد.

ـ لـ.. لايزال هذا؟

ـ لم ينقطع أبدا. . عندما يأتى الشتاء تبدأ فى الطنين وكأن بها ذبابة.

ـ تـ . . تركت لك العمة «لاكايا» أثرا من عندها.

ـ وياله من أثر!

وضع الفتى ساقيه على بعضهما من جديد وهزّ قدميه.

ـ هل أُفرج عن الثعلب؟ ـ سألت.

ـ هـ . . هيا! سيكمل السنة فى الحادى والعشرين من الشهر القادم.

كـان «البيكاثا» يتـململ . لاحظت «لاديس» هذامن تغـييـره لجلستـه باستـمرار .قالت لنفسـها: «بعد يومين من الآن سـيعود «البيكاثا» سـيرته الأولى». لكنه لم ينتظر كثيرا. وقف فجأة ثم اقـترب منها وضمّها بنظرته الحارة اللافحة:

ـ سـ . . سأخرج، ينتظرنى بعض الأصدقاء ـ قال، ودون سبب جلىّ،

وضع يده اليمنى على مؤخرة الفتاة وضغط بشدة عليها:

ـ أ. . . . أتعرفين أن المدينة زادتك حلاوة؟

انسحبت ضاحكة:

ـ «بيكاثا»، لا تبدأ من جديد.

أوهنتها الرائحة النتنة التى تجـمع بين رائحة الجلد المنقوع فى الشحم ورائحة الإصطبل والعرق الآدمى. قال:

ـ غـ . . . غدا سأنتظرك عند الباب.

ـ حسنا.

كان يمشيان تجاه الباب:

ـ فـ . . في تمام الرابعة.

ـ حسنا.

أمسكت بـسقّاطة البـاب لكنه مد يده من جـديد فجـفلت إلى الخلف وهى تقهـقه. لكنه كان يتبـعها وهى تضرب يده وتقـول: «إمش، ياعديم الحياء، إلزم الهدوء».

وأخيرا، مـضى «البيكاتا»، فتنهدت «لاديسِ» بعـمق ثم أسندت خدّها على الباب مبـتسمة وظلت هكذا بلا حراك حـتى تلاشى وقع أقدام الفتى هناك تحت، في عمق فتحة السلّم.

قال العجوز عيسى وهو يجلد الهواء بعكّازه مستبدلا ابتسامته الوردية بتعويجة فم مبهمة تنمّ عن الخطورة:

- (تعرف مين اللى تعبان حبتين؟!)

نظر إليه العجوز «إلوى» بحدقتيه الكليلتين وسأل بطرف لسانه:

- من؟

- «بينتادو»، بائع الحدائد.

- لقد بلغ من الكبر عتيًّا.

- ماشى فى الخامسة والسبعين؛ لا أزيده عاما واحدا.

مرّر العجوز «إلوى» المنديل على طرف أنفه. جولاته اليومية مع عيسى يرجع تاريخها إلى ١٩٣٠. حتى هذا التاريخ، كان العجوز «إلوى» وصديقه عيسى يسألان بعضهما عند اللقاء: «تعرف مين أصبح له وريث؟». بعد ١٩٣٠ تحول السؤال إلى :«تعرف مين اللى تعبان حبتين؟». كانت المدينة تجدد تيارها البشرى دون هوادة وتَعَوّد العجوز «إلوى» أن يقول عند اقترابهما من المقابر وهو يشير بإصبع مرتجف إلى أسوار المكان:

- لدى هنا، داخل هذه الأسوار، معارف وأصدقاء أكثر بكثير مما يوجد خارجها. يحدث هذا دائما للعجائز أمثالنا.

ثم ينظف أنفه. فيقول عيسى: «أفكارك القاتمة لاتفارقك». منذ ثلاثة أشهر، كان العجوز «إلوى» يرد ردّه الخالد: «رضيت أم كرهت، فقد طالعتنى الورقة الحمراء فى دفتر الفرة. إنه لنذير».

لم تكن «لوثيتا»، زوجة العجوز، تطيق عيسى، وفى حياتها كانت تسأل زوجها باستمرار عما يراه فى هذا الرجل حتى يتحمله كل يوم.. لكنها كانت تجهل أن وراء عيسى تتواجد مدام «كاتروكس»، الفرنسية، ومدرستها الابتدائية؛ ويتواجد «بولدو بومبو» ورحلاته على الدراجة وكرات الدكتور «ساندون» للجمباز؛ وتتواجد «إيلينا» والعم «أليخو» و«لاأنتونيا» و«إمّا أبوت» و«روباتشول» وحنانه الأول؛ وتتواجد «لاروسينا»، ابنة «لافوينسانتا»، الخادمة القادمة من مرسية، و«لاباكيتا أوردونيث» وعبثها ودار الحمامات العامة و«بيبين باثكيث» وأفكاره السوداء عن الأشياء؛ وتتواجد فتيات «الفيجارو» وهيئات المحلفين المختلطة و«كونت ألميناس» وتتويج الملك؛ ويتواجد العم «إرمنس» وإشراقاته العبقرية والبنك التعاونى والآن، وبمضى الزمن، تواجدت هى نفسها «وجويتو» ، ابنه الصغير، وحياة بأكملها.

كان العجوز «إلوى» يقول أثناء توقفه باحثا عن وجه الشمس:

ـ تعرف أننى تغاضيت كليةً عن مافعلته معى أختى «إيلينا». وعندما ماتت، أقمت على روحها القدّاس طوال أيام الجنازة التسعة ونشرت نعيها بالجريدة وكأن شيئا لم يكن.

جلد عيسى الهواء بعكازه. اعتادا التجول لمدة ساعة ونصف ، وعندما تنحدر الشمس، بعد ذلك، يبحثان عن ملاذ بجوار حوائط «سان إلديفونسو» الخضراء الرمادية مثل كل العجائز المحالين على المعاش وأطفال المدينة الغير مكلفين.

كان عيسى يقول فجأة:

- إمش رويدا رويدا.

ويستأنفان السير لكى يتوقفان من جديد بعد خمسة عشر أو عشرين مترا.

إنصافا للحقيقة، فإن العجوز «إلوى» كان قد فقد دفء «لاأنتونيا» قبل حادثة انتهاك المقدسات وبالتالى قبل رحيل أخته «إيلينا» من مدبرة منزل فى «بلباو» إلى دير صديقتها «إيروينا». لو لم تكن «أنتونيا» قد أصرّت ذلك الصباح على أن يرافقها لحضور جنازة الكونتيسة أو أن تقصّ على مسامعه بعد ذلك حكاية الرجل الذى تقمص شخصية خادمة لكى يسرق بيت رجل غنى، فلربما مات دفؤه ميتة طبيعية، بعد استهلاكه . لكن «لا أنتونيا» كانت من هُواة الجنازات المحترمة واعتادت اغتنام فرصة الخروج للتسوّق لكى تلقى نظرة على جنازات الشخصيات الهامة والتلذذ هكذا بالإحساس بنعمة الحياة وبالإشفاق على هؤلاء الذين تقرحت عيونهم من كثرة البكاء فى صدارة الموكب. قالت له ذلك الصباح «ستأتى معى اليوم يا وسيم الوجه، إلى جنازة محترمة». وذهب الصبى معها. كانت القطيفة السوداء تغطى منصة التابوت الضخم ومن الجوقة تتساقط ابتهالات معتمة وقرّبت «لاأنتونيا» شفتيها السميكتين من أذنه وأخبرته: «تحت الأكفان يرقد الموتى». كن طبيعيا؛ توجد مجموعة منهم». بدأ الصبى يرتجف والتصق بها: «كم عددهم، يا «أنتونيا؟؟» سألها هامسا. «عشرة أو ثمانية على الأقل. ألا ترى ضخامة التابوت؟»، أجابت. لم يفلح الصبى فى السيطرة على أعصابه. أضاف: «لماذا هم هناك؟». أجابت: «لكى يرشهم القسيس بالماء المبارك حتى لاتجرّهم الشياطين من شعورهم إلى الجحيم».

عندما خرجـا من الكنيسة، كان الصـبى ـ الذى أصبح العجوز فـيما بعد ـ يتنفس بخشونة وكأنه ينتحب، ويرتجف من جرّاء أى ضجيج غير متوقع. ومع هذا فـقد كان من الممكن نسيان مـا تقدم لو لم تعزف «لا أنتونيا» على نفس الوتر ساعـات بعد ذلك وتحكى له قصة الرجل الذى تقمّص شـخصيـة خادمة لكى يسـرق بيت أحد الأغنياء ووضع فـوطتين على صدره واكتشف أمره لأن سيدة البيت ضبطته ذات صباح وهو يحلق ذقنه فى خـزانة الأطعمـة والفـوطتان على الـكرسى. كان الصـبى يردد فقط: «نعم، يا أنتونيا». ومن يومها بدأ ينسلخ عنها شيئا فشيئا، متأملا وهو خائف شعيرات شاربها المتهدلة وعنقها المتين وساعديها المُشعِرَين وعندما دق جس الباب ركـض هاربا واحتمى بساقيِ العم« أليـخو» بينما كان يصيح فى هسـتيرية: «لا أنتونيا» رجل مُـتَخَفٍّ يا عمى، اطردها». كانت «لا أنتونيا» تنظر إليه دَهشَـة وتقول: «ماذا جرى اليوم للصبى؟». والصبى يكرر فى إلحاح: «اطَردها، يا عمى؛ إنها رجل! إلْمسها، تضع فوطتـين هنا». لكن العم «أليخو» بالـرغم من جسامتـه لم يقرر اختـبار صدر «لا أنتونيا» للتحق ممـا إذا كانت تضع فوطتين أم لا وزادت حيرته من فزع الصبى. كـان هياجه كبـيرا لدرجة أنهم نقلوه مؤقتـا لبيت العم «إرمنس» إلى أن جرى مـا جرى بعـد عدة أيام من انتهـاك المقـدسات وذهاب أخته إلى «بلباو» لتعمل فيها مدبرة منزل، ورحيل العم «أليخو» إلى فنزويلا، أما «لا أنتـونيا» أو من يكون، فذهبت لتعمـل عند السيدة «إيميليا» حاضنة أطفال.

لكن العجوز «إلوى» عندما اعترف لصديقه عيسى بتغاضيه عما فعلته معه أخته «إيلينا» فإنه لم يكن يقصد انشغالها عنه بل مسألة المجوهرات.

العم «إرمنس» كان هو الذى أخبره ذات يوم، بحـسن نيّة، بالمجوهرات التى تركتها والدته؛ وعنـدما بلغ العجوز الثالثة والعشـرين كتب إلى أخته فى

«بلباو» فأجابته بأنها قد تبرعت بها للدير منذ عشر سنوات وأن هذا هو أفضل مصير لها، ومع هذا، فلو كان لايزال يريد الحصول على نصـيبه فإنها ستبيع ملابسها وتقتصد فى النفقات لكى تـسدد له نصيبه، لكنها لاتتصور أن أخاها مهتم بهذا الموضوع. ومن ثَمَّ فقـد رد العجوز قائلا بأنه لم يقصد ذلك وأنه راضٍ بما فـعلت وسألها عن العم «أليخـو» وهل لايزال فى «تزويلا»، لكنه لم يتلق ردا على هذا الخطاب أبدا.

كل مرة يتـوقف فيـها العـجوز «إلوى» كـان يبحث عن وجه الـشمس ويترك نفسه ليتلفلف بشعاعها مستمتعا. قال لصديقه عيسى:

ـ العم «إرمنس» كان رجـلا عظيما. كان يقـول أن أبى كان بإمكانه أن يكون شخصية هامة لكن آل «نونيت» يبددون مواهبهم دائما.

نظر إليه عيسى وابتسم وطوّح عصاه فى الهواء ثم قال:

ـ إمش رويدا رويدا.

على جانبـى الطريق كانت تنتـصب أشجار السّنط العـارية ومن خلف المرتفعات تتـراءى البساتين وأكواخ الضواحى القريبة. الشـمس، الشاحبة الّلدنة، تنشـر بالكاد ظلالا فوق الأسفلت. كـان العجوزان. الـمنحنيان، بعض الشىء، يتقدمـان بخطوات قصيرة متمهلة. كـانا يدركانا أن للشمس مواعيدها ولا مجال للمخاطرة.

عندما انتـقل من دفء «لا أنتونيا» إلى دفء العم «إرمنس»، لم ينبـهه أحد إلى الاخـتلافـات فى درجات الحرارة. فـى أمسيـات الشتـاء، بجوار الموقـد، كان العم «إرمـنس» يكون أشكالا هندسيـة معـقدة وكان الـصبى و«لاروسينـا»، ابنة «فوينسـانتا» يساعـداه بالبحث عـن قطع وعندما يعـثر أحدهما عن قطعـة مناسبة يصفقـون له مبتهجـين ويقول العم "إرمنس" : «حذار، حتى لا نهدم ما شيدناه».

أحيانا أخرى كـانوا يلبسون أقنعة وبعد أن يتحول الثلاثة إلـى شخصيات فاشـية يتبارون فى إلـقاء الأشعار وكـان العم «إرمنس» يملك صوتا جمـيلاً وعمقـيا مثل المنشدين. بعد ذلك، ومع الأحـد الأول من فصل الربيع يأتى المهرجان الكبير للبنك التعاوني. البنات والصبـية كانوا يتجمعون فى الميدان ومعهم الآباء والأمهات، ومن هناك إلى «أشـجار اللوز المزهرة» يذهبون فى قافلة مبتهجة تشدو بألحان المؤسسة:

مهلا مـهلا، يا رائد.

البنك الـتـعـــاونى.

مهلا مـهلا ، يا رائد

البنك الـتـعـــاونى.

سنغـرس الشجـيرات

كان البعض يشذ عن المجموعة أو يسبق منشدا:

ســـتـرى الطرقـــات

بالـزهور مـــغـطاة !

وعندئذ كـان «دون جريجـوريو دى لاتوخـا»، الرئيس، ينصب نفسـه مديرا للأوركسـتـرا وفى غمرة حماس كان يسدد ضـربة غير مؤثرة بالرأس لكل من يشذ من المنشدين الصغار عن المـجموعة. وعند «أشجار اللوز» يبدأ احـتفال إعـادة التشجـير وكل طفل يزرع بفأس شـجرة ويلف ساقـها النحيل بحبل علقت عليه لوحة تبين إسمه والتاريخ.

بعد ذلك يأتى دور الغـداء الريفي، وأخيرا خطبة « دون جـريجوريو دى لاتوخا»، الرئيس، والتى يشيـر فيها عاما بعد آخـر إلى ضرورة ترسيخ حب

الأشجار لدى الأطفال لأن الطفل الذى يحب الأشجـار اليوم سيصبح مواطنا نموذجيا فى الغد القريب. ومع الغروب يعودون بسيقان متعبة وحدقات محشوة بندف الضـوء، لكن «دون جريجـوريو» كان يتـرأس المجـموعة وعـند دخول المدينة، مع حلول الظلام، يتـوعدهم قائلاً : «الآن، هيـا !». وعندئذ يشرع الأطفال متكاسلين فى الغناء بأصواتهم الرقيقة الناعسة:

مهـلا مهـلا، يا رائد

النبك الـتـعـاونى.

على رأس كل شـهر وإذا استـمـر تحـسن الجو، كـان العم «إرمنس» يصطحب «لاروسينا» والصـغير «إلوى» إلى مكان «أشـجار اللوز» للاطلاع على تقدم ونمو شـجيراتها. وكان الصـغير و«لاروسينا» يحـولان المناسبة إلى مجال للتنافس ويتـشاجران بحمية. فى الأعـوام الأخيرة تورمت ساق العم «أرمنـس» بشكل مـؤلم ولـزم الفـراش شـهـورا عـديدة. كـانت «لاروسينـا»، ابنة «لافوينسـانتا»، قد شـبت عن الطوق وأصبـحت تحب البنطلونات بدلا من الأشجـار وكانت تقول لوالدها بالتبنـى كل مرة تخرج فيها إلى الشارع:

«إلى اللقاء، ياأبي، أتمـنى أن تنعم بوقتك». فيـرد عليها خـانعا العم «إرمنس»، الذى كان يعـانى وقتها من آلام حادة ومـستمرة تجـعل صلعته تتصبب عرقا أبيضا : «إلى اللقاء، يا بنتي، أرجو أن تخفف آلامك». كان الناس يتناقلون هذه المأثورات فى النادي، حـتى أن بعض المأثورات التى لم تصدر عـنه كانوا يلصقـونها به قـائلين :« هذه أشيـاء لايتفـوه بها إلا «إرمنس نونيث». عندما أوشك العم «إرمنس» على الرحيل جمعهما حول فراشه وانتظرا وصاياه الأخـيرة، لكنه اقتصر على التنبيه عليـهما بقوله: « بدلتى الرمادية فى المغلسة فلا تنسياها».

وفي تلك اللحظة انقطع التيار الكهربى وعندما عاد، كان العم «إرمنس» جثة تبتسم بصلعتها الوردية الضخمة التى أخذت فى التحول تدريجيا إلى اللون الرمادى.

أصرت «لاروسينا»، ابنة «لافوينسانتا»، على أنه هو الذى أطفاء النور عند رحيله وفى النادى تناقل الناس أن «إرمنس نونيث» لم يكف عن المزاح مع ابن أخيه وابنته بالتبنى حتى بعد موته. على أية حال، فقد رحل «إرمنس نونيث» بساقة الموجوعة وعبقريته، وبعد سنوات رحلت «لاروسينا» بسبب النفاس، هناك فى إشبيلية حيث كانت متزوجة بمساعد مهندس زراعى.

والآن يقول العجوز «إلوي» لصديق عيسى أثناء جولاتهما المسائية:

-عمى «إرمنس» كان يؤكد بأن ميولى كموظف بلدية ورثتها عن أبي. فلم يكن أبى يتهاون فى مسألة النظافة وكثيرا ماكتب إلى الصحيفة اليومية بهذا الخصوص. أذكر أن خطابا منها كان ينتهى بهذه العبارة : «ألا يوجد نظام يحدد للعمال التوقيت المناسب لإفراغ سلال القمامة التقليدية تفاديا لإيذاء إحدى الحواس الخمس لمن يتصادف مروره فى ساعات الليل الأولي؟». كان العم «إرمنس» يقول، ومعه كل الحق، إن مثل هذا الخطاب لايكتبه إلا كاتب مثل «ثرفانتس»، ومع ذلك، فإن الذى سطره هو «إلوى نونيث» والدنيا لاتعطى الشهرة دائما لمن يستحقها.

كان عيسى يرفع عكازه القابل للانثناء ويقول مبتسما:

-إمش رويدا رويدا.

ذات مساء، تنازع العجوزان بشدة وهما يستهلكان شعاع الشمس الأخير أمام حوائط «سان ألديفونسو». بدأ العجوز «إلوى» بالتأكيد على أن الجدية فى زمانهم كان لها شأن آخر وأن المشاكل الهامة كانت تحل بروية

وأنه يذكر أن مجلس البلدية ذاته اجتمع بكامل هيئته اثنا عشر اجتماعا فى ١٩٠٣ ليتخذ قرارا بسفلتة الميدان وأربعة عشر اجتماعا فى ١٩٠٤ ليقرر إنشاء الصرف الصحى. اشتكى عيسى بعد ذلك من شعوره بحزام من الألم بين المعدة والأمعاء أثناء عملية الهضم وعندئذ أوصاه العجوز «إلوى» بالتغوط مبكراً فى مكان كثيف بالحديقة لأن الطبيعة هى أفضل منظم، لكن صديقه عيسى رد هائجا بلا، فهذا، مثل غيره من أشياء يتوقف على طبيعة الشخصية وأنه يذكر، دون الذهاب بعيداً، أن «أجوادو» كان يستريح على غبار الملفات القديمة التى كان يراجعها. ومن أمور إلى أخرى لفت عيسى نظره إلى أن زمانهم لم يكن به نساء مثل نساء اليوم وأشار له، أثناء قوله هذا، إلى فتاة سمراء تعبر الميدان، لكن العجوز «إلوى» انفعل انفعالاً شديدا ليذكره بـ « لاباكيتا أوردونيث» فأسقط طاقم الأسنان من يده فاشتاط غضبا. بعد أن زال عنهما الانفعال اتضح بجلاء أنهما لايتكلمان ووقر فى خاطر كل منهما أن صداقته القديمة قد أصبحت فى ذمة التاريخ.

وبالرغم من ذلك فقد التقيا فى اليوم التالى مثل كل مساء تحت البواكي، بجوار مكتبة «أفروديسيو نينيو» ولم يتطرق أى منهما لنقاش الأمس بل تحدثا بصراحة، وبالتفصيل الممل عن مدرسة مدام «كاتروكس» الفرنسية، منذ خمسين سنة، ورحلات «بولدو پومبو» على الدراجة، وتشكيل هيئات المحلفين المختلطة، ودار الحمامات العامة، والشجار مع طلاب المدرسة الحربية وحفل تتويج الملك. قال عيسى وهو يبتسم للشمس وللحياة بأسنانه الذهبية الثلاثة:

- إمش رويدا رويدا.

أمسك العجوزان عن المسير بعد عشرين مترا. نظف العجوز «إلوى» بآلية طرف أنفه وبحث عن وجه الشمس. قال صديقه عيسى وهو يجلد الهواء بعكازه:

- (تعرف مين اللى تعبان حبتين ؟).

رفع العجوز «إلوى» جفنيه اللدنين والخانعين:

- من ؟

- «بينتادو»، بائع الحدائد.

- لقد بلغ أرزل العمر .

- ماشى فى الخامسة والسبعين ؛ لا أزيده عاما واحدا.

فى الفضاء كانت تحلق شمس واهنة مستوية، تنشر بالكاد ظلالا فوق الأسفلت.

أخفى المصور رأسه تحت القماشة السوداء وقال فى إنذار نهائى:

- التزما السكون لحظة.

أخذ «البيكاثا» موقعة، مستريحا؛ قدمه اليسرى متأخرة قليلاً، الذقن منتصبة، النظرة متحدية، اليدان مسترخيتان، فوق بعضهما فى مستوى الحوض. أما «الاديس» فكانت متخشبة، كعادتها عندما يصوب نحوها شيء، سواء كان عينا أو مسدسا.

نبه الصوت المكتوم للمصور تحت القماشة السواء:

- ابتسما، من فضلكما.

رسمت «الاديس» ابتسامة كاملة وتعاظم قلقها. لاحظ «البيكاثا» اقتراب زمرة من العساكر المستجدين فقال للمصور دون أن يغير من وضعه أو يحرك عضلة واحدة من الوجه ودون تحريك شفتيه تقريباً:

- أ. . . أسرع، ياهذا.

كشف المصور حينئذ غطاء العدسة ثم رفع رأسة المحتقن قليلاً وقال:

- أربع بيزيتات ونصف.

فتش «البيكاثا» قيعان جيوب السترة، أخرج ثلاث بيزيتات وخمس عشرة قطعة فئة العشر سنتيمات وعدها واحدة واحدة.

- إ. . . إلى اللقاء - قال.

اختفيا بداخل الحديقة التى كانت تسترخى عليها شمس شتوية، فاترة وشاحبة. كان «البيكاثا» يمشى بساقية المقوستين، مجرجرا حذاءه. كانت

«لاديسِ» تحس بالبرد وهى ملفوفة فى السترة الصوفية المنقوشة بأحمر، لكن عفتها ورضاها الحميم كانا يدثرانها.

لم تكد تمضى سوى بضعة أيام حتى عاد «الپيكاثا» سيرته الأولي، بجرأته اللاذعة ولسانه البذىء وحيويته الطاغية وصوته الجميل. رجعا إلى المصور بعد فترة، وأمضيا بعض الوقت جالسين على مقعد يضحكان ويعلقان على الصورة :

- ياله من وجه هذا الذى التقطه لى الرجل الأبلة؛ يبدو أى شيء ماعدا كونه وجها- كانت الفتاة تضرب فخذها براحتها وتضحك مقهقهة: وأنت، أماه، منظرك لايسر عدواً ولا حبيباً!

يوما الخميس والأحد كان «الپيكاثا» ينتظر الفتاة فى الرابعة أمام بوابة البيت، مستطلعا اترينة محل «إميتريو» للساعات. إذا كان الجو جميلاً طافا بطرقات الحديقة، وفى المساء، يتجولان فى الشارع الرئيسى أو يظلان جالسين بجوار بعضهما فى ظلمة الحديقة. فى الحالة الأخيرة كان «الپيكاثا» يغنى لها بصوت خفيض أغنية «الريليكاريو» أو «لماذا تتملكنى الأحزان». لكن «لاديسِ» كانت تفضل التجول لخوفها من أن تضعف مقاومتها ظلمة الحديقة وإحساسها بلفح أنفاس «الپيكاثا» وعذوبة صوته.

وعلى عكس هذا، فإن التجول يقيها هذا الخطر، بالرغم من أن «الپيكاثا»، بجرأته المعهودة، لم يكن يكف عن إرسال لمسة أو قرصة متعمدتين. كانت تضحك :

- الزم الهدوء.

فيغمز لها بعينه:

- يا .. ياحلوة !

- ياقذر ! كانت تقول بدلال، وهي تدفعه بيديها.

غالبا ماكان يشترى لها لب عبـاد الشمس وبينما يتحدثان يتفلان القشر على ظهور المارة.

كانا يتحـدثان عن القرية، أو «لامارثي»، أو العريف «أرخيـميرو»، أو عن المعسكر، أو يسـترجعان موضـوعات الأفلام. أحيانـا كان «اليپكاثا» يفـقد رشـدة أمـام أى معلم من مـعـالم المديـنة: «لـ . . . لو نقلوا هذا الميدان من مكانه هنا إلى القرية». فتوبخه «لاديس» : «هيا، إنس القرية؛ ألا يوجـد فى العالم غـيـرها؟». إلى جوار اليـپكاثا كـانت الفتـاة تحس بالحيوية والقيمة.

فى بعض الأحيان، كانت ترافقهما «لامارثى» والعريف أرخيميرو». لم يعجب «لامارثى» شكل «اليپكاثا» وأخـبرت «لاديسِ» بذلك فى أول فرصة : «أمـاه، يالهـا من رجلين؛ يمـكن أن يمـرق من بينهـمـا كلب دون أن يدري». تملك «لاديسِ» الغـضب، لكنهـا لم تجـد الشـجـاعة الكـافيـة لمواجـهتها. ردت بصـوت معتم: « كل واحـد فيه عيـوبه، يا «مارثى». تكوين « اليپكاثا» الجسمانى أصاب زمـيلاتها بخيبة أمل، وأيام الآحاد عند الخروج مـن قداس الساعـة السابعـة فى «سان پدرو» كـان على «لاديسِ» الاشتباك معهن فى جـدال حامى الوطيس. ذات يوم قالت لها «لاتاسيا»، فجأة : «ياله من نمـوذج، لو بحثنا بقنديل فلن نجد له شبيـها». اندفعت «لاديسِ» كالعـمياء نحوها، لكن «لامـارثى» حالت بينهمـا؛ وهذا لحسن الحظ لأن عينى «لاديسِ» الصغيرتين كانتا تلمعان بوميض قاتل.

غالبا ماكانت «لاديسِ» ترد بكلام غليظ وتظل هادئة : «حسد، لاشىء غير هذا، فمنذ أن مات أبوك لم يقترب منك رجل».

في بعض الأمسيات كانا يتجولان بصحبة «لامارثى» والعريف «أرخيميرو»، بالرغم من أن أشرطة العريف كانت تلقى الرعب فى قلب الفتاة. كانت ترهب سلطته، لكنها كانت تخاف أكثر من قيامه بممارستها ذات يوم يسيطر على «البيكاثا» فيه الطابع السيىء.

على خلاف هذا، كان «البيكاثا» يسمح لنفسه بالمزاح مع العريف دون اعتبار لأشرطته.

فى إحدى المرات زاد عن الحد فار تعدت «لاديسِ» فرقا من حدوث مشاجرة. ومع ذلك فإن العريف «أرخيميرو»- الذى كان طويلاً كالمارد، وإن لم تستغل الفتاة هذا ضد «لامارثي» -كان رحب الصدر. ومع «البيكاثا» لم يكن يفعل مايكدر الخاطر. رأتهما «لأديسِ» عدة مرات يتغامزان ويضحكان أمام' ـاترينة «ليوكوندى» حيث تعرض سيقان عليها جوارب حريمية وتماثيل نصفية عليها سو تيانات حريرية.

فى تلك الأحوال، كان الفتيان لايتوقفان عن الغمز واللمز والضحك من خلف ظهريهما. ومع ذلك،فإن لامارثى، التى كانت تتمنى أن يفعلها معه العريف«أرخيميرو» ذات يوم، انتهرتها فى إحدى الأمسيات :

-اسمعى، ياحلوة، يقول «أرخيميرو» أن «البيكاثا» هذا لو تجاوز الحد معه ذات يوم فسيوقفه ثابتا فى الشارع لمدة نصف ساعة.

ارتعدت فرائص «لاديسِ». ومع ذلك فلم تجرؤ على إخبار«البيكاثا». تصورته واقفا بلا حراك بين الجموع محاصرا بالسخريات، وكانت على يقين من أن «البيكاثا» لن يتحمل مثل هذه الإهانة. ودون الحاجة إلى الرجوع بالذاكرة كثيراً إلى الوراء، فإنها لازالت تذكر كيف قطع «البيكاثا» أذن «البيلاو» فى حانة العم «بوتى»

بنفس الهدوء الذى يخلع به رجل من علْيـة القوم قفازه. كـان «البيلاو» سكرانا وقـال «للپيكاثا» أنه لايمـتلك الَرجوله لفـعل ذلك فمـا كان من «الپيكاثا» إلا أن وقف على قدميه، فـتح المطواه وبضربة واحدة اجتزها له. يحدث هذا عندما يسيطر على «الپيكاثا» الطبع الشرير، حسبما تقول «لاكولويـكو»، خادمة القـسيس، لكن المـفزع فى الأمـر أن هذا الطبع يتـملك «الپيكـاثا» دون سابق إنذار، ومن ثم فـلا يمكن لأحـد التكهن بالحالة النفسية التى هو عليها الآن.

عندما ما كان صبياً، وقت أن كانوا يسمونه «مانويل»، اصطاد عقعقا من على شـاطىء النهر ورباه بعناية وأعـد له مذودا فى حـظيرة صـهره وجهـزه بكل وسائل الراحة المتـخيلة. بعد أن كـبر العقعق كـان يهبط ليأكل من فوق يده لدرجة أن الفتى علمـه الكلام والصفير. كل مرة كان الطائر يراه فيها ينادى : «أ. . . أهلا لولـو»، وكل صباح يطلق «الپيكاثا» سراحه فـيرجع مع المساء إلى الخطيـرة، ومخالبه محـملة بخرز وقطع زجاج ملونة يضعها فى المـذود بعناية. كان «الپيكاثا» ينتظره عند عودته ويقدم له قواقع وضـفادع وديدان وثمرات برية. بعد أن تنتـهى الوليمة، كـان العقـعق ينام فى المـذود على كنزه ويبـسط جناحـيه وكـأنه يريد احتضانه.

حذره صـهره، «السيسـتاس»، من الوثوق بالعقـاعق، فهى متـملقة مع الطيور الأقوى منهـا وشرسة مع الأقل قوة وضرب له مثـلاً بالعقعق الذى إقترن بزاغ(*) وقتله غيلة أثناء نومه، لكن «الپيكاثا» لم يحفل بتحذيره.

فى الربيع التالى اصطاد الغلام من على شجرة التـين بالحظيرة عشا فيه أربعة أفـراخ من الخضـير ووضـعهم فى قـفص وكانت الأم تمر عـليهم

* الزّاغ: طائر من الطيور الجارحة- المترجم.

باستمرار لتعطمهم من خلال القضبان. استيقظ «الپيكاثا» ذات صباح على زقزقة محمومة وعندما نهض وجد أمخاخ الطيور الأربعة مشكوفة للهواء وأمهم تزقزق بجزع وترفرف بجناحيها فوق القفص.

لا أحد يعلم كيف ولا فى أى لحظة تغير طبع «الپيكاثا»، الذى كان صبياً وقتها، لكنه دون أن يتفوه بكلمة خلع قضيبا من القضبان الخشبية التى تستخدم كتعريشة للكريز فى السنوات التى تكثر فيها ثماره، أغلق على نفسه الحظيرة وعندما خرج كان وجهه مليئا بالخدوش وفى يده اليمنى جثة العقعق الذى لم يكن سوى كومة من الريش الأبيض، الأخضر الأسود والأزرق. سأله صهره عما حدث، لكن الصبى ألقى بالجثة من فوق السور وتمتم باقتضاب : « أ. . . الملعون أصابته لوثة».

نفض بعد ذلك يدا بأخرى ولم يعد لفتح الموضوع ثانية:

لم تكن «لاديس» تطمئن لنوبات الغضب التى تعترى «الپيكاثا»؛ وترتعد فرائصها من التفكير فى احتمال تحوله إلى الطابع السيىء لو استغل «أرخيميرو» سلطته عليه.

كانت «لامارثى» تفزعها فى المساء : «الأوامر العسكرية ليست مزاحا يا حلوة؛ عليه أن يأخذ حذره، قولى له يأخذ حذره». لم تقل الفتاة له شيئا لخوفها من حدوث كارثة، لكنها كلما رأت أشرطة «أرخيميرو» الحمراء غلى الدم فى عروقها. من جهة أخري، فقد أعرب «الپيكاثا» عن مشاعره الطيبة نحوها عندما حضر إلى البيت ومعه خاتم من الحديد الغير قابل للصدأ مرسوم عليه حرف «p»، «D» متشابكين. كانت على وشك البكاء، لبسته فى الإصبع السبابة، تأملته بحنان وقالت بصوت غائم:

- أجننت، يا «پيكاثا». ما الداعى لهذه التكلفة ؟

- أ. . . أنت خطيبتى، أليس كذلك ؟

- (اللى تشوفه).

- (طيب خلاص).

كلفه الخاتم سبع بيزيتات وتسعون ستيما من كشك على باب المعسكر. طلب منه البائع تسع بيزيتات وأصر هو على سبع وفى النهاية اقتسما الفرق. لازم الحظ «البيكاثا» عند دخوله الجيش، فبعد أن سمعه الشاويش يغنى ألحقه بجمعية هواة الغناء ووعدة بالمشاركة فى احتفالات «سانتا باربارا» وفى عرض المسيح الذى يقدمه رجال المدفعية فى أسبوع الآلام.

- إنهم لن يجدوا أفضل منك- علقت «لاديسِ».

خلال نصف عام، ادخر «البيكاثا» فى القرية مايستطيع تبديده فى المدينة. أبهرت نفقاته «لاديسِ». إن لم يكن خاتم من حديد غير قابل للصدأ، فصورة فورية أو ست ريالات من اللب، فلم يكن «البيكاثا» يوقر البيزيتة.

أيام الاحاد كان يخرج من المعسكر فى زمرة من زملائه وإذا مرت فتاة جميلة كانوا ينهقون جميعا فى وقت واحد. ولاستهلاك الوقت، كانوا يذهبون فى أسراب متتالية مثنى وثلاث لرؤية سيقان وصدور ساترينة "ليوكوندى". كانت السيقان من الخشب لكنها حسنة التصوير مثل الصدور التى كانت تتوارى بحياء خلف السوتيانات الحريرية الشفافة. إذا كان يتجول بصحبة «لاديسِ» و «لامارثي» والعريف «أرخيميرو»، يكبح جماح نفسه، ويقتصر على وكز الأخير بكوعه والضحك المكبوت، أما إذا كان برفقة زملائه فإنه يقول، بعد تنهيدة مسرحية :

- آ. . . آى، أماه! بجوار سيدة كتلك لا أبرح مكانى طوال فترة الجيش.

فيقول «ديميتريو»، القادم من «بياكبرالس»، بنظرة غائمة:

- إنها جميلة، إيه ؟

- و . . . وياله من جمال !

كان الجنود يبقون واقفين بلا حراك أمـام الاترينة، وأصابعهم السبابة معلقة بالحزام الأسود، بجوار الأبزيم، وكأنهم نسخة مكررة. بعد ذلك يذهبون لرؤية أفيشات السينما ويستمر الدوار المقلق والمثير. بعد ساعة تتحمل الخادمات النتيجة وهن عاجزات عن مجابهة الهجوم المتحمس. غـالبا مـا يأتى الجنود ويروحـون فى مـوجـات متـلاطمـة وضجـرة، مجرجـرين أحذيتهم ويتحركـون فى كتل كبيرة لا فى وحدات صـغيرة. وفى تمـام الرابعة يبـدأ الانتـشار، حـيث لا يعدم أى مـنهم بوابة ينتظر أمامها . تعود «البيكاثا» أن يفعل هذا ناظرا إلى ساعات «إميتريو»، أمام بيت العجوز «إلوى».

قال له أخ «دون أوليبانو»، قائد وحـدته، إنه إذا أنهى فترة التدريب وكان حسن السير والسلـوك سيجعله سائق عربة نقل. وعندها سـيزيد راتبه وربما اشترى سـاعة مطلية بالذهب. ليس أمامه حـاليا سوى الانتظار. أثناء انتظاره للفتـاة، كان «البيكاثا» يعض على سواك أومـبسم من البلاستـيك. فى حالة المبسم كان عليه أن يحترس حتى لايعض شفـتيه كما فعل «الجومر»، القادم من «بالديكاسس». إذا لم يكن يمص السواك أو المبسم كان يقـزقز، معتمدا على أسنانه ولسانـه، لب عباد الشـمس. المهم ألا يركن إلى الهدوء، كـما تقول «لاديس». إذا أهديت إليه سـيجارة فليس من المستحب إشـعالها قبل الاحتفاظ بها عدة دقائق فوق أذنه.

تعلم فعل هذا من حفلات التعميـد والزفاف فى قريته ولم تنسه المدينة هذه العادة. كانت هذه الأشياء تعجب «لاديس» وتعتبرها خصوصيات تزيد من جاذبية الفتى. لم تكن ترى ساقه المقوسة، ولا عينيه المتحدتين، ولا أنفه الأفطس.

عندما كـان يمشي شارد الذهن يمصق قـشر لب عباد الشـمس، كانت تختلس النظرات إليه وتسرع ضربات قلبـها الحساس. وإذا حدث ومر فى تلك اللحظة من هو أعلى رتبـة، خاصة لو كـان جنرالا، فإن الفـتى كان يأخـذ وضع الاسـتعـداد بضـربة من كـعب حـذائه، النظرة مـعلقـة فى اللانهائى، الصدر مرتفع، الذقن منكمش واليد ثابتة على الصدغ، فتمتلئ الفتاة زهواً وفى المساء تقول لصديقتها منتشية :

«مـارثي، لـم تشـاهديه وهو يؤدى التـحيـة، لـم تشـاهديه وهو يؤدى التحية، يبدو مثل صورة فى ميداليـة». كانت «لامارثى» تريح عليها عينيها الشبـيهتين بعـينى سمك المرجـان : «ما عليك أن تقوليـه له هو أن يأخذ حذره. لو زاد عن حده مع «الأرخيميرو» سيفعلها معه فى الشارع».

خلال الأسـبوع كـان يزورها مرتين فى البـيت منتهـزا فرصـة خروج العجوز للتجوال. كـانت تجد رأسها شبه فارغة عندما ترى نفـسها وحيدة معـه فى البيت الصـامت. مقاومـتهـا، فى تلك الأحوال، كـانت غريزية بحتة. كانت تقـبل امتداد يد «البيكاثا» فى حدود المعـقول، فهو من أجل هذا خطيبهـا، لكن بين الانتقال من هذا إلى شيء آخـر يوجد فرق. ومن ثم فإنها كانت تفضل القضاء على تجاوزات الفتى فى مهدها:

- الزم الهدوء، يا «بيكاثا».

أو بصورة أكثر حسما:

- إذا لم تسحب هذه اليد سألطمك على وجهك !

ذات مسـاء كان عليها أن تبـوح بسرها لكى تكبح جمـاحه بالرغم من عدم إجادتها للقراءة :

- «بيكاثا»، أنا أعرف القراءة.

قرب مقعده من مقعد الفتاة التى بسطت الصحيفة المتسخة فوق الفرن:

- لـ . . . لنرى - قال .

ظل فم الفتاة مغلقا لعدة ثوان وأخيراً نطقت :

- تقـ - ليد - فرا - نكو . . .

أمسكت عن القراءة فجأة لتنظر إلى الفتى باستياء مفتعل ودون أن ترفع إصبعها عن السطر أزاحته بكتفها :

- الزم الهدوء، يا «پيكاثا» - نظرت إلى الصحيفة وتابعت -: و- سام . . .

نظرت إليه الفتاة من جديد غاضبة:

- الا تريد أن تلزم الهدوء مرة واحدة ؟

ابتسم «اليپكاثا» بينما كان يغمز بعينه. تابعت فى إصرار :

- و - سام - إسـ - تحـ قاق - من - الإكـ - وا - دور .

عندما انتهت نهضت واثبة:

- إن لم تلزم الهدوء سألطمك على وجهك !

حاولت أن تبـدو غاضبة لكنهـا شرعت، فجأة، فى ضحـكات حمراء وفى التثنى والضرب على فخذها براحة يدها، بينما كان «اليپكاثا» يدعوها إلى الجلوس بجواره من جديد وهي، بين ضحكة وأخري، ترفض بإيماءة من رأسها.

عندما ذهب عنها الضحك، روت له كيف تعلمت التمييز بين «P»، «Q» وسـألته عـمـا إذا كـان قد تنبـه مـرة إلى أن الـ «I» فى (Picaza) تنزوى كالجبانة تحت كرش P الكبير. لكن «اليپكاثا» كان فى واد آخر. قال:

-بـ . . . بمناسـبـة الكروش، أتعـرفـين أن «الكاراپلانا» صنع واحـدا لخطيبـته «لاپرودن» الخريف الماضى؟ بـ . . . يقـول أنه سيتزوجـها بعد الانتهاء من الخدمة العسكرية، لكن هذا لم أره يتحقق حتى يومنا هذا.

-١٥-

فى الأيام الأخيـرة لاحظ العـجـوز «إلوى» بريقـا جـديدا فى عـينى «لاديسِ» الحـزينتين. لم يكن يعنى هـذا أن الفتاة أصـبحت جـذابة أو أن وجههـاَ ينم عن أقل القليل من الذكاء، لكن شخصـيتها غـدت تنضح فجأة بشبه حيوية مـتدفقة. خلال فترة الصباح، بينمـا ينزوى العجوز بجوار الفرن كانت الفـتاة تترنم مبتـهجة وتبتـسم من داخلها وتبدو مسـرورة وفى كل مرة توجه إليه الكلام لتسأله عن زوجته وعن تفصيلات علاقتهما فى الماضى :

- سيدى، لن تقل لى أن «لوثيتا» اسم حقيقي.

- لا، يا بنتى، كان إسمها «مـاريا لوث» وكنا نقول لها «لوثيتا». أنت أيضاً، على ما أعتقد، ليس إسمك «ديسي» مجردا.

كانت الفتاة ترقبه مندهشة :

- مرة أخرى !ألم تقل أنك تعرف كل شيء ؟

- بالطبع، يابنتى. هذا مجرد تصغير ينم عن الود.

شرعت «لاديسِ» فى الضحك:

- تصـ . . . ماذا قلت ؟

- تصغير، يابنتي.

- أو تقدر على ذلك !

كانت تضرب على فخذها براحة يدها وتطلق ضحكة:

- لاتكف أبدا عن المزاح.

بعد أن ينهمكا فى الحديث كانت الفتاة تسأل عن متى وكيف عرف زوجته، وماذا قال لها أول مرة، وعما إذا كانا قد تزوجا فى المدينة وعن عدد المدعووين الذين حضروا حفل الزفاف. كان العجوز «إلوي» يسلم القياد. طوال حياته ظل يسلم القياد، لكن «لوثيتا»، امرأته، كان يغضبها فى المرقص تخلفه عن حركة البداية: «الرقص معك مثل الرقص مع عصا»، كانت تقول له. فيحاول عندئذ تقويم حركاته، كانت تنهره:

«بالله عليك، لاتستفزنى لأن خطواتى تختل». فيسترخى «إلوي» «لكن، يارجل ألا تقول لك الموسيقى شيئا»، كانت تضيف. وعندئذ يعود إلى تنكب دور القائد، لكن «لوثيتا» كانت توبخه من جديد: «إذا لم تسترخ سيغمى علي. حالك هذا كفيل بقطع أنفاس أى إنسان، إيه؟».

فى العادة كانت «لوثيتا»، زوجته، تشع دفئا خشنا، لكنه مريح. لم يكن يشبه فى قليل أو، كثير البخار الحار، الحيوانى بعض الشىءلأنتونيا، ولا الدفء النباتى المريح للعم «إرمنس». مع «لوثيتا»، لم تفض طبيعته السلسة إلى نتائج طيبة أبدا. خلال فترة الخطوبة، كانت تتركه يقرر وحده كى تجعله بعد ذلك مسئولاً عن الفشل .

فى يوم سبت ذهبا إلى «رويالتي» لسماع «لارويسنيورا»؛ لكن «لوثيتا» أظهرت تبرمها وقالت أن «لارويسنيورا» تنفع لتحميس كتيبة فرسان وليس لها ماتفعله مع أصحاب الأذواق الرفيعة، فهى ممثلة تقول بجسدها أكثر مما تقوله بفمها. بعد أن تزوجا، استمرت «لوثيتا» على وفائها لهذا الطابع وإذا أشار هو بالذهاب للتمشية، أصرت هى على العودة متعللة بأنه لم يختر إلا أكثر الأمسيات برودة؛ وإذا أشار بالذهاب إلى المسرح فإنها تبطل قراره متعللة بأن المسرحية فى منتهى السخافة؛ وإذا أشار عليها بزيارة آل «كوبوس»، فإنها بمجرد أن ترى نفسها فى الشارع تذكره بأن عيسى ليس

قدِّيسه الذى يتجه إليه بالصلوات وبالنسبـة لأخته «لوبى» فهى تافهة وفارغة مَثل كومة من القش؛ وإذا حاول، ذات يوم، أن يشـير دهشتها بلفت نظرها إلى عـربات النظافة الجـديدة أو مكانس الخلنج، كـانت تشـتاط غـضبـا وتقول: «اترك القمامة فى حالها، يا «إلوي»، وإلا سيصيبنى الجنون».

على أيه حـال، فقد كـانت «لوثيتـا» من معدن خـاص تلح فى طلب المزيد من الحيـاة وعندما كان زوجها يخيب رجاءها، كـانت تفرض عليه عقوبات صارمة فينفذها مطيـعا لأنه يضع أمر الحفاظ على الدفء الأسرى فى المـقام الأول. من جـهة أخـري، لم تكن «لوثيتـا»، امراته، تسـمح لنفسهـا بالظهور أمام الناس إلا وهى فى كامل رونقـها الصحى، ومن هنا فإنها كانت لاتفارق السرير أربعة أيام على الأقل كل شهر .

ويحدث نفس الشيء لو وجعها ضـرس أو حملت. فى الحالة الأخيرة كان الوحـيد الذى يقتحم خلوتهـا خلال التسعـة أشهر وفتـرة النفاس هو العجوز «إلوي»، وإن كان يفعل هذا والشيش موارب. عادة ما كانت تقول له: «عدنى بأن تضع خـمارا على وجهى بعد موتـى حتى لايرانى أحد». فيقول :« حاضر». وتلح «لوثيتا» :«احلف لى على هذا». فيرد : «أحلف لك». تظل مـتشككة : «لكن احلف لى بشىء عـزيز عليك». فيـسأل : «مثـل ماذا؟». فتـمهـد له الطريق : «بروح والديك، بالإنجـيل أو بشىء مقدس». فيطـيع، ولا يكاد يمضى أسبوع على هذا حتى تواجهـه «لوثيتا» ثانية بحماسة مماثلة ويعود ليطيعها.

كانت «لاديسِ» تسأله فى شوق :

- ووضعت على وجهها الخمار، يا سيدى ؟

- فعلت ما وعدتها به.

– أماه، هذا يحتاج لشجاعـة. أتعرف ماطلبه هناك فى قريتى رجل من جاره؟

– ماذا، يا بنتى؟

– طلب منه تمزيق شرايين معصميه قبل تكفينه حتى لايدفن حيا.

– يا للهول !

– وفعلها بقلب جامد، ولما علم العمدة أراد أن يزج به إلى السجن.

كانت غريبـة تلك الثقة التى تجمع بين العجوز و «لاديس». كـثير من ذكرياته التى احتفظ بها خلال سبعين عاما، يبوح بها الآن، أمام تلك الفتاة البدائيـة الخشنة، دون أية مـجهـود وبلا أية ضغوط. كـانت الفتـاة تبدى نهمها:

– وماذا كنت تقول لها ؟ ماذا كنت تقول لها، يا سيدى، أثناء الخطوبة؟

– كنت أعيد على سمعها، يا بنتى، كل هذه الأشياء التى قيلت دائما، لكنها كانت فريدة من نوعها. كـانت تقول : إلوى، قولك لامرأة «حياتى أنا» يختلف عن قولك لها «أنت حياتى».

كانت الفتاة تنظر إليه مقطبة الجـبين. نادرا ما كانت تفهم كلام سيدها وتشى عيناها بالمجهود الذى يبـذله عقلها. لكن العجوز "إلوى" لـم يكن يكلف نفسه عـناء توضيح النقاط المبهـمة. أيضاً لـم يصارحـها مطلقا بأن "لوثيتـا"، امرأته، ماتت بسـبب طمث مفاجئ ومـتأخر جدا، فى الثـانية والستين من العمر. لو أخبرها بهـذا لكان بإمكانه أن يفتخر به وقتذاك مع عيسى: «أمر بديهى. لم تستطع تحـمل هذا فى تلك السن المتأخرة. فلم يكن القلب ولا الشرايين مستعدان لذلك». كان يقول للفتاة:

– المهم، يا بنتى، هو تكوين أسرة.

فتفيض عينا "لاديس" الصغيرتين الرماديتين بالبريق:

- أليس هذا بحق؟ حسنا، لامارثى تفضل العُنُوسة على الزواج بالقرية.

- "لامارثى"؟

- صديقتى، التى تخدم بالطابق الثالث.

- آه، حسنا.

بجوار الفتاة، كان العجوز يحس بالطمأنينة والهدوء. لم يكن الانتظار يشغله ولم تكن تتملكه الرغبة فى الحصول من الحياة على شئ. الآن، يقرأ للفتاة كل صباح إعلان بيع الكاميرا «كونتاكس». بدا له أن الجريدة بذلك الإعلان القليل الأهمية، المكتوب بحروف صغيرة مستديرة، تحتوى على رسالة شخصية له وأن المدينة بكاملها ستلتقطها.

- أنظرى، يا بنتى -كان يقول-: «أبيع كونتاكس ٣X٥. كالجديدة موديل ما قبل الحرب. المخابرة مع إدارة الجريدة». يأتى فى مقدمة إعلانات اليوم.

أو على أكثر تقدير:

- فى الجزء العلوى يُرى أفضل. ألا تعتقدين ذلك، يا بنتى؟

عاود الذهاب صبيحة بعض الأيام إلى محل نظرات "باتشيكو"، لكن الأخير كان مشغولا جداً. كان يقول له طوال الوقت: «معذرة، دون إلوى». فيرد: «أعذرك معك، يا بنى». وفى انتظار عودته، كان يتسلى بالفُرجة على العدسات والمناظير فى الاترينة أو ينظر إلى الإعلانات الزّاهية: «عدسات القرنية: فريدة، بسيطة، معبرة، نظيفة، ملائمة، منتقاة. معلومات مستفيضة؛ جَرِّب دون أى التزام». «زيس الجديدة تحتوى على مقياس». «بوصلات، مُجَسِّمَات، عدادات للمسافة ومقاييس للحرارة».

أحيانـا، كان "باتشيكو" يتأخـر فى العودة أكثر من سـاعة، وفى هذه الحالة، كان العجوز "إلوى" يأخـذ راحته على الكرسى المجدول، يسند ظهره على عمود المرايا ويغطّ فـى النوم. فى المحل كانت درجة الحرارة مناسبة. ذات يوم، انزلق العـجوز "إلوى" وسقط على الأرض بالكرسى. حدث بعض الهرج والـمرج، لكن عندما سأل "باتشيكـو" عن حاله بعد السَّقْطة، قـرأ العجوز فى عدسـات نظارته النظيفة أنه لم يعد يطـيقه. من قبل، ناشده العجوز إحياء نشاط جمـعية التصوير، لدرجة أنه تطوّع بالقيام بالترتيبـات التفصيلية، لكن "باتشـيكو" رد قائلاً: «لا يوجد وقت. ليس لدى أحد اليـوم وقت ليضيعـه فى التفاهات». فى عين العـجوز "إلوى" ارتسم الخذلان وعندئذ أضاف "باتشيكو": «فيما عداك، بالطبع». قال له العـجوز "إلوى": «هل تعـرف أن الورقة الـحمـراء طلعت لى فى دفتـر البِفْرة. إنه لنذير».

بعد سـقطته المدوية، كـان "باتشيكو" يستقـبل العجوز فى المـخزن ويتركه هـناك، بجوار الغَلاّية، حتى سـاعة الانصراف. اعتـاد العجوز أن يقـول له: «أشـتاق للحـديث مع حـضـرتك يومـا بطوله». فيـرد عليـه "باتشـيكو": «فى وقت آخر، دون إلوى، فـأنا اليـوم مشـغول». بهـذه الطريقة أصبح العـجوز يرجئْ زياراته للمحل إلى أن انتهى بمـقطاعته. فى آخر زيارة للمـحل سأل "باتشيكو" عـما يمكن أن يطلبه مـمن سيشـترى "الكونتاكس" فقـال له: «هذه الكاميرات لا سعر لها. ببـساطة تساوى ما يدفعونه لك فيها».

عندها قرر عدم العودة إلى محل "باتشيكو"، قال العجوز للفتاة:

- إلى أين يريدون الذهاب مسرعين هكذا؟

- من هو الذى يسرع، يا سيدى؟

- الجميع، يا بنتى؛ يبدو وكأنهم يخشون عدم الوصول.

ظل ساكنا، ذراعاه معقوفان فوق المعدة، مفكرا فى حاله. لاحظت "لاديس" النقطة التى بدأت تتشكل فى طرف أنفه وقالت بإيماءة معبرة: «سيدى، المنديل». تنظف. بعد أن انتهى عاد لسكونه، وذراعاه فوق المعدة. كل مرة يظل فيها العجوز على هذه الحال، كانت الفتاة تتذكر "الأبولينار"، ابن عم "الأوتروبيو"، صهرها، الذى فقد عقله لأن القرية كانت تطبق على أنفاسه ولم يجد فى المدينة ما يناسبه. لكن "لاديس" فى تلك الآونة، لم تكن تهوى المماحكات وتنطلق دائماً صوب ما تريد:

- صحيح، يا سيدى، أن الطفل يغير مجرى حياة الأم؟

وعندئذ يحكى لها العجوز عن "ليونثيتو" و"جويتو"، الصغير، الذى رحل فى الثانية والعشرين دون انتظار فى الردهة.. كان "ليونثيتو" يكبر أخاه بست سنوات، وعندما وُلد الأخير حاول الكبير خنقه برباط حذاء. كان "ليونثيتو" الأول على فصله، واعتاد العجوز أن يقول لزوجته وأصدقائه: «هذا الفتى سيصبح أعظم شأنا منى». الآن، عندما يصل لهذه النقطة، يقف وقفة معتمدة ويقول للفتاة:

- وكما ترين، يا بنتى، فهو الآن مسجل عقود فى مدريد ولايزال فى الثانية والأربعين.

- ياه! -كانت تقول بإعجاب مبهم، بقصد تشجيع العجوز على الإستمرار.

ويحكى لها العجوز أن "ليونثيتو" لكى يصل إلى وظيفته تلك فى الثانية والأربعين، فإنه قد تخلّى عن التبغ والقهوة وحذف التحلية من قائمة الطعام فى المساء. ويضيف:

- كان الفتى معتلّ الصحة ولكى نقويه قررت أنا وأمه شراء لحم خنزير مجفف له. وفى كل مرة يقترب فيها أخوه من اللحم كان يجنّ جنونه.

كان العجوز يتنحنح بافـتعال ويمد يده فوق الصفيـحة الساخنة. وبعد وقفة قصيرة، يضيف:

- "جويتو"، الصغير، كان معجونا بماء عفاريت. لا توجد شيطنة لم تخطر له على بال. لم يستطع العجوز أن يجـعل "جويتو" يكمل تعليمه. فى المدرسـة كان يحـتل المركز الثـامن والثلاثين فيـسأله العـجوز: «كم عددكم، يا بـنى؟». «أربعون»، كان يرد فـى شئ من العجرفـة. لكنه لا يلبث أن يضيف: «هذا الأسـبوع تغيّب اثـنان بسبب المرض». فى الثـانية عشرة سرق "جويتو" عشرة بيـزيتات من محفظة العجوز. انزعج العجوز "إلوى" كثير لدرجة انه أرسل فى طلـب "أوريستس"، صهره الذى يعمل فى البوليس، وانتـهر "أوريستس" الصبى ووضع فى يده السلاسل وعلى ظهره لافته مكتوب عليها: "انا لص" فى المساء وجدوا "جويتو" يتباهى فى الشارع أمام الاصـدقاء بفعلته بينمـا لا يزال مقيد اليديـن واللافتة على ظهره.

كانت "لوثيتـا" تقول عن "جويتو" انه مـخلوق لا يطاق وتسبب هذا فى تألم العجوز يومها، لكنه الآن على بعد السنين، كان يبتسم متاثرا عند تذكره. على أية حال، فان "لوثيتا"، زوجـته، كانت تجبره- سواء كانت تلد لصا او سمســار عقود-على تغطية وجهها بـخمار أثناء الولادة وبعدها تنزل به العقاب القاسى لأنها كانت تقول أنه هو الذى يرتكب الجرم وليس من العـدل ان تتحـمل هى التكفيـر عنه، فلم يكن هذا الحـدث الأسرى يمدها لا ببرودة او دفء وكان هو، على مايـبدو، الوحيد الذى يخرج منه بمنفعـة ما. ومـهما كـانت الظروف، فإن "لوثيتـا" نادرا ما كـانت تظهر للعيان وإن لم يكن هذا لأجل صحتها، فمن أجل ملابسها الرَّثة أو حذائها وإذا صاح فى الشارع: «پومبو، أهلا يا رجل»، فإنهـا كانت تستحثه: «لا تقف، يا إلوى، الحذاء ممـزق». وإذا تعقدت الأمور ووجد نفـسه مضطر

للوقوف، فإنها كانت تعقد له مـجلس تأديب بمجرد وصولها إلى البيت. اتضح، أخيـراً، أن "لوثيتا"، بالرغم من هجـعان غرائزها، كـانت امرأة كاملة الأنوثة حتى الثانية والستين وإذا كانت قد ماتت فى هذه السن فذلك يرجع ببساطة إلى افتقار قلبها وشرايينها للمرونة اللازمة لتحمل الطمث.

قالت "لاديسِ":

- لابد أن "جويتو" كان فى منتهى الشقاوة.

مرر العجوز المنديل على طرف أنفه. ضربت الفتاة أذنها براحتها:

- دعك من هذا، يا بنتى، ستزيدين الطين بلّة.

- لا تفعل شيئاً سوى الطنين؛ لا حياة فيها.

- دعيها وشأنها.

- ما أسهل الكلام!

عقف العجوز ذراعيه فوق المعدة. قال بعد وقْفة:

- فى كل الأحوال، كـان أبنائى أسعد منى حظا: فقـد كان لهم أب. أما أنا فعندما وُلدت كان جثمان أبى مسجّى أمامى؛ وكما يقال فإننى حتى لا أعرفه.

نظرت إليه الفتاة وقد علتها الدهشة:

- أو تقدر على مثل هذا الكلام!

- كمـا ذكرت لك من قـبل، يا بنتى، فقـد حدث لى نفس مـا جرى للملك. عندما ولد الملك كان عليـهم أن يدثروه بملابس سوداء. هذا هو حال الدنيا. رجل يملك كل شئ، ومع ذلك ليس له أب.

اشتاطت الفتاة غضبا:

- لا تبدأ -قالت.

رفع حدقتيه المتآكلتين، الغير قادرتين تقريبا على تصوير استغرابه. قال في نغمة تشى بالامتعاض:

- بأى مناسبـة لا أبدأ؟ أنا لا أكذب، يا بنتى. ما أقـوله لك حق مثل ضوء النهار.

-١٦-

بعـد ثمانـية أيام من كـتـابة التـاريخ، أنهت "لاديس" الخطاب لأخـتهـا "لاسليينا". كان أول خطاب تكتبه فى حياتها وبما أنها كانت لاتزال تجهل كل تُرّهات الأبجدية والقواعـد فقد قررت تدوين الكلمات حسب نطقـها وبحروف كبيـرة وهو ما تفهم فيه. الآن، عند مـراجعتها للخطاب، تعـانى من اختناقات جائرة، لم تكن تعلم إن كان ذلك بسبب التأثر من رؤية أحـاسيسها مدونة لأول مرة أو لأنها قصيرة النَّفس كما كانت تدّعى "لاكايا"، زوجة أبيها.

كان الخطاب يقول:

أختى أكتب لك هذه الكلمات لأقول لك أننا بخير والحمد لله. أختى وصلنى السـجّق والدجـاج. أختى اشـتريت لنفـسى سـترة من الصـوف المـشغـول وعندما قـابلت البيكاثا علـمت منه أن "الكاراپلانا" ذهب إلى المغـرب. أختى لقـد سمنت وأصبح وزنى ٥٣كـيلو جرام. أخـتى عندما تكتبى إلىّ ابعـثى بعنوان "لاألفونسينا" فى "مادير". أخـتى قولى لى إذا كانت تمطر عندكم أو أن الجو بارد. أختى أبعث بتحياتى إلى الأهل وإلى العمة "لاكـايا" وقولى لها أن ما فات قد مـضى وانتهى. أختى إذا أردت شيئاً سأحضره لك.

ديسِ ساخوسيه

ملحوظة

أخـتى وصلنى السـجق والدجـاج وفـرحت بذلك. أخـتى أرسلى لى بعنوان "لاألفونسينا" فى "مادير".

ديسِ ساخوسيه

عاودت قراءته وأحست برعشة محيرة. لم تكن تصدق أنها تمكنت من ملء هذه الورقة لوحدها وأن تلك الورقة بمجرد إدخالها المظروف ولصق طابع بثمانين سنتيما عليه ستحمل أفكارها لأختها دون الحاجة إلى وسيط. ظنت أن ما حدث معجزة وأن "لامارثى" يمكن أن تذهب إلى الجحيم وأنها لكى تدبر شئونها فى هذا العالم لم تعد تحتاج إلى مساعدين.

منذ عشرة أيام مضت تشاجرت مع "لامارثى" واحتدت لأول مرة وأسمعتها عدة حقائق. كانت "لامارثى" قد استغلت موقفها الحرج علما بأنها حذّرتها سابقا من الخوض فيما حدث ليلة رأس السنة مع العجوز لأن البيكاثا يمكن أن يتجه تفكيره لشئ لم يقع. لكن الرياح تأتى بما لا تشتهى السفن. إذا كان "البيكاثا" يرفع التكليف بينه وبين "الأرخيميرو" فإن الأمر فى نهاية المطاف لا يعنيهن من قريب أو بعيد. "الأرخيميرو" يتمتع بسلطة وإذا كان لم يقرر استخدامها مع "البيكاثا" فلديه دوافعه. من جهة أخرى فإن السلطة لا تخوّل لصاحبها إهانة الآخرين و"الأرخيميرو" لم يدفعه أحد ليقول للبيكاثا ذلك، فإذا كان "البيكاثا" قصيرا، فإنه فى المقابل طويل كالمارد. لكن "الأخيميرو" كان يرى الشّعرة فى عين الآخر ولا يحس بالعظمة بين جفنيه وذات مساء قال للبيكاثا دون مقدمات:

- اسمع يا فتى، أنت ضئيل الحجم وقصير.

تغيّر وجه "البيكاثا" وتقلصت أصابع يديه وخافت "لاديسِ" أن ينقلب مزاجه، لكن "البيكاثا"، لحسن الطالع، اكتفى بقوله:

- د... دعك من المزاح؛ قصير وكل شئ لكن لو دعا داع لبذل النفس فإنى مستعد لبذلها ضد أى إنسان.

في المســاء، صعدت "لاديسِ" عنـد "لامارثى" وهى على استـعداد للتحدث معها بوضوح، لكن النظرة الكليلة لصـديقتها، وإحساسها بالعلوّ أَوْهَنَا من عزيمتها. قالت لها "لامارثى" محتدة:

- "البيكاثا" هذا لا يفعل سوى توريط نفسه. لا تشعر الواحدة بالأمان معه أبدا. لا يفعل سوى توريط نفسه.

انطفأت "لاديسِ" ومثل كل مرة تحس فيها بعدم القدرة على المقاومة ظهر خط أفقى فى المـساحة الضيقـة التى تفصل بين الشعر والحـاجبين. ومع ذلك استطاعت أن تقول:

- لا أدعى أن الحق ليس معك، لكن "الأرخيمـيرو" ما كان يجب أن يقول ما قاله. اقتربت "لامارثى" منها والشرر يتطاير من عينيها. بدت فى هياجها وكأنها تتميز غيظاً:

- (شوفى) يا حـلوة، إفهمى (بقـه). "الأرخيـميرو" أعلى مـنه رتبة ويجتهـد كثيراً فى ضبط نفـسه حتى لا يأمر "البيكاثا" بالوقـوف ثابتا مثل الصنم طوال المدة التى تستغـرقها التمشية. فعـلا، إنك لتعكرين صفْو أية واحدة بترهاتك. "البيكاثا" لا يفـعل سوى توريط نفسه وذات يوم إذا لم يأخذ حـذره يكون قد سعى إلى حتـفه بظلفه. إذا كان لا يسـتطيع تحمل المزاح، فبـأى حق يوجهه للآخرين؟ طأطأت "لاديسِ" رأسـها. تمادت الأخرى. وكزتها فى ذراعها وكررت:

- إيه، يا حلوة؟ بأى حق يوجهه للآخرين؟

لحسن الحظ لم يكن من طبـع "البيكاثا" حمل الضغـينة ويوم الأحد التالى التـقى أربعتهم وكأن شـيئاً لم يكن. ومع ذلك، فـإن "لامارثى"، عندما أخذوا طريقـهم إلى البيت، سألت "البيكاثا"، بدون مناسبـة، عما إذاكانت "لاديسِ" قد حكت له عن الســهرة التى أمضتهـا مع العجوز ليلة

رأس السنة وعن الضجيج الذى أحـدثاه ليلتها لدرجة أن الجيـران صعدوا إليهـما حتى لا يـأتى أعلى الدار سافلها. كـان وقْع الصدمـة شديداً على "لاديسِ" فظلت فاقـدة للنطق عدة ثوانٍ، غلى الدم فى رأسهـا وارتجفت شفتاها. تمتمت أخيراً:

- لا تصدقها، يا "بيكاثا"؛ إنها تخرج.

زَمَّ "البيكاثا" شـفتيه وسمـعت "لاديسِ" طقطقة تصدر من فـمه مثل طقطقة حبة الفول السوداني. أخـذته رعدة ظهرت جليًا عندما قال دون أن ينظر إليهـا: «مـ... مع السلامة» ثم اسـتدار ومضى لحال سـبيله. نادى عليه "الأرخـيميـرو": «انتظر!» وذهب معـه وعندئذ صاحت "لاديسِ"، التى كانت متوهجـة مثل شقائق النعمان، فى "لامارثى" عند عـتبة البيت أن ما فعلتـه ليس بالتصرف اللائق وما الذى سـتجنيه من وراء ذلك، لكن "لامارثى" كانت تنظر إليها فى هدوء بعينيهـا المائعتين وقالت لها: «هيا، يا حلوة، ألا تضـخمين المـسائل قليـلاً؛ ما فعلت هـذا إلا لصالحك». بالرغم من هبوط احتداد "لاديسِ" قليـلا إلا أنها أصرّت على أن مثل هذا لا يحدث بين الصديقات وعندئذ قـالت "لامارثى" وهل كان ما يفعله فى القرية مع "لاماتيلدى" شئ يسر الخاطر وأن من الأفضل إذكاء روح الغيرة قليـلا عند الرجـال. لكن "لاديسِ"، الذى كان صـرير صـعود السـلالم المتآكلة يـطفئ من ثورتها شيئاً فـشيئاً، قـالت أن "البيكاثا" ليس من هذا النوع الذى يحتاج لغـيرة، غير أن "لامارثى" صرحت بأن جـميع الرجال يحتـاجون للغيرة لأنـهم جميعـاً سواء فقالـت لها "لاديسِ"، التى بللت الدموع مآقيها، وإذا لم يرجع، فما العمل؟

لكن "البيكاثا" صعد مساء اليوم التالى:

- هـ... هل صحيح ما روته "لامارثى"؟ - سأل.

انطفأت:

- على حسب- قالت وهى على وشك البكاء.

وفجأة توارى كل شئ:

- أ... أتعرفين ما أريد أن أقول؟

- ماذا؟

- أ....أن "مارثى" هذه ليست أكثر من قوّالة.

اتجه نحوها بنظرة عكرة، مُجَوِّفًا فتحتى أنفه وفجأة، تأزمت الأمور:

- دعنى، يا "پيكاثا"، أنت تؤلمنى!

- ا...الآخرون لا يؤلمونك، أليس كذلك؟

تراكمت الدموع فى عينى الفتاة:

- لا يوجد آخرون، لكى تعرف.

-و... والعجوز؟

شرعت "لاديسِ" فى البكاء:

- إذا كنت ستصدق كل ما يقال فاذهب ولا تعد!

كانت تنتحب بحرقة فتركها "الپيكاثا" وظل واقفا، إبهاماه فى الحزام، على جانبى الإبزيم، ينظر للفتاة وهى تجلس على الكرسى. ظنت "لاديس" أن الطابع السيئ يسيطر على "الپيكاثا" فصاحت من جديد من خلال نحيبها:

- إذهب ولا تعد؛ ألم تسمعنى؟

أمضت الفتاة ثلاثة أيام عصيبة، متوسلة إلى عذراء "لاجيّا"، التى لا تكاد ترى صورتها من خلال الدموع، أن تعيد لها "الپيكاثا". فى ذلك الوقت بالتحديد، قررت الاستقلال بمراسلاتها عن وصاية "لامارثى". كان همّها كبيراً لدرجة أن سيدها لاحظه: «هل ألمّ بك مكروه، يا بنتى؟»، سألها ذات صباح. أجابت فى انزواء: «لى أنا؟ ولأى سبب!». لكن "الپيكاثا" كان ينتظرها مساء الخميس وهو ينظر إلى ساعات "إميتريو"، والسواك بين أسنانه، أحست بدوران الأرض تحتها. فكرت فى عدم الخروج، لكنها ارتدت السترة الصوفية المنقوشة وعطّرت أعلى صدرها بماء الورد ونزلت.

عند رؤية الپيكاثا تظاهرت بالدهشة:

- آه، إنه أنت؟

- و. . . ومن سيكون غيرى؟

- لا أحد.

أمضيا أمسية لطيفة، بين قزقزة اللب والتجول فى الممشى الرئيسى للحديقة متشابكى الأصابع. لم يتحدث "الپيكاثا" عن العجوز ولم تشر هى من قريب أو بعيد إلى النقاش الأخير. بعد يومين، سألها الفتى عما إذا كان سيدها هو الذى كان يصعد السلّم أثناء نزوله اليوم السابق فأطرقت موافقة:

-و. . . ولماذا يصعد السلّم هكذا؟ يبدو مثل كلب.

- كما ترى، نوع من الهوس.

- لا. . . لا أدرى لماذا أعتقد أن سيدك هذا به مسّ من جنون.

تنحنحت الفتاة:

- ظنك ليس فى محله؛ إنه فى كامل قواه العقلية.

كان "البيكاثا" يحمل فى يده كيسا أبيضاً وسألته "لاديسِ" عما فيه فأجاب بأنها ملابس متسخة وأن "ديمتريو" أعطاه عنوان مغسلة.

خطفت منه الكيس:

- (ده اللى كان ناقص)، وما فائدتى هنا -كانت تنظر إليه متأثرة- بعد غد ستكون الملابس جاهزة.

خرجا معا يوم الأحد. كان الجو شتويا لكنه ساكن وشفاف وتجولا بالحديقة مدة طويلة. لأول مرة، اعترف لها أن ابن عم "دون أوليبانو"، قائد وحدته، سيسلم له عربة نقل يوم تخرجه وبين هذا وما يخرج من عمل إضافى سيجد ما يكفيه. تصورت الفتاة أنه سيحدثها عن المستقبل لكن الفتى اقتصر قائلا بأنه سيتمكن عندئذ من شراء ساعة مطلية بالذهب من بين ما يعرضه "إميتريو" فى الاترينة. بعد ذلك، عندما حل المساء، تبادلا المزاح وقالت له "لاديس" أنه يمشى مثل عسكرى مستجد فسألها كيف تميز بين مشية العسكرى المستجد ومشية السادة فأجابت بأن العساكر المستجدين يمشون الطريق مرتين، مثل الكلاب، وأنهم يجرجرون نعال أحذيتهم.

- أفعل هذا لأن الحذاء كبير علىّ- قال.

مضى كل شئ على ما يرام حتى الثلاثاء التالى والذى قام فيه "البيكاثا"، عندما كانت الفتاة تطوف به الشقة لتطلعه عليها، وبدون أية إيماءة تكشف عن نواياه، بدفعها فوق سرير العجوز الواسع وارتمى عليها، وعيناه تبرقان كأن بهما حمى، وزعانف أنفه ترتعش. تم كل شئ بغتة، فقد وجدته "لاديسِ" ينسحب فوقها مثل وحش ضار، مشحونا بالعتَه والشراهة، فأحست بلفح الرجولة وعندئذ ركلته بكل قواها، أنشبت

فيه أظافرهـا وعضّت وجهه وسبّته بـصوت عال. فى تلك اللحظة لم يكن هو "اليكاثا" الذى تعرفـه ولـم يكن من الصعبً عليها صد الهـجوم لأنها شعرت بغـثيان قاتم عندما لفحـها لهاثه الخانق والمكتوم. تدحـرجا فوق السرير، وأخيراً، نهض "اليكاثا" مهزوما.

أسـدلت التنّورة دون أن تجـرؤ على رفع رأسـهـا. لو سُألت الـفتـاة لأقسمت بأنها رأت فى تلك اللحظات الرهيبة خلايا مخ اليكاثا من خلال فتـحتى أنفـه، تماما مـثلما كـانت تدعى "لاكولويكو" ، خـادمة القس. أحست فى أعمـاقها بشعـور جديد، مزيج من الكبرياء، النفـور والحيرة. عندما رفعت عـينيها، لاحظت أن اليكاثا ينزف من جـبهته وخدّيـه. تملكتها رغبـة عارمة فى البكاء، أن تظل تبـكى حياة بطولهـا حتى تُفرغ مـا بداخلها. سمـعت نفسـها تقول أخـيراً، بصـوت أجش، كأنه صادر من ثـنـايا الحوائط القريبة.

- لو كنت تأتى لهذا الغرض، فاذهب إلى غير رجعة.

كان يوقف النزيف بكمّ المعطف. قال:

- تـ . . . تظنين نفسك آنسة محترمة.

- أنا بنت شريفة، ضع هذا حَلَقَة فى أذنك.

- كـ . . . كلكن سواء، أليس كذلك؟

شرعت فى البكاء:

- لو اعتقدت أن الجميع مثل "لاماتيلدى" فأنت واهم. لست من هؤلاء.

تناول "اليكاثا" القـبعة من على الأرض. . بدا متحـيراً. قال بفظاظة وهو مطبق العينين:

-و . . . ومعه لا تقولين لا، عجوز لكنه من السادة، أليس كذلك؟

اتجهت نحوه يعميها الغضب ودفعته أمامها فى الطرقة بكلتا يديها. لم يكف "الپيكاثا" عن سبّها وهو يلتفت قليلاً نحوها:

- تـ. . . تأتون إلى المدينة وكلكن سواء. وبعد أن تصلن إليها تتحولن إلى ساقطات. وعلى الفقراء الانتظار حتى يمل الأغنياء. . .

فتحت له الباب. كانت أسارير وجهها متغيرة. شيّعته بالصياح وهو يهبط السلّم:

- يمكن أن أرجع إلى القرية وهامتى مرفوعة، ضع هذا حلقة فى أذنك! ضع هذا حلقة فى أذنك يا "پيكاثا"! ضع هذا حلقة فى أذنك. . . !

صفقت الباب بعنف وأحست بالدموع تكتم أنفاسها. ظلت تبكى فوق سريرها البائس حتى المساء. نادى عليها العجوز لكى تأخذ الدرس فتعللت بالمرض.

أضاءت نور الغرفة بعد ذلك وأسَرّت لعذراء "لاجيّا" بأنها على الرغم من كل ما حدث تتمنى عودة "الپيكاثا" لأن ما وقع فى المساء كان مس من الشيطان وأنه سينسى كل شئ بمجرد زوال الطابع السيئ عنه.

تكوّرت بعد ذلك فى السرير دون أن تخلع ملابسها وبدأت تصلى قائله: «مع الله أنام، مع الله أستيقظ، مع عذراء "لاجيا" والروح القدس»، بكثير من التقوى والورع.

كانت تعد على أصابعها المرات التى تكرر فيها هذا حتى وصلت إلى ٦٣٧ مرة، ودن أن تعرف كيف ولا لماذا، استغرقت فى نوم عميق.

في النصف الثاني من فبراير بدأ العجوز "إلوي" يلاحظ زيادة عدد مرات التبوّل المصحوب بحرقان عارض وقال لنفسه: «إنها البروستاتا». عند الوصول إلى سن معينة، فمن المعروف أن «تنتهي الحياة أو تظهرالبروستاتا»، بمعنى أن الحظ لازال يحالفه. اشتكى لعيسى: «أشعر بحرقان عند التبول»، لكن عيسى رد عليه قائلاً: «سيصل كلانا إلى المائة، فلا تشغل بالك». كان يبتسم للشمس وللحياة بأسنانه الذهبية الثلاثة ويقول له مطوّحا عكازه في الهواء: «إمش رويدا رويدا». لكن العجوز كان يمشي متوجسا، مباعدا بين رجليه، خشية تهييج آلامه الوليدة.

في ظروف أخرى كان يمكنه الذهاب إلى الطبيب، لكنه الآن على قناعة تامة بأن موارده لا تسمح له بهذا الترف. لقد باع مؤخراً الكاميرا «كونتاكس» بأربعمائة بيزيتة وسدّ بالمبلغ بعض الثقوب؛ ولا يحتمل الظرف الراهن البدء مرة أخرى. منطويا على همّه، لم يلاحظ العجوز اكتئاب الفتاة. مضت الأصبحة في صمت، كل منهما في عالمه، دون نشاط ماعدا حركة "لاديسِ" في المطبخ. كانت الفتاة مستمرة في ابتهالاتها لعذراء "لاجيّا" بعودة "البيكاثا"، لكنها كلما التقت بلامارثي تفاقم يأسها. قالت لها "لامارثي" ذات مساء: «رأيته اليوم في الشارع الرئيسي بصحبة "ديمتريو"، القادم من "بياكبرالس" ومعهما فتاتان. إحداهما تسمى "لايايا"، ألا تعرفيها؟ القصيرة التي أهدوها ساعة نظير مرافقتها لطفل لمدة أسبوع. كانت "لامارثي" تحدق فيها بعينيها الماسختين. «لا أتذكرها»، ردت "لاديسِ". أضافت "لامارثي": «تلك التي يملأ النّمش وجهها، تلك الصغيرة التي لا تستقر في بيت، إنها من "جاليثيا"، والتي تقول أن جدتها كانت تعمل حارسة مزلقان سكة حديد

فى "بيّـاكريدو". «لا أتذكـرها»، أكدت "لاديسِ"، بالرغم من أنهـا لم تكلف نفـسهـا عناء تذكرها. فـقد كـان بالنسبـة لها سـواء هذه أو تلك. أحست بكُرَة صـغيرة تسـد قناة تنفسهـا وسألت فى تثاقل وكـأن الأمر لا يعنيها: «حدثينى، يا "مارثى"، كانت الفتاتان تمشيان معا أم أن كل واحد ةمنهـما كانت تـمشى مع واحد؟». «كـانت كل واحدة منـهما تمـشى مع واحد»، أجابت "لامارثى" دون تردد، فانسـحبت "لاديسِ" بسرعة لكى تبكى على هواها، بمفردها فى غرفة النوم.

ذات صباح، بدا وكأن العجوز "إلوى" قد خرج من هاويته وسأل الفتاة:

- هل ألمّ بك مكروه، يا بنتى؟

أجابت باقتضاب:

- لى أنا؟ وما السبب!

ألحّ العجوز:

- يخيّل إلىّ أن عينيك متورمتان، يا بنتى.

حاولت الابتسام فلم تظفر إلا بتعويجة فم مبهمة:

- ربما كان هذا من قلّة النوم- قالت.

خلال الأمسيات، لم يكن عيسى يسـمعه، وفى المقابل، كان يريد أن يحيطه علمـا بما أَلَمَّ به من تغيـرات. فقد كـان عيسى يشكو مـؤخراً من الدّوار وسأله العجوز عما إذا كانت بطنه تعمل بدقة فاعترف له عيسى بأنها عادية ومن هنا أوصاه العجوز بالمرور بالحديقة العامة صباحا، لأن الطبيعة هى أفضل مُنَظِّم. فيـرفض عيسى، ويحتج بأن هذا، مـثل كل الأشياء، يتوقف على طبـيعة الشخـصية وأن "أجوادو"، دون الذهاب بعـيدا، كان يتـعرض للتـيار وهو يراجع الملفـات القديمـة وكان يقـول أن ذلك راجع للغبار، لكن أحدا لا يمكنه معرفة السبب.

في المساء التالي، لم يحضر عيسى إلى البواكي كعادته، بجوار مكتبه "أفروديسيونينيو" والعجوز "إلوي" بعد انتظاره نصف ساعة دون جدوى، قرر الذهاب إلى بيته. وجد أخته الصغيرة "أوريا" تبكي بصوت خافت في المدخل. كلما سألها ردت عليه:

- آي، إلوي، يا للمصيبة التي حلّت بنا!

وتعضّ على منديل صغير شُغلت حوافه بالدانتيلا. لم توفق في إيضاح الأمر له؛ وسرعان ما خرجت "لوبي"، الكبيرة التي كانت تجري وراء "بولدو بومبو" حسبما كان يُشاع في النادي، وقالت له أن عيسى أصيب باحتقان وأن حالته سيئة للغاية. وجد العجوز "إلوي" صديقه متكوّرا منْهك الوجه، وقد شقّ فمه عن ابتسامة مخيفة. اقترب منه على أطراف أصابعه وجلس على المشّاية، بجوار الوسادة، وناداه في أذنه ثلاث مرات، رافعا صوته كل مرة أشدّ من سابقتها:

- عيسى، إنه أنا، إلوي، هل تسمعني؟

كان عيسى يشخّر بصوت عميق ومنتظم؛ و"لوبي" تنظر إليه، منتصبة عند رجلي السرير، طويلة وجافة، وذراعاها معقوفان فوق صدرها. مرّر العجوز "إلوي" المنديل على طرف أنفه وكرر النداء ثلاث مرات أخرى:

- عيسى، عيسى! ألا تسمعني؟ إنه أنا، إلوي!

أحس بعجزه وكأنه يناديه من كوكب آخر، وأحس، في نفس الوقت، بضياع هائل وكأنه طفل يرى أمه تضيع منه في غابة كثيفة. فجأة، رفع عيسى ذراعه الأيمن وبحركة خرقاء أشار على نفسه بعلامة الصليب. قال العجوز وهو ينظر إلى "لوبي" مندهشاً:

- إنه يشير بعلامة الصليب على نفسه.

- نعم -ردت "لوبى" ببرود- إنه الشئ الوحيد الذى يفعله.

حينئذ سألها العجوز عن تشخيص الطبيب فأجابت بأنه لو عاش سيظل كسيحا، مشلولا، أبلها أو أخرسا وأن الموت أفضل من البقاء على قيد الحياة فى أى حالة من الحالات المذكورة، لكن العجوز "إلوى" ردّ بلا، فالمهم هو بقاء عيسى حيّا وأنه شخصياً سيخرجه فى عربة صغيرة للتشمس إذا لم يستطع الاعتماد على نفسه وسيحدثه بطريقة ما لو ظل أخرسا، لكن الموت لا تنفع معه حيلة ولا تشفع فيه وسيلة. ظل بعد هذا منتظراً إجابة "لوبى" متشوقا، وكأن حياة صديقه تتوقف عليها، لكن "لوبى" لم تنبس ببِنْت شفة. جلس العجوز "إلوى" على المشّاية وبقى فى موضعه حتى أطبق الظلام على الشرفة. وفى كل مرة يصلّب فيها صديقه على نفسه، كان العجوز "إلوى" ينظر إليه بإلحاح، محاولا اقتحام العالم المبهم الذى يجوبه عيسى الآن ويقول لنفسه: «إنه يرى شيئاً، ولذلك لا يسمعنى». وضع بعد ذلك قماشة بين الوسادة ووجنته فأمسك صديقه عن الشخير ثم أخبر "لوبى" بأنه سيذهب ليحيط الفتاة علما وسيعود لتمضية المساء معهم.

عندما عرض الأمر على "لاديس" امتقع لونها وتخيّلت "لاأدريانا"، جامعة الصمغ، وموسى الذى احترق وجهه فى فرن الهِندَباء، وأخبرته أنها تفضل الذهاب معه وسألته عما حدث للسيد عيسى. فشرح لها حالته.

قالت الفتاة أثناء نزولها السلّم:

- المربّع هو مستقر العجائز، كما هو معروف.

- المربع؟

ابتسمت:

- الحفرة التى تُعَدّ للدفن، لكى أوضح الأمر.

أوضحت في الحال استعدادها لتقديم العون فى كل ما يلزم، لكن على العجوز ألا يضع فى اعتباره مسألة دخولها على السيد عيسى لأنها لا تستطيع النظر إلى الأموات ولا إلى ذوى الأمراض الخطيرة وخاصة أولئك الذين تنبعث منهم رائحة.

- تنبعث منهم رائحة؟

- هيا. لا تدعى الجهل. المريض المتأخر تنبعث منه رائحة الموت.

فى المدخل، أبلغته "لويى" أن الطبيب قال إذا زادت عليه الحمى فلا أمل. كان المكان ينضح برائحة العقاقير الطبية ورمق العجوز إلوى "لاديسِ" بعينيه خلسة فأومأت الفتاة برأسها ثم جلس إلى جوار صديقه منتظرا وصول الراهبة. فى الحقيقة، لم يكن الموت كظاهرة يفزع العجوز "إلوى"، وإن كانت صرامته ولوازمه الحدادية تُشعل منه الرأس شيبا. وعلى خلاف هذا، كانت تفزعه سكْرة عيسى هذه، أن تكون له رجل هنا والثانية فى العالم الآخر دون أن ينحاز كلية إلى مكان أو إلى آخر. وكان يفزعه، على وجه الخصوص، إصراره على الإشارة إلى نفسه بعلامة الصليب وكأنه يود طرد شئ ما أو الحصول على رضا أحد بعينه. منذ سنوات عدة، كان صديقه عيسى قد تَنَصّل من كل اهتمام دينى ونفس الشئ جرى للعجوز "إلوىَ" باستثناء قدّاس الأحد. تَصَرّف صديقه، فى سكرته، زلزل كيانه الداخلى. حاول، من جديد، النداء عليه، دون جدوى. كان العجوز "إلوى" يقول لنفسه: «إنه يرى شيئاً لكنه لا يسمعنى. ما يراه عيسى الآن ينتسب للعالم الآخر». صعد كرْب غادر لأعلى حنجرته، وكان عليه أن يتنحنح حتى لا يختنق. قبل أن تصل الراهبة بعدة دقائق، وضع له الترمومتر. خرج من الحجرة متحمسا:

- سبع وثلاثون درجة ونصف؛ ليست حمى. من دفء السرير يمكن أن تزيد الحرارة بضعة أعشار. أليس كذلك، يا "لوبى"؟

كانت "لوبى" تضع إصبعا تحت عنقها وكأنها تريد أن تخفف من حدة لهاثها. لم يفلح ثلاثتهم فى تخفيف فزع "أوريا" التى كانت تصر على رؤيتها للموت متخفيا وأنهم لو دققوا النظر لرأوا طرف المنجل الكبير فوق الستائر. أعطوها مهدئا وأدخلوها السرير. فى كل مرة كانت تسمع فيها "لاديس" ما تقوله "أوريا" عن الموت والمنجل الكبير، كانت تنظر إليها فزعة وتقول: «هيا، يا آنسة، دعك من هذا الموشح».

أمضى العجوز المساء بين الصالة وغرفة المريض. ظلت "لوبى" معه وفى الخلوة الودّية التى أشاعها الهزيع الأخير من الليل ومكان الجلوس والعاطفة المشتركة نحو عيسي اعترف لها العجوز "إلوى" بأن الورقة الحمراء طلعت له في دفتر البفرة. لكن "لوبى" لم تفهمه وصرحت له بهذا فأراد أن يشرح لها بأن هذا مثل النذير وأن الحياة، فى حقيقتها، ليست سوى صالة انتظار، لكنها أصرت على عدم فهمها له فاختتم العجوز كلامه قائلا فى ارتباك أن الأمر ليس على قدر كبير من الأهمية وأنه مجرد مثَل. تحدثا بعد ذلك عن أيامهم الخوالى وقال لها العجوز "إلوى" أن الأربعة "پومبو"، "باثكيث"، "عيسى" "وهو"، عندما كانوا يجتمعون كان "پولدوپوميو" يبهجه التساؤل عن الأطول عمرا بينهم. كان هذا حماقة منه لأن "لوبى" فحصته بعمق وكأنها تقول له أنه الوحيد الباقى منهم لكن نظرتها كانت شديدة الوطأة فبدت وكأنها تتهمه بشئ ما. ولإزالة التوتر، حكى لها العجوز "إلوى" كيف أن "پيبين باثكيث"، فى أوقات اكتئابه، كان يتغوط فى البحيرة بقصد قتل الأسماك الملونة. ردت عليه بأنها لم تكن تعرف للغائط مثل هذه الخواص، ودون مناسبة، قال أن "پومبو" كان متفتحا للغاية ورياضيا عظيما. عندما تحدث عن "پومبو"

شاعت الحيوية فى وجهها العبوس والضامر لدرجة أنه رسم ابتسامة عابرة عندما ذكر اليوم الذى أهدى لها فيه "پولدو" ببغاء فى عام ١٩٠٥. تحدثا بعد ذلك عن الشِّجار مع تلاميذ المدرسة الحربية، و"لاباكيتا أوردونيث"، واحتفالات تتويج الملك، والسيدة "پورا كاتروكس"، والبنك التعاونى، وعندما بدأ يرتفع على جراج "إسماعيل أبريل" ضوء لبنىّ قالت "لويى"، فى عودة لأرض الواقع، لقد حانت ساعة الاطمئنان على المريض، فنهض العجوز "إلوى" وعاد بعد فترة قصيرة ليقول أن سبعا وثلاثين درجة ونصف ليست حمى وأن النصف درجة الزيادة نتيجة سخونة السرير. بعد ذلك ذهب العجوز "إلوى" إلى بيته لينعم ببعض الراحة. عندما عاد لبيت صديقه عيسى كان المساء يمسك بتلاليب النهار وفى المدخل وجد "أوريا"، الصغيرة، وقد بدا عليها الهدوء فقال لها العجوز "إلوى"، بوجه يكسوه الأسى، أن الحياة مثل صالة انتظار والكل قابع فيها، وبين الحين والحين ينادى مناد: «التالى» وبهذه الطريقة يتجدد العالم شيئاً فشيئاً، لأن البعض يدخل بينما يخرج آخرون، لكن طال الزمن أم قصر فإن الدّور سيأتى على الجميع. كانت هذه حماقة أخرى منه لأن عينى "أوريا"، الصغيرة، أخذتا فى الخروج من محجريهما والتحوّل إلى البياض كلما تابع الكلام، وأخيراً، رفعت يديها إلى أذنيها وشرعت فى الصياح والتوسل إليه بعدم الخوض فى تلك المسائل المرعبة لأن هذا يعنى أن الدّور عليها الآن، لأنها الكبيرة، ولن تنتظر خانعة حتى ينادى عليها المنادى: «التالية» وعندئذ ظهرت "لويى"، الكبيرة، وسألت عما حدث فأخبرها العجوز "إلوى" بأن مرض عيسى قد أثّر فى أختها وأن الأفضل لها أن تنام.

ظل عيسى بلا حراك، يتنفس بمشقة من فمه الموارب وعندما نادى عليه العجوز بصوت مترع بالشوق لم يحفل به، وعلى خلاف هذا، فقد

كان يُصَلِّب على نفسه باستمرار، وعندما ينتهي كان يترك ذراعه يسقط خاملا فوق ملابسه.

أمضى العجوز "إلوى" المساء إلى جوار "لوبى" وحدثها عن "ليونثيتو" وأنه كان يقول لزوجته منذ صغره: «هذا الصبى سيكون أعلى منى منزلة»، ثم يضيف بعد ذلك: «وكما ترين، يا "لوبى"، فهو الآن مسجل عقود فى مدريد ولم يتجاوز الثانية والأربعين». عند الفجر وضع الترمومتر لعيسى وخرج ليقول أن ثمان وثلاثين درجة ليست بالشئ الذى يثير الفزع وأن البنسلين يعمل المعجزات هذه الأيام.

فى صبيحة اليوم التالى ذهب لينام فى بيته. نام بعمق، وعندما استيقظ أحس بصوت فى المطبخ فخرج متدثرا بالرّوب ووجد "لاديس" تتحدث مع عسكرى مستجد وقف على قدميه بمجرد دخوله فقالت "لاديسِ"، منطفأة، بعد عدّة ثوان من الحيرة:

- هذا، سيدى، وهذا، صديق.

قال العجوز "إلوى":

- اجلس، اجلس، يا بنى.

وعندما جلس الجندى على الكرسي المستدير، أضافت "لاديسِ" مبتهجة:

- إنه من قريتى.

حدث كل شئ دون سابق إنذار. عندما سمعت الفتاة النداء على الباب لم تتوقع أن يكون "البيكاثا" هو الطارق، لكنه قال عندما فتحت الباب، وكأن شيئاً لم يكن: «مـ . . . . ماذا تقول الجاهلة الأكثر جهالة من كل الجاهلات؟». وعندئذ، صاحت متأثرة: «بيكاثا!»، وظلت لحظة تتأمله. لم تستطع الفتاة التغلب على ذهولها. قالت أخيراً: «هيا، ادخل، لا تظل واقفا هكذا مثل الصنم». دخل وسلّمها الكيس بالملابس المتسخة.

فى اليوم الخامس، فتح عيسى عينيـن غائرتين، دهشتين وخاليتين من الحياة.

عندما وصـل العجوز "إلوى" أخـبرته "لوپى" بهـذا وعندئذ جلس العجوز على المشاية وظل يناديه بإسمه مرة بعد أخرى لمدة ربع ساعة. لكن عـيـسى لم يرد، كـان يرفع ذراعـه فـقط، بين الحـين والحـين، للتـصليب. توفى الخامـسة صـباحا. أمـضى العجـوز "إلوى" الأربع والعشرين سـاعة التالية وكـأنه إنسان آلى. كان يعرف جـميع الخطوات التى يجب اتباعـها وأتمَّهـا بكل دقة؛ مؤسـسة تكفيـن الموتى ودفنهم، السجل المـدنى، الجريدة والكنيـسة. كـان يحس وكأن سحـابة بداخل رأسـه وبدا له أنه يعيش حلمـا مـرعبـا. عندما حـضر صـبيـان "فلورا مارتين" بالتابوت ساعد "لوپى" فى تكفـين صديقه، ودقائق بعد ذلك، اقتاد "دون رود ريجـو پالومينو"، طبيب المركز الصـحى، لرؤية الجثة وتوقيع شهادة الوفاة. طلبت منه "لوپى" بعد ذلك مباشرة أن تحلق ذقن أخـيـهـا قبـل تغطيـة وجـهه بالـمنديل. نادى العـجـوز "إلوى" على "مـامس"، الذى يحلق له ولعـيسى منذ عـشريـن عامـا، ولما انتـهى "مـامس" طلب ٣٥ بيـزيتـة. تشـاجـرت "لوپى" مع الحـلاق ووقف العجوز فى صفّـها قائلا للحلاق أنه كان يقبض فى حلاقـته حيّا أقل من ٥ بيزيتات فـرد عليه "المامس" حيـنئذ بأن الأمر لا يحتمـل المقارنة. فسأله العجوز:

- لكن، يا بنى، هل يزيد الميت على الحىّ شيئاً؟

أمّا "لوپى" فلم تكن تفعل سوى تكرار:

- وهو مـيت تفعل به مـا تريد، إذا جـرحتـه لا يحتج، فلمـاذا يدفع الميت ما يدفعه سبعة أحياء؟

لكن "المامس" أصرّ على أن الأمر لا يحتمل المقارنة، وأن "دون أبيليو"، مُعَلِّمه، كان يقول أن الحاجة الشديدة هي التي تضطر صاحبها للحلاقة لميت وأنه إذا كان قد فعل ذلك فإنما فعله اعتباراً لما مضى. وأخيراً، أعطته "لوبى" ٣٠ بيزيتة فأخذها وهبط السلّم وهو يدمدم. كانت "أويا"، الصغيرة، شديدة الفزع وتردد فقط، بينما تعضّ المنديل المشغول بالدانتيلا: «آى، يا إلهى، آى، يا إلهى....». من حين لآخر كان العجوز "إلوى" يذهب إلى الجثمان ويحدثه بصوت خافت. عندما حلّ الليل ذهب إلى بيته ومعه "لاديس". أثناء الطريق، كانت الفتاة تكلّمه مستخدمة الكثير من الإيماءات، ولما لاحظت سلبية العجوز المطلقة، قالت له:

- هيا، إنه ليس من بقية أهلك حتى تفعل بنفسك كل هذا!

نظر إليها برهة بعينين داميتين، يكسوهما الكرب. بدا وكأنه يستعد للكلام، لكنه لم يقل شيئاً. استمر في السير كإنسان آلى مُطْرِق الرأس. كان من الصعب عليه إفهام الفتاة أنه لم يكن مجرد صديق، بل مصدرا للدفء، وأنه لم يكن مجرد رجل هذا الذى يرقد فى التابوت، بل مدام "كاتروكس" الفرنسية ومدرستها الإبتدائية، و"پولدو پومبو" ورحلاته على الدراجة وكرات الدكتور "ساندون" للجمباز، وأخته "إيلينا"، "لاأنتونيا"، والعم "أليخو" وذراعاه القصيران؛ و"لاروسينا" والعمم "إرمنس" والبنك التعاونى؛ و"پيپين پاثكيث" و"لاپاكيتا أوردونيث" ودار الحمامات العامة؛ و"لوثيتا" و"جويتو"، ابنه الصغير، وحياة بأكملها. كان فى منتهى التعقيد محاولة التوضيح للفتاة بأن الإنسان يحتاج لدفء داخلى وآخر خارجى وأن الأمور كانت على ما يرام عندما اخترعت النار، لأن الناس كانوا يتحلقون حولها فتشيع بينهم المودة الصادرة من ألسنة اللهب ذاتها، لكن بعد أن جاء التقدم وجَمَّع الدفء

فى مواسـير، تناثر عقْـد المودة، فمن العـبث الاستفـادة بنار تخلو من دخان. كان كل شئَ فى غاية التعقـيد لدرجة أنه نفسه لم يكن يعلم إلى أين سـينتهى لو بدأ فى الكلام. لذلك فـضّل الصمـت والاستمـرار فى المشى وعندما وضعت الفتاة أمامه، فى البيت، كوب اللبن وقالت له لا تأخذ الأمـور مأخذ الجدّ لأنه لن يُقَـدِّم بذلك شيئـاً ولن يؤخر، رفض بإصرار من رأسه:

- دعك من هذا، يا بنتى، فليست لى شهية.

-١٨-

كان العجوز "إلوى" يعرف أن الإنسان حيوان قصير العمر مهما طالت به الحياة. لقد أجرى وهو فتى بعض العمليات الحسابية وعرف أن متوسط عمر الإنســان العادى يصل إلى: ٢٥٠٠٠ يوم، أى أكثـر قليلاً من نصف مليون ســاعة. الآن، يحـسب العجوز "إلوى" الأيام التى يـعيشـها رجل يموت فى الخامـسة والسبعين وعـرف أن الرقم يصل إلى حوالى ٢٧٣٧٥ يومـــا، أى ٦٥٧٠٠٠ ســاعــة، أو ٣٩٤٢٠٠٠٠ دقـيــقــة، أو ٢٣٦٥٢٠٠٠٠٠ ثانيـة. لكن إذا أُخذ فى الاعـتـبار أن الإنســان ينام فى المتوسط ثمان ساعات يوميـاً، وهى فترة الموت الأصغر، يتضح أن الذى يموت فى الخـامسة والسـبعيـن يكون قد عاش فـقط ١٨٢٥٠ يوما، أى ٤٣٨٠٠٠ ساعــة، أو ٢٦٢٨٠٠٠٠ دقيقة، ١٥٧٦٨٠٠٠٠٠٠ ثانيــة. أما إذا خُصمت الأيام والســاعات والدقائق والثوانى التى يقضيــها الإنسان فى غفلة الطفولة الأولى، فإن الحياة الواعية لرجل يعيش خمسة وسبعين عاماً تتضاءل إلى ١٥٦٩٥ يوما، أى ٣٧٦٦٨٠ ساعة، أو ٣٣٦٠٠٨٠٠ دقيقة، أو ١٣٥٦٠٤٨٠٠٠٠ ثانية. وبالتوقف عند حالتـه الخاصة، توصل العجوز "إلوى" إلى أنه لو عـاش حتى الخـامســة والسبـعين، يكون قـد بقى له ١٢٢٠ يومــا، أى ٢٩٢٨٠ ســاعــة، أو ١٧٥٦٨٠٠ دقـيــقــة، أو ١٠٥٤٠٨٠٠٠ ثانيـة. وهو شئ ليس بالكثيـر فى أحسن الأحـوال. رأته الفتاة وهو يعض طرف القلم ويدوّن الأرقام فى رباطة جأش. سألته:

- ماذا تفعل، إن كان هذا يمكن معرفته؟

- عمليات حسابية، يا بنتى.

- هل الحساب صعب، يا سيدى؟

- بالرغم من أن الأرقام يمكن أن تكون واحدة، إلا أن بعض العمليات الحسابية أكثر تعقيداً من البعض الآخر؛ يا لها من أشياء!

جعّدت "لاديسِ" جبهتها تجعيدة واحدة، عميقة وأفقية. اختزلت، بعدها، ابتسامة خشنة:

- أر . . . ماذا قلت؟

- أرقام، يا "ديسِ".

حركت الفتاة رأسها حركة خائرة:

- لازالت هناك أشياء لم أتعلمها بعد.

لم يجب العجوز "إلوى". حاولت الفتاة إثارة حماسه، دون جدوى. أمضى ساعتين مُحَدِّقًا من النافذة فى البيت المقابل. بعد ذلك، وفى الثانية عشرة والنصف إنهمك فى العمليات الحسابية ولم يستطع منها فكاكا. من حين لآخر كان يُخْرِج المنديل من جيب دثاره الذابل ويمرره على طرف أنفه.

فى اليوم السابق حضر مراسم دفن صديقه عيسى وشاهدت الفتاة ومعها "البيكاثا" العرض الجنائزى وهمايقفان داخل إحدى البوّابات. قالت للعجوز فى المساء:

- ظننت أن السيد عيسى يمتلك ثروة.

سلّط عليهاالعجوز عينين غائرتين:

- لماذا تعتقدين هذا، يا بنتى؟

كشفت عن أسنانها الصفراء الغير متناسقة وقالت:

- كانت لديه ثلاث قطع ذهبية هنا.

نظرت إلى العجوز، وبما أنه لم يجب، فقد أضافت قائلة بأن التابوت كان رخيصاً وعليه إكليل واحد وأن العربة كان يجرها فقط جوادان هزيلان، لكن سيدها ظل أخرسا، وكأنها لا تتحدث إليه. حينئذ سألته الفتاة عما إذا كانوا قد خلعوا منه الأسنان الذهبية قبل دفنه لأن ثلاثة أسنان ذهبية تعتبر ثرورة فى عالم اليوم، لكنها إزاء تعبير الفزع الذى ارتسم على وجه العجوز قررت غَلْق فمها. أَعَدَّت له بعدها كوب اللبن فقال سيدها.

- دعك من هذا، يا بنتى، ليست لى شهيّة.

قالت له عندئذ:

- تعالى على نفسك واشرب. ستظهر عظامك من الهزال.

لكنه لم يأت بأى حركة. حينئذ هاجت "لاديسِ":

- إذا كنت تفعل هذا من أجل صديق، فماذا تركت لفرد من عائلتك؟

رفع العجوز عينيه وفحصها بنظرة شاردة. قال: «إنها الليلة الأولى له»، وعندئذ لاحظت فى حدقتيه ذلك الشرود الذى كان يلازم "الأبولينار"، ابن عم "الأوتروبيو"، زوج أختها، فقالت:

- كُلْ، كُلْ، لا تستسلم للأحزان؛ مافيش عندنا بكره شئ نبكى عليه.

تصدّر العجوز "إلوى" مراسم دفن صديقه ومعه "فيلينوكريسپو"، صاحب الوكالة الإدارية. ابتاع العجز يومها إكليلا بسيطا، بشريط أسود مُدَوَّنة عليه حروف مذهبة تقول: «من صديقك إلوى». بعد ذلك وعلى باب الكنيسة غالبه النّعاس وفى دقائق قليلة بقى وحيداً مع "فيلينو كريسپو"، الذى أخبره بأنه استأجر تاكسيًا والعجوز، دون تفكير، دلف

إلى جـواره فى العربة. كـانت العـربة الكارّو السوداء، وعـلى جانبـيهـا الملائكة المذهبة، تتقدمها مُصْدِرة دويًا وأفرغ أحد الجوادين، عند المرور بمبنى المحكمـة، ما فى جوفه بحرية تامة وترك فـوق الأسفلت عقْدا من الروث.

كان للمسـاء لون رمادى مـراوغ وبعد أن صلى القسـيس صلاته الغـير مفهومة أمـام المُصَلِّى الصغير، أخبر "فيلينو كريـسبو" العجوز بأنه ينوى العودة سريعاً لأن هناك من ينتظره وسأله إذا كـانت لديه وسيلة ليعود بها، لكن العجوز "إلوى" طلب منه ألايشغل نفسه لأنه سيتصرف ساعتها. فى المقابر الصامتة أحس بمرور الهواء بين الأفرع الداكنة لأشجار السّرو. كان أحد الرجال يدفع العربة الكارّو وفوقها التابوت بين صرير إحدى العجلات الخلفية. حمل التابوت، بعد ذلك، أربعة رجال وأنزلوه قاع الحفرة بنفس البرودالذى يودع به فـلاح بذرة فى قاع شقّ. فجأة وجـد العجوز "إلوى" نفسه وحيداً فى المكان الشاسع المفزع، فى حـراسة أشجار السّرو الشجية وعندئذ استدار فوقعت عيناه على شـاهد قبر: «آمن وانتظر! ملْك "دييجو بلانكو فانخـول"». "دييجـو بلانكو" لم يتخل عن غريـزة حب التملك حـتى بعد مـوته. قُـتل "دييـجو بلانكـو" فى مبـارزة بالسـيف على يد "رودريجيث دى يانو"، لأن "دييجو بلانكو" لم يقبل حكم هيئة التحكيم فى معـركة "دى فلورس" عام ١٩٠٥ وتوجـه حينئذ إلى المنّصـة وصفع "رودريجيث دى يانو" أمام الحاضرين وقال له أنه دافع عن مركبة "ثيثاريو جايتـان" لأن ابنة عشيـقته كانت فـيها. عندئذ تحـداه "رودريجيث" فى مبارزة، لكن "دييـجو بلانكو" كان يقول وقتـها فى النادى: «سأطعن هذا الخنزير حتى الموت». لـكن بمجرد أن أعطى قاضى المبـارزة إشارة البدء وقال: «إلى الأمام، أيها السادة» وبعد كرّة شرسة ثم أخرى، سقط "دييجو بلانكو" وقد اخترق السيف رئته. خلف كنيـسة "بلانكو" الصغيرة توجد

مقبرة "بيبين بانكيث"، تغطيها الـحشائش وعليها شاهد يقول: «هنا يرقد خوسيه ماريا بالوميرو -١٠/٤/١٩٢٢- في سلام». لكن الشاهد لم يذكر شيئاً عن الغـائط، ولا عن أسماك البـحيرة الملـونة، ولا عن موته دون انتظار في الرّدهة. ولم يـتحـدث أيضاً شـاهد مـقبـرة "دورو پينيـا" عن موهبته، ولا عن رئاستـه لاتحاد طلاب الطب الذى أجبر الوزير على إلغاء قانون ٣١ يوليـو لسنة ١٩٠٦، ولا عن إعلانه الإضراب عن الطعـام حتى يُنَفَّذ مطلبه. ولم يتحدث شاهد مقبرة الصـبيّة "توماسيتا إسپيو" - «ابنتنا، لن ينساك أبواك أبداً»- عن فزعـها أثناء الليل، ولا عن شنقها لنفـسها في شجـرة بلوط بتاريخ ١٥ مـايو ١٩١٠ حتى لا تشـاهد الاصطدام الرهيب للأرض بالنجم "هاللـى" والذى تنبأت الـصحف بحـدوثه يوم ١٨ مـايو لنفس العام. ولم يتـحدث شاهد مقـبرة مُرَوِّض البراغيث -«رحـمتك، يا رب»- "تويفون لاسـايي جونثالث". -٣/٣/١٩٢١- عن مـهارته، ولا عن دعوته الرتيبة: «تعالى وشوف العجب، البرغوث أبو رجل من ذهب. طريق للداخلـين، طريق للداخلين». ولا عن الـناس التى كـانت تتـدافع لرؤية البراغيث المـدربة من خلال عدسات مكبرة وهى تجر عـربة صغيرة متعددة الألوان.

ولم يقل شاهـد مقبـرة "إيليو دورو روخاس" -«أغلـى الذكريات من أبنائك»- شـيئـاً عن إعادته سـبك جرس "سـان پينيتـو" الذى يصل وزن غطائه إلى ٧٢ رطـلا صـافـيـا. ولم يذكـر شـاهد "فـرناندو مـارين" -١٢/٢/١٩٣٣- أنه أفلس لمتابعـته "جاييتو" مصارع الـثيران، وأنه كان أول مواطن بمـدينتهم يحضـر مباراة مـسائية لمصـارعة الثيـران جرت فى برشلونة بتـاريخ ٢٤ يونيـو ١٩٠٣ والتى شـارك فـيـها، بالإضـافـة إلى "جاييتو"، كل من "ماتشاكيتى" و"مـورينيتو دى ألخيثيراس". ولم يذكر شاهد مقـبرة "خينيروسـو جونثالث پراث" -«عفـوك، يا رب، عفوك»-

شيئاً عن وكـالته للتزويج: «سيدات وآنسات ثريّات، محتـرمات وشريفات من العاصمة ومعظم المحافظات يرغبن في الزواج المشروع؛ المهر من ٥ آلاف بيـزيتة إلى ٢٥ ألف. تَوَجَّـه بالطلب وعليـه التوقـيع إلى المفَـوَض "خينيروسو جونثـالث پرات"، ٨ شارع "دى لاسوتا"، مدريد». وشاهد قبر "دون بوينا بنتـورا سالجادو"، قسيس "سـان خينيس"- «خَدَمَك في الأرض، يا إلهى، فأنعم عليه بالراحة السرمدية»- لم يذكر كلمة عن غيرته الدينية، ولا عن اعتراضه الحاسم على تـوسيع شارع بالمدينة على حساب هدم كنيـسته، ولا عن كلمـاته الشهـيرة التى بعث بهـا إلى فخامـة كبـير الأساقفـة والتى أدّت إلى إثارة المشكلة أمام القضاء عام ١٩٠٠: «فـخامة كبير الأساقفـة، ليس من الإنصاف أن يختفى بيت من بيوت الله من أجل رفاهيـة العبـاد». ولم يذكر شـاهد مقـبرة "دونيا پورا كـاتروكس" -«هنا ترقد»- شيئاً عن وسائلها التـعليمية، ولا عن التلميذ "إلوى نونيث" الذى تربّى فى مدرستها. ولم يقل شاهد مقبرة "أوتيكيو جوميرو"، والتى تبعد قليـلاً، -«هنا يرقـد فى حمى الرّب»- أنـه مختـرع الـلآلئ اللامعـة من "البورون"(*) و"الأورالينا"، المـعـدن الجديـد، الذى يتكون من خلط الذهب الخالص بالبرونز والألومنيوم. وأخيـراً، لم يذكر شاهد قبر "دون نيكوميدس فـرناندث پينيا"، أنه كان العمدة الشـريف والمُدَقِّق والذى قَبْل أن يقـرر سفلتـة الميـدان اجتـمع بمجـلس المدينة اثنتى عـشرة مـرة فى ١٩٠٣، وست عشرة مرة فى ١٩٠٤ ليميط اللثام عن موضوع المجارى.

عندما دقّ جرس المقابر، رفع العـجوز "إلوى" رأسه ودار حول نفسه دورتين قبل أن يعود إلى أرض الـواقع. وهو ينتقل من مقبرة إلى مـقبرة، ومن ذكرى إلى ذكرى، داهمه مغيب الشـمس. كانت أشجار السَّرو تَسْوَدّ فوق رأسه على خلفية السماء الضبـابية. فك أزرار البالطو بحركة خرقاء،

* البورون: مادة كيميائية- المترجم.

أخرج المنديل ونظّف طرف أنفه. كانت يداه الزرقـاوان ترتعشان وبعد أن حفظ المنديل ظل متردداً لعدة ثوانٍ. لم يكد يهتدى لمعرفة ما إذاكان شاباً أو شيخاً أو إلى الدّاعى مـن تواجدّه هناك. فجأة تذكرعيسى فـالتفت نحو مُجَمَّع الصلبان التى تتلاشى على البعد وتمتم:

- أترك لكم عيسى هناك، راعوه؛ إنها أول ليلة له.

عند البوّابة عثـر على قسيس المقـابر. كان يرتدى جُبَّة متـآكلة ويتمتع بعيـنين دهشتيـن، وفم خالٍ من الأسنان. إلى جـواره كانت توجـد عربة جنائزية وقال له الحوذىّ:

- هيا "دون هابيل"، الوقت تأخر علينا.

نظر القسيس بإشفاق نحو العجوز:

- هل لديك وسيلة مواصلات تعود بها؟

أنكر العجوز برأسه.

- اركب إذن، يا أخى -قال له القسيس.

والعجوز "إلوى"، دون أن يفطن جيدا لما يفعل، اعتمد على الرَّفرف وصعد العربة. شـمّر القسيس الجبّة وصعد خلفـه بسرعة، ثم التفت إلى الوراء قليلاً:

- هيا بنا، يا "پاستور".

ساط الحـوذىّ الجيـاد والعجـوز "إلوى"، وهو جالس على الـنتوء المستطيل الذى توضع التوابيت فوقه قال للقسيس أنها المرة الأولى التى يركب فيها عربة مثل هذه فابتسم القـسيس بلثتيه ليرد عليه: «ولن تكون الأخيرة». حينئذ قال له العجوز فى مرارة، وهو يشير بإصبعه إلى أسوار

المقـابر، لديّ داخلها أصدقـاء أكثر بكثـير مما لدّى خـارجها فـقال له القسيس أن هذا هو قـانون الحياة ثم أضاف قـائلاً، دون مناسبة، أنه لم يعلم طوال حيـاته المهنية عمـلا أفضل من الحالى. كـانت العربة تثب المطبّات فأمـسك العجوز بأحد الأعمدة الحلزونيـة السوداء وقال له أنه كان يعتقد أنهامهنة كئيبة، لكن القـسيس أجاب بأن تسليم الأرواح للعالم الآخر هى المهمـة الأجلّ شأنا التى يمكن أن يصبو إليهـا قسيس. سأله العجوز "إلوى" فجأة عما إذا يعرف عدد الايام التى يعيشها رجل يموت فى الخامسة والسـبعين، ورد القسيس بالنفى، فقـال له العجوز أنهاتزيد قليلا عن الخـمسـة والعشرين ألفـا دون حذف ساعـات النوم، وعندئذ أضاف القسيس قائلا بأن الحياة حلم قصير، لكن الناس يملؤهم الجشع كما لو كانوا سيُخَلّدون فيها.

بعد أن انتهى ممر أشجـار السَّرْو دخلت العربة، بالجياد الجوعى التى تسير خبَبًا، الضواحى القريبة من المدينة. بين الأكواخ كانت تلمع الأنوار الضاربة إلى الـصفرة والصـبية فى الأسـمال البـالية يلعـبون فى الأراضى الفضاء. لاحظ القسيس حيرة العجوز "إلوى". التفت نحوه مرتين ثم عاد مرتين لوضعه المتحجر الذى كان عليه فى البداية. نظف أنفه بالمنديل فى عصبـية. أخيراً، وبعد حركـة مباغتة، سأله عـما يمكن أن يراه إنسان فى غيبوبة، وهو فاقد للحواس، ودون حـراك تقريبا، حتى يُصَلِّب على نفسه فى كل آن، فـأجاب القـسـيس بعد أن تـنحنح، بأنه يمكن أن يكون الرب الذى ينتظره للحسـاب، وعندئذ انكمش العجوز فوق معـدته، وكأنه تلقى ضربة فيها، وطلب منه الاعتراف.

"لاديسِ"، الفتاة، تراه الآن وهو ممسك بالقلم الرصاص وسألته:

- أيمكن معرفة ما تكتبه؟

- عمليات حسابية، يا بنتى.

- دعك من العمليات الحسابية. سينصهر مخّك بسبب هذا.

لم يحفل بها. حسب عدد الجنازات التى شيّعها منذ شبابه فاتضح له أن الرقم يصل إلى سبعة آلاف وخمسمائة، بالرغم من أن الرقم لازال تقريبياً.

تناول القلم من جديد ودوّن أرقاما أخرى. بعد أن انتهى، راجعها ووجّه بصره نحو الفتاة قال لها فى مشروع ابتسامة:

- أتعرفين، يا بنتى، عدد الأيام التى أتقدمك بها؟

- تتقدمنى إلى أين؟

- أتقدمك فى العمر.

فكّرت "لاديسِ" لحظة. قالت أخيراً:

- دعك من هذا المُوَشِّح!

- ألم تفهمينى، يا بنتى؟

لمحت الفتاة عينيه الذاهلتين، الراحلتين، وأصابها الذعر. أمسك العجوز عن الخوض فى هذا الجانب. ومع ذلك، فقد هاجم من زاوية أخرى:

- أتعرفين، يا بنتى، عدد الأيام التى يعيشها الإنسان؟

- لنرى... هذا لا يمكن معرفته.

- بالتقريب.

هزت الفتاة كتفيها لكنها نظرت إليه باهتمام. أضاف:

- خمسة عشر ألفا.

فتحت "لاديس" عـينين مستديرتين مـثل طبقين وحكّت إصبـعا بآخر محدثة صوتاً:

- ياه!

- أتبدو لك كثيرة، يا بنتى؟

- آلا تبدو لك أيضـاً كذلك؟ الواحدة منا تجد فى وقت كـهذا متَّسَـعًا للضجر. يا للعذراء!.

-١٩-

بعد ان لاحظت "لاديسٍ" ثبات طبع "البيكاثا" برغم مرور أيام كثيرة ظنت ظنت ان الجيش قد تمكن منه. لكن "مارثى" لم تكن معها فى هذا:

بينما تغسلين له الثياب، سيمضى كل شئ على ما يرام- كانت تقول. لم تكن "لاديسٍ" تفهم ما تريد أن تصل إليه صديقتها. الأحد الماضى ذهب أربعتهم للرقص فى "الباى باى" واضطرت "لامارثى" فى النهاية إلى الجلوس على خشبة الموسقيين وخلع حذائها. اعترفت لها اثناء العودة أن كعبيها مسلوخان. فى اليوم التالى، سألتها "لاديسٍ" من مسقط النور المشئوم عن قدميها، لكن "لاتاسيا" تدخلت وصاحت فيها قائلة أنها تعرف أن صديق العجوز قد مات وأن سيدها سيلحق به فى يوم ليس على الخاطر أو الحسبان لأنه، والحق يقال، لم يعد يتحمل (الشقاوة) الزائدة. وعندئذ ثارت ثائرة "لاديسٍ" ووصفتها بالحقارة والدناءة ونبهت عليها بعدم التدخل فيما لا يعنيها، ولكن "مارثى"، دون اكتراث بالمشادة، أخبرتها بأن قدمها اليمنى بها جرح ولن تخرج الخميس القادم لأنها لن تتحمل الحذاء.

وبهذا الشكل خرجت هى و"البيكاثا" وحدهما يوم الخميس. ظلا فى "الباى باى" إلى أن هبط الليل والفتى، الذى بدأ بكثير من المراعاة واضعا منديلا علي قفاه حتى لاتتسخ السترة الصوفية من العرق، فقد وقاره فى النهاية والتصق بها أكثر. نهرته الفتاة وعندما تذكرت ما جرى بين سيدها وزوجته، نبهت عليه ألا يلتصق بها لأنه يكاد يقطع أنفاسها وانه إذا لم يسترخ قليلاً سيغمى عليها. بعد خروجهما، كان "البيكاثا" يدفعها نحو الحديقة وهى تقول له يالك من فطن، تجاه الظلام لا. "تف... تفعلين هذا وكأننى سآكلك".

- من باب الاحتياط.

قرصها بجرأة.

- لاتبدأ يا "بيكاثا".

- أ. . . ألسنا مخطوبين؟

- (شوف) أنت.

- أ. . . ألن نتزوج؟

تغير لون الفتاة:

- "بيكاثا"، هل هذا ما تنوى عليه؟

هـ. . . هل تظنين شيئا غير هذا؟

كان يدفعها نحو الظلام ولم تكن منتبهه لنواياه:

ومتى سيحدث هذا؟- سألته وهى فى شبه غيبوبة.

بـ. . . بعد الانتهاء من الجيش. قـ. . . قائد وحدتى وعدنى بعربة نقل بمجرد إنهاء الخدمة العسكرية.

جلسا علي مقعد فى الظل. عَبَثٌ يديه العنيد والعصبى حبس أنفاسها، خارت قواها اللازمة لصده. قالت بصوت مخنوق:

- وسنعيش فى المدينة، يا "بيكاثا"؟

خرج صوت "البيكاثا"، مكتوما وكأنه مكمم الفم:

- أ. . . أفضل من العيش فى القرية، أليس كذلك؟

- والغناء؟

- لـ . . . لقد انتهى زمانه.

- ألا تفكر فى العودة إلى الغناء؟

- لا . . . لا أقول هذا. لكن إذا كان هناك ما يستحق فلا يوجد مانع.

خيم الصمت. صدرت من المقاعد القريبة همسات باهتة دقيقة. جفلت الفتاة:

- أما هذا فلا، اسحب يدك يا "بيكاثا"!

- (كـ . . كويس كده)، ألن نتزوج؟

- انتظر إذن لوقتها. لقد قطعت لى زراً من السترة، لكى تعرف. ثابت الفتاة الآن إلى رشدها لكى تدافع عن شرفها. لن تحمل ابنة أمى إلى المذبح وهى مسلوبة الشرف. ضع هذا نصب عينيك، يا "بيكاثا".

تراشقا لفترة بالكلمات، وأخيراً نهض الفتى متبرماً:

- هـ . . . هيا نعود.

بعد تلك المشادة ظنت "لاديسِ" أن "البيكاثا" لن يعود، لكنه حضر السبت ومعه كيس الملابس المتسخة وكأن شيئا لم يكن. كان سيدها موجودا واعترى "لاديسِ" الكدر لأن بيكاثا وسيدها لم يتبادلا كلمة ولو واحدة. انصرف "البيكاثا" سريعا وقال لها من على الباب أنه سينتظرها الأحد القادم فى تمام الرابعة، كما هى العادة.

أخبرت "لامارثى"، والارتباك يطوقها، بعرض "البيكاثا" للزواج بها. زاغت عينا لامارثى: "هل قال لك هذا؟- سألت-: لاتثقى بكلمة يقولها الرجال، هذا هو رأيى". لكن "لاديسِ" أوضحت بأنهما سيتزوجان بمجرد أن ينتهى من الجيش وأجابت "لامارثى" بأن هذا لايزال فى علم

الغـيب. "ليس كل الرجـال سـواء، يامـارثي"، قـالت "لاديس". لكن "لامارثى" صوبت نحوها إصبعها الرخو، زمت شـفتيها، وأطبقت جفنيها وقالت: "ثقى كما يحلو لك".

أما بالنسبة للعجوز، فإن "لاديس" لم يـدهشها صمته مع "البيكاثا". فخلال الأسبوع الأخير، ومنذ موت السيد عيسى، لـم ينطق العجوز بكلمة تقريبا. فى الصباح، كان يجلس على الكرسى الـمستدير، ظهره مقوس، ذراعاه معقوفان فوق معـدته، متمثلا بشكل غريزى وضع الجنين فى بطن أمه. وهكذا، وهو بلا حراك، كان يمضى الساعات متأملاً البيت المقابل. إذا جرجرته من لسانه وسألتـه عن الملك، أو عن زوجته، أو "جويتو"، ابنه الصغير، فإنه كان يرد بالكاد من خلال مقاطع صغيرة.

بدا مثل تمـثال وإذا تحرك فـمن أجل تنظيف أنفه أو لإجراء عـمليات حسابيـة معقدة على حـواشى الجريدة. فى هذه الحالة كان ينتـعش قليلا ويقول للفتاة:

"أتعرفين، يا بنتى، عدد الدقائق التي عـاشها صديقى عيسى؟". أو: "أتعرفـين، يا ابنتي، عـدد من اختفـوا من المدينة منـذ مولودى؟". أو: "أتعرفين، يا بنتى، عدد الثوانى التي مـرت منذ وفاة عيسى، الثوانى التي لم يعشـها حـتى الآن؟". لم تكن الفتـاة تجيبـه لأنها لم تكن، أسـاسا، تفهـمه. ذات صبـاح سألهـا العجوز دون سـابق إنذار: "هل تعتـرفين فى الكنيسة، يا بنتى؟"

"طبعـاً، أعتـرف عما يـخصنى"، أجابت الـفتاة. أضـاف بعد وقـفة قـصيـرة: "الاعتـراف يهون الإنتظار". نـظرت إليه بدهشـة: "الإنتظار، انتظار من؟". لكن بالرغم من انتظار الفتـاة لإجابته بلهفـة واضحة إلا أنه لم يفتح فمه.

وفجأة أصبح سيدها، أحد الأيام، متغيراً، مسروراً ومنشرح الصدر، مثلما كان فى الأوقات الهنيئة. قال لها العجوز أنه قرر الذهاب إلي مدريد وأنه أرسل خطابا بهذا إلى ابنه. تراءت للفتاة فى الحال صورة "لاأدريانا"، جامعة الصمغ، التى مزقوها إرباً ذات ليلة عند مدخل الجبل، وصورة موسى، الفتى الذى احترق وجهه فى فرن الهندباء وفي الليالى التي كانت تدق فيها الأجراس للتذكير بأرواح الموتى، كان يطوف بشوارع ملفوفا فى ملاءة ليخيف الفتيات وسألت العجوز عما ينوى عمله معها فأخبرها بأنه سيدفع لها أجرها كاملا علاوة على الطعام كما لو كانت تعمل، وعندئذ أوضحت "لاديسِ" بأنها قصدت بسؤالها الإشارة إلى أنها قصيرة النَّفس وتخاف البقاء بمفردها، لكنها سرعان ما تذكرت "مارثى" فأخبرته بألَا يشغل باله لأنها ستتصرف.

أمضى العجوز يومين مشغولا بإعداد لوازمه، تسيطر عليه الشكوك والحيرة: "سيدى، إلى أين أنت ذاهب بفرشاة الأحذية، ألايوجد عند ابنك فرشاة؟" كانت تسأله. فيجيب: "من باب الاحتياط، يا بنتى". فى مرات اخرى كان يعطيها النصائح: "من أجلك فقط ليس من الضرورى تشغيل التدفئة، فبعد أربعة أيام لن يكون الجو باردا". لم يستطع الركون إلى الهدوء، كان يضع ثم يُخرج أشياء من الحقيبة. وفجأة يقطع عمله: "لوجاء أحد من جماعة التصوير قولى له أننى انسحبت. قولى له... أو من الأفضل ألا تشرحى له الأسباب، أخبريه فقط بانسحابى". كانت الفتاة تتبعه إلى حيث ذهب، وكأنها كلب صغير يلازم صاحبته: "حسنا، لاتشغل بالك"، كانت الفتاة ترد عليه وهى متدرعة بالصبر.

يوم السفر، نهض من السرير السابعة والنصف صباحاً. أشارت الفتاة على نفسها بعلامة الصليب:

- يا للعذراء! أيمكن معرفة إلى أين أنت ذاهب فى هذه الساعة المبكرة من الصباح؟

كان العجوز يمشى مضطربا. إنها المرة الثانية التي يعود فيها لركوب قطار بعد المرة التى جرت قبل عشر سنوات وكانت وقت زفاف "ليونثييتو".

- دعينى، يا بنتى، فهناك الكثير من الأشياء يجب أن أفكر فيها.

- ألن يقوم القطار فى الخامسة مساءً؟

لم يجب. أمضى الصباح بطوله بين الذهاب والمجيئ من مكان لآخر. وبين الفينة والفينة كان ينادى على الفتاة: "أقول، يابنتى، أنه من أجلك فقط ليس من الضرورى تشغيل التدفئة هذه الأيام. فالجو لم يعد بارداً". "حسنا، لاتشغل بالك". وبعد فترة: "ديسى" لو جاء أحد من جماعة التصوير قولى له أننى انسحبت. قولى له أن كل شئ ارتفع ثمنه هذه الأيام... أو من الأفضل ألا تشرحى له الأسباب، أخبريه فقط بانسحابى". "حسنا، لاتشغل بالك"، كانت ترد عليه.

فى الثانية عشرة طلب منها تقديم الغداء الذى لم يتذوقه. كان ينظر إلى الساعة طوال الوقت:

- لكن، ياسيدى، ألن يقوم القطار فى الخامسة مساءً؟

- لاتظنى أن الوقت كاف، يابنتى.

ذهب إلى حيث توجد الحقيبة، لكنه تذكر شيئاً فجأة لأنه رجع من منتصف الطريق إلى المطبخ:

-أقول، يابنتى، أن الفتى ربما تمسك بى ولم يتركنى أعود. فى تلك الحالة، سأرسل لك خطابا.

هزت الفتاة كتفيها:

- (مُشْ باين) لأنه لم يفتكرك حتى الآن إلا قليلا.

لكن العجوز لم يكن يسمعها. فى الثالثة، أعطى الأمر بالرحيل. كانت الفتاة تميل إلى جانب من فرط ثقل الحقيبة.

- ثقيلة، يا بنتى؟

- مثل ميت- ردت الفتاة وهى تُبعد عن جبهتها خصلة من الشعر بظهر يدها التى يبللها العرق.

توقفت أمام لافتة أحد المحلات.

- قالت متعكرة المزاج: ماذا تقول اللافتة؟ أقدم إصبعين من يدى نظير قراءتها دفعة واحدة.

- "ديسى"! -نادى العجوز وهو يلف الملفعة حول عنقه.

- ماذا تريد؟ إذا أبعدتنى عن الحروف الكبيرة فى الجريدة أقع فى بحر من الحيرة.

- اللافتة تقول -تكلم العجوز-: "قصـر الأسِرَّة"، وتحتها: "المتجر الذى يبيع الأفضل ،والأرخص".

زلت قدمها فـوضعت الحقيبة على الأرض. مـررت من جديد ظهر يدها بالجبهة.

قالت للعجوز فجأة:

- سأشترى الحشيَّة من هنا يوم زفافى.

- ألك خطيب، يا "ديسى"؟

احتقن وجه الفتاة:

- (شوف أنت).

- ذلك الجندى؟

- بعينه.

- لا يبدو سيئا يابنتى.

أمَّنت على كلامه برأسها، ثم قالت:

- عيبه الوحيد، العِرْق السيئ.

- العِرْق السيئ؟

- نوبات الغضب التى تعتريه أحياناً.

كان العجوز يتململ:

- هيا بنا، يا بنتى. إذا وصلنا فى الـوقت المناسب سنكمل الحديث فى المحطة.

كان ثُقْل الحـقيبـة يبرز صدرها وحـوّل بشرة وجهـها بعض الشئ إلي اللون البنفسجى. عند صعودها الرصيف تراخت ركـبتاها وكان عليها بذل المزيد من الجهد حتى تحفظ توازنها.

- "ديسى" -نادى عليها العجوز.

والفتاة تحت ثقل الحقيبة الباهظ، أخرجت صوتا خافتا:

- إذا جاء أحد من جـماعة التصوير قولى له اننى انســحبت. الأفضل ألا تشرحى له الأسباب، يابنتى، أخبريه فقط بانسحابى.

تركت الفتاة الحقيبة علـى الأرض مرة واحدة. نَشَّفت العرق وابتسمت ابتسامة خشنة:

- حقيقة اننى لا أستطيع مهما حشدت من قوة.

انحنى العجوز على الحقيبة:

- سأساعدك.

- حضرتك؟

- نعم، يابنتى.

- دعك من هذا، إنها ثقيلة.

- لقد تأخرنا، هيا.

رفعت الحقيبة من جانبها:

- ألن يقوم القطار فى الخامسة؟

كان العجوز يتأرجح تحت الثقل الكبير للحقيبة. مرّ جنديان مستجدان واتجهت العيون الأربعة إلى ساقى "لاديسٍ".

- ياسمراء، ألا تريدين مساعدة؟

ألقت الفتاة بنظرة مشوشة من جراء الغضب والتعب:

- (روح) ساعد أمك، يا منبع القذارة! -صاحت.

قال العجوز:

- "ديسى"، يابنتى، حَسِّنى ألفاظك.

- (بقى ده كلام)، تعرف بما فيه الكفاية ما يقصده هذان .

نظرا لعدم التوازن بين جهديهما عثر العجوز وترك الحقيبة فجأة فانتقل الثُقل كله ناحية الفتاة:

- إبقى نبِّه! -زعقت ثائرة-: كنت على وشك السقوط على وجهى.

كانت ساعة المحـطة تشير إلى الرابعة إلا خمسا وعشـرين دقيقة وقال العجوز للفـتاة أن بإمكانها العودة، لكن "لاديسٍ" كـان يسليها الآن تأمل ذلك النشاط غير المألوف لديها!

ظلت الفتاة إلى جواره صامتـة تتأمل بانتباه مناورات القطارات والرجال ذوي القبعـات المستديرة والبـيارق الحمراء والعـربات الصغيرة المـحملة بالطرود. ومع هذا فـقد كـانت تؤلمـها رائحـة الفحـم التى ترتبط عندها بالوداع والفراق.

قالت:

- يلزم كثير من الشجاعة للذهاب إلي مكان بعيد جدا.

- مدريد ليست بعيدة، يا بنتى.

- ألا تبعد أكثر من خمسة فراسخ.

- فى هذا عندك حق، يابنتى، فهى فى الحقيقة تبعد كثيرا عن ذلك.

- وتقول أنها ليست بعيدة؟

كـان العجـوز عصـبيـا وانهمكت فى تهـجى يافطة مكتـوبة بالأبيض والأسود: "للر- جال..." . التـفت إليها سيدها فجأة، وقـال بينما كان ينظف أنفه:

- إذا تمـسك بـى الفـتى ولم يتـركنى أعـود سـأرسل لـك خطابا- ابتسم- . من المحتمل جدا ألا يتركنى "ليونثيتو" أعود.

أطلق القطار صافرة فشحب لون الفتاة، وعندما انتهت الصافرة ضربت أذنها بكفها. قال العجوز:

- اتركى أذنك وشأنها، يابنتى.

- الملعون هذا افقـدنى السمع- رفعت يدها اليمنى وظهر تعـبير الألم على وجهها- يدى (إستوت)، لاأعرف ما إذا كانت يدى أم يد الغير.

نظر إليها العجوز بحنان:

- من الحقيبة، يابنتى؟

- (شوف) أنت.

- تمايل العجـوز. فكّ أزرار البالطو وأخرج حافظة الـنقود، وبعد أن فَتَّش بين محتوياتها، مد يده إلى الفتاة وبها ورقة مالية فئة البيزيتة:

- خذى، يا بنتى، تستحقينها.

- (بلاش كده، ده اللى كان ناقص).

لكن العجوز أصر فمدت الفتاة، فى النهاية، يدا قصيرة وضاربة إلى الحمرة:

- شكرا جزيـلا- قالت وهى تخفـى الورقة فى صدرها. ثـم أضافت بطيـبة قلب: إذا كـان من السهل كـسب بيزيتـة لما وجـد فقـراء فى هذا العالم، أليس كذلك، يا سيدى؟

عندما وجد نفسه في مدريد، في الشوارع الجديدة، أمام آفاق غير معهودة وكأنها اغتسلت حديثا، ظن العجوز "إلوى" أن بوسعه الاستقرار، وحتى البدء من جديد.

كان العجوز يتصور- خاصة ساعة الإفطار في الحديقة الصغيرة المغتسلة بالشمس الوليدة الناعمة- أن الانتظار لم يكن عبثا وأن الحرقان وكثرة التبول يمكن أن يكونا مجرد حدث ربيعي. لم يكن الربيع يمضى بعيدا وهاهى مدريد، تبدو بشمسها وكأنها تُبَشِّر بقدومه. كان العجوز يجتهد في نسيان كل شئ ولا يفكر إلا في التَّنَعُّم بتواجد "ليونثيتو" إلى جواره. كانت تلك الساعات الأولى من النهار، التى تتركهما فيها "شوثيسو" وحدهما لأنها تعانى من حساسية الشمس الصباحية، تذكره بالأيام الخوالى. وبالرغم من كل هذا فقد كان يسيطر على العجوز "إلوى" هَم جديد: انطفاء "ليونثيتو" المبكر. انعقد علي طرف لسانه ثلاثة أصبحه متتالية ما كان يود أن يرويه له عن تفصيلات إحالته إلي المعاش فى حضور عمدة المدينة حتى انه، عندما استيقظ، وضع الميدالية فى جيبه بقصد عرضها عليه، لكن الفتى كان ذاهلا ولم يتجاوب معه. كل مرة كان العجوز يحاول فيها هذا كان "ليونثيتو" يقول، مقاطعاً له:

- عندما أستيقظ أشعر وكأن سحابة بداخل رأسى. إنه شعور غريب... بعدم الاستقرار، هذه هي الكلمة المناسبة... يبدو لى انه سيغمى علىّ فى أىّ لحظة. ينتقل هذا الشئ بعد ذلك ليعض هنا، فى فم المعدة- تظهر على وجهه أمارات الاشمئزاز-: لاأعرف ماهو.

كانا يتناولان فطورهما سويا ويجتهد العجوز "إلوى" فى التسرية عنه. الآن يفهم العـجوز لماذا لم يذهب الفتـى لانتظاره فى المحطة. وهو شئ لم تفعله أيضاً "سـوثيسو" بسيارتهـا الصغيرة، لكن "سوثيـسو"، زوجة ابنه، تبدو مشغـولة جداً. ومع ذلك، فقد قبّله "ليونثـيتو" عندما وصل، ربما لأن العـجوز كان قـد ألقى بنفسه بين ذراعـيه دون مقـدمات. وعلي خلاف هذا، فـإن "سوثيسو" قـد مدّت بالكاد يدها ونادته بإسمه مـجردا بدل أن تقول يا أبى. لـقد ظل يحلم دائماً -ربمـا لأنه لم يُرزق ببنت- أن تناديه فتاة جميلة بكلمة أبى.

الآن ينحنى على "ليونثـيتو" ليخبـره بأن عيسى، صديقـه القديم، قد مات لكن "ليونثيتو" قطّب جبينه وسأله مشوّشا:

- عيسى، من عيسى هذا؟

- صـاحب الوكـالة الإدارية، يـا بنى، ستـتـذكـره، رجل سـريع الانفعال، لا يفارقه العكاز ويهوى أربطة العنق اللافتة للنظر. لقد رأيتنى كثيراً معه.

هز "ليونثيتو" كتفيه:

- حسنا، لابد وأنه كان طاعنا فى السن.

- أكمل الثانية والسبعين حديثا.

- فى مثل هذه السنّ كل شئ وارد.

تقطب وجهه فجأة. سأله العجوز فزعا:

- أتشكو من شئ يا بنى؟

- قفاى، أشعر بوخزات فيه، لقد أصبحت مَوْطنا للرزايا.

بعد الإفطار في الحديقة، كان "ليونثيتو" يقرأ الصحف، وعندما ينتهي، يعمل بجد خلال بعض الوقت إلى أن تبدأ حبّات العرق الأولى فى التساقط، وعندئذ يدخل الحمام ويغلق بابه عليه حتى يأتى موعد الغداء.

سأله العجوز "إلوى" ذات صباح عن مكتب التوثيق:

- لست من أصحاب المكاتب. أعتقد أحيانا أن الجهد الذى بذله الواحد لاجتياز اختبار الوظيفة لا يفارقه أثره مدى الحياة. إنه اختبار يزهق الأرواح. زاهق للأرواح، هذا هو التعبير المناسب.

كانت مآزق العجوز "إلوى" تبدأ مع الغداء. فلم يخلق لمثل هذه العادات. وعندما كان السّفرجى يقرّب منه الصوانى، كان يقول لزوجة ابنه: «لو سمحت، يا بنتى، إغرفى لى أنت». كانت "سوثيسو" تنكمش كلما ناداها بابنتى وكأنه يبصق على وجهها.

فتنادى على السُّفرجى، "بيبيتو"، وعندئذ يؤكد "ليونثيتو" بأن نظام خدمة المائدة، الإيطالى الأصل، من أفضل مكاسب الحضارة الحديثة. ومع هذا فإن تواجد هذا الرجل كان يزعج العجوز ويثير أعصابه. فلم يكن يعجبه أن يراه أحد وهو (يُعافر) مع أدوات المائدة التى لم يتوصل أبدا إلى استخدامها بسلاسة. بيد أَن "سوثيسو"، زوجة ابنه، إذٍا لم تكن تتحدث مع زوجها عن السيارات، فإنها تتحدث مع "بيبيتو"، السفرجى، وتسخر منه وتضحك على قوله بأنه لم يشاهد ميتا طوال حياته أو أن الفزع ينتابه عندما يتحدث الرجال بطريقة غير مهذبة. كان العجوز يجتهد فى التقرب من "سوثيسو"، لكنها كانت تتحرك فى عالم آخر.

كانت تقول:

"ليو"، فى الطريق إلى مدريد اختنقت السيارة ولما أردت استخدام السرعة الأولى زعق الفتيس بطريقة جعلتنى أتراجع وعندئذ توقف المحرك.

كان "ليونيثيتو" ينصحها بأن تقوم فى مثل تلك الحالات بالضغط على دواسة الدبرياج مرتين، وتدوس على البنزين خلالهما، و"سوثيو" تنصت إليه بانتباه وكـأنه يقرأ لها الانجيل. فى مرات أخرى كـانت تؤرقها مشكلة ما، و"ليونثيتو" يحلها لها ببساطة. كان العجوز "إلوى" يرمقه بمزيج من الفخر والتواضع:

-إذا نفث الكاربوراتور- كان "ليونثيتـو" يؤكد- فالسبب يرجع ، كما هو معروف، إلي مجموعة رأس الإسطوانة أو الصمامات.

كانت زوجة ابنه لا تسـتلطفه وبلغ الظن بالعجوز انه يمثل عـائقاً لها. سمعهـا تقول لابنه ذات مساء: "لماذا لا يستحم العـجائز يا "ليو" رائحة أبيك هى تلك الرائحة التي تميز الـبسطاء من الناس". لكن "ليو" تثاءب دون أن يعيـرها اهتمامـا وصعد العـجوز إلى غرفـته ثم هبط ثانية بقـصد إستهلاك بعض الوقت حتى لا تلاحظ "سوثيو" أنه سـمعها. عادة ما كان العـجـوز ينزوى وينكمش ولا يجـرؤ على النطق بكلمـة إذا كـانت نظرة "سوثيو" أو "بيبيتو" مسلطة عليه.

فى بعض الأيام، على المائدة، كانـت "سوثيو" تحدث "ليونثيـيتو" بالفـرنسيـة وذات مسـاء، بعد أن تكلمت مـعه كـثيـرا بالفرنـسيـة، قال "ليونثيتو" لوالده أنهمـا ينتظران هذا المساء بعض الأصدقاء وعليه أن ينام مبكرا لأن السهر لايناسب صحته. لمعت نظرة العجوز:

-حفل؟

-حسنا، لاتسميه هكذا،ليسوا سوى أربعة من الأصدقاء.

خطر للعجوز "إلوى" أن السهرة يمكن أن تبدد كـآبة "ليونثيتو" فقال له عليك بالاستمـتاع ما استطعت وأنه سيـأوى للفراش حسب رغبتـهما،

لكنه لم ينم بل انزوى فى حجرته وعندما أحس بالأصوات والضوضاء تحت أطل بحذر من أعلى السلم لكى يرى "ليونثيتو" وهو يبتسم، لكنه لمح أولا "بيبيتو" وهو يحمل صينية من الفضة وعليها كئوس ثم الرجال الذين يرتدون الملابس الغامقة ثم "سوثيو" وهى تتنقل من لمة إلى أخرى. وسمع الموسيقى، سمع صوت "سوثيو" يعلو على بقية الأصوات: "وقلت له يا قذر". فرد على، حينئذ: "أتعرفين أنك سليطة اللسان، ياأختاه؟" وضحكت "سوثيو" وأمسك بكتفيها العاريين رجل من هؤلاء، الذين يشبهون بعضهم، أخذ يضحك معها فى الركن المقابل، بجوار المكتبة، سألت فتاة لاتتعدى العشرين من العمر عن الذى مد يده وقرصها وأضافت بأنها تود معرفته لأنه لو اتضح، على سبيل المصادفة، أنه زوجها فستجعله عبرة لمن لا يعتبر. كان "ليونثيتو" يتحدث فى زاوية مع فتاة أخرى ونظراته مشوشة ومتعكرة، لكنه لم يكن يبتسم بل يشير إلى قفاه ومعدته وعندئذ أغلق العجوز "إلوى" على نفسه الحجرة ونام والغمّ يركبه.

فى الصباح التالى تبول قليلا من الدم وأفضى بهمه ساعة الإفطار إلى "ليونثيتو":

- أنت محظوظ- رد عليه "ليونثيتو"-: أنا مستعد للتنازل عن كل ما أملك نظير الإصابة بمرض معلوم المصدر. أما مرض الأعصاب فلا يوجد من يفهم فيه، لا يفهم فيه أحد.

كان يضغط على جبهته براحة يده. قال له العجوز:

- على أية حال، يابنى، أخبرك بأن الورقة الحمراء طلعت لى فى دفتر المبفرة.

-الورقة الحمراء؟

- إنه لنذير، فهذا يعنى أن الباقى خمس ورقات- قال العجوز فى لهجة استسلام. ظل "ليونثيتو" مرتبكا للحظة. يبدو لمن رآه وكأنه يعد قمم الجبال البعيدة. قال بعد ذلك بصوت قاتم:

- مثل هذه الأشياء تحدث للرجال الذين صنعوا أنفسهم بأنفسهم. فصناعة الرجل لنفسه تنطوى على جهد نفسى خارق للعادة. وبعد ذلك تأتى مرحلة الاسترخاء، ثم عدم الاستقرار.

استرجع العجوز "إلوى" مشوار "ليونثيتو" الدراسى وامتحان الوظيفة ومدخراته القليلة لكنه قال فى ضيق وبصوت حاد:

-لقد درست كثيرا، يابنى، لم تتوقف أبدا عن الدراسة. كنت أقول لوالدتك: "هذا الفتى إن لم يختل عقليا، سيصبح عالما فذا".

ابتسم. لم يكن "ليونثيتو" ينظر إليه:

- ثم يأتى هذا الشد العصبى الغادر: "إنى أعلم، هل أنا الأكثر علما ومعرفة؟ الواحد منا لا يعرف أبدا إذا كان سيأتى من هو أكثر معرفة منه ليحتل مكانه".

أومأ العجوز:

- بالضبط، العمدة، ليلة وداعى...

لكن "ليونثيتو" واصل كلامه برتابة، وكأنه فى حوار ذاتى مع النفس:

- الشك، هنا يكمن الخطر. الشك الذى يقرض أعصاب الفرد. عندى مقدرة فى الجدل وثقة بالنفس ألمعى فى الشرح والتفسير، باختصار، أعرف، لكن هل أعلم أنى الأكثر معرفة؟

ذلك المساء ظل العجوز بمـفرده في البيت. نزل إلى الصالون وحاول تشغيل جـهاز الاسطوانات، لكنه لم يفلح. من حين لآخـر كان ينظر إلي الباب بارتياب خائفا من ظهور "بيبيـتو". كان يرغب في سماع الموسيقى وفي الاندماج معها لكنه لمح فجأة "فـاوستو"، القطة التايلاندية العملاقة فوق المائدة وهي تنظر إليه في عناد بحدقتيها الصفراوين، مقوسة ظهرها. تقهقر العجوز وعندئذ قفـزت القطة فوق الكرسي على بعد متر واحد منه، نافشة شعر صلبـها ومصدرة مواء خافتا. تقدم العـجوز بجنبه نحو الباب، ويداه مبسوطتان ومتشنجتان فـوق الجدار، لكن "فاوستو" كانت تقفز من قطعة أثاث إلى أخـرى دون أن تنزل نظرها من عليه وقاطعـة عليه طريق الانسحـاب. حاول العجـوز الرجوع إلى المكتـبة، لكن حركـاته كانت تزداد طيشا وعصبية. كان قلبه يخفق بشدة بين ضلوعه ويتكوِر خوف لو ذعي في حلقه. كـانت مطاردة "فاوستـو" له تزداد عنادا وقُربا وعندئذ زعق، صاح "بيبيـتو" مرات كثيرة حتى ظهر الخـادم وحينئذ لم يستطع الكلام، اقـتصـر على الإشـارة وهو يلهث إلي القطة المتـرقبـة، لكن "بيبيتو" ضحك، حـمل الحيوان وقال المسكينة في دورة نزوية وترغب فقط في مداعبة أحد لها.

في هذا المـساء، عندما قَـدمً له "ليونثـيتـو" كأسا من الويسـكي قبل الطعام لـم يرده العجوز "إلوي" وطـلب آخر بعد ذلك، ثـم شرب ثلاثة كئـوس متتابعـة من نبيذ شويش. انفـكت عقدة لسانه بعـد قليل وقال أن الورقة الحمراء طلعت له في دفتر البـفْرة وسألت "سوثيو" عن معنى هذا فرد عليهـا قائلا: "يعني أن الباقي خمس ورقـات فقط" وما لبث أن ربط بين اللونين الأحـمر والأبيض وبين لون الدم في البـول وأكد على أن هذا بمـثابة نذير وذكـر "ليونثـيتـو" بالمـرة التي اشتـرى له فيـها هو وأمـه، "لوثيتـا"، لحم خنزير مجفف حـتى لا يضعف وكـيف كان يجن جنونه كلما اقترب "جويتو"، الصغير، من اللحم. وعندئذ توجه "ليونثيتو" إلى

"سوثيسو" قائلا: "أنها مجـرد ترهات، فهو لا يدرك معنى ما يقول، فلا تأخذى كلامـه مأخذ الجد". لكنه شرع فى حـكاية تفاصيل حياته وقـتها على "سوثيسو" فقال ابنه: "من الأفـضل ألا تتذكر هذا، فلا فائدة تُرجى من وراء ذكر ما يؤلم الآن"، لكن العجـوز "إلوى" كان يرى "سوثيسو" تضـحك على كـلامـه لأول مرة وتطـلب منه المـزيد من التـفصـيـلات و"ليونثيتو" يقول لها" "إنه فـاقد الوعى، لقد شرب كأسين من الويسكى على خلاف العادة. ما ينطق إلا بترهـات، إنه فاقد الوعى". لكن العجوز كـان يحس بصعـود نشـاط غيـر مألوف مـن داخله وقال لزوجـة ابنه أن صديقه عيسى قد مات مؤخرا ولم تعد له أى صلة بالهيئة، التى كان يعمل بها قبل إحالته إلى المعاش لأن "كراسكو"، زميله فى العمل، لا يمل من مواجهته متهكما بأنه التحق بالهيئة للعمل دون أية مؤهلات دراسية وليست لديه ميزة تجعله يفـتخر بها. كانت "سوثيسـو" تطلق ضحكات مجلجلة و"ليونثيتـو" يشير عليها بضرورة تركه لينام، لكـنها صرّحت بأنها لم تره مسليا هكذا وطلبت منه تركه لبعض الوقت وتوقف العـجوز ثم سألها عما إذا كانت تعرف عدد الأيام التي يعيشها رجل يموت فى الخامسة والسبعين فأجابت بالطبع لا، فقال ١٥٦٩٥يوما، وسـألها عن عدد الساعات وردت بلا، فـــقـــال ٣٧٦٦٨٠، وعن عـــدد الدقـــائق وأجـــابـت بلا، فـقال٢٢٦٠٠٨٠٠، وعن الثـوانى فأجـابت، وهى ميـتة من الضـحك، بالطبع لا، فقال- دون ان يأخذ نفسه تقريبا-١٣٥٦٠٤٨٠٠٠ ثانية.

كان العجوز "إلوى" يلهث وطلبت "سوثيسو" من "ليونثيتو" أن يقدم له كأسا أخرى، فهى لم تضحك سفى حـياتها مثل الليلة، وبينما كان يعد له الكأس دخل "بيبـيتو" فقالت له انتظر لتـرى شيئا مسـليا، وعندئذ قال العجوز "إلوى" أن الحـياة مثل صالة انتظار والكل ينتظر فيهـا، محاولين الهروب مـن الواقع، بِصَمِّ آذانهم كل مرة ينادى فـيه المنادى: : التـالى" لأنهم يخافون من مجرد التفكير فى أن الدّور يمكن أن يلحقهم غدا، لكن

"بيبيتو" بدأ يرتعد ويقول أن الخوض في مثل هذه الأمور لا يعجبه، هذا بينما كانت :سوثيسو" تتلوى من الضحك على الأريكة وتتقلص تقلصات عنيفة. وفجأة، تصببت جبهة العجوز عرقا وتحولت إلى الزرقة، خفت نبضه وتقيأ بغزارة علي السجادة. بقى بعد ذلك كالميت، متكورا علي الكرسى وكاشفا عن أسنانه فنهض "ليونثيتو" وأخذه من إبطيه وطلب من "سوثيسو" و"بيبيتو" مساعدته.

على السلم استرد العجوز وعيه وقال أن قسيس المقابر ذَكَّره بقصر الحياة ومع هذا فإن الناس يملؤهم الجشع ويتصرفون وكأنهم سيخلدون فيها. لكن "سوثيسو" لم تضحك فعرف أن كلماته جاءت فى غير وقتها وعندما جردوه من سترته فى الحجرة، تذكر فجأة أنه لم يخلع بنطلون البيجامة خوفا من الإصابة بالبرد وقال "سأستحم غداً يا "بيبيتو". الآن يريدون خلع بنطلونه و"سوثيسو" تكرمش أنفها وعندئذ جفل العجوز وقال، لا إنه مستريح هكذا وعليهم أن يتركوه ولا يعاملوه كأنه طفل، وإزاء عناده تراجعوا عما عزموا عليه فخلع العجوز حذاءه بعد أن ضغط بكل قدم على مؤخرة القدم الأخرى.

ومتأرجحا دخل السرير. كان يسمع نبض قلبه فى صدغيه وإبطيه وتدور به الدنيا ولكى يستريح أطبق جفنيه وأطفأت "سوثيسو" ضوء الحجرة الأوسط وتركت ضوء مقدمة السرير وعندئذ طلب العجوز من "ليونثيتو" أن يُقَبِّل جبهته، دون لمسها بالشفتين، كما كان يفعل وهو صبى، فاستجاب "ليونثيتو" ووارب العجوز عينيه ونظر إلى "سوثيسو" نظرة متعكرة وقال لها بعناد صبيانى:

- والآن دورك أنت، الآن أنت، يابنتى.

فانحنت وأنفها مكرمشا لكنها طبعت قبلة على جبهته، وسرعان ما استغرق العجوز فى النوم.

-٢١-

-يا... ياله من هراء!- قال "البيكاثا" محتدا.

-هيا- أجابت "لاديس"-، مادمت تريد القرية، ففى القرية إذن، أنا لست مثل "لامارثى" التى تفضل العنوسة على الزواج بالقرية. لست من هؤلاء.

كانا يتفلان قشر اللب بحركة آلية على ظهور المارة، وعندما أحست "لاديس" بالبرد طوقت معدتها بأطراف السترة الصوفية.

قال "البيكاثا" بعد فترة من الصمت:

-لا.. "لامارثى" هذه سليطة اللسان.

-لست معك فى هذا، يا "بيكاثا". فلكل فرد شخصيته و"لامارثى" لها من النقائص كما لغيرها. عليك بإقامة حفل زفاف جيد لى فى القرية وفى هذه الحالة لا يمكننى حتى مقارنته بحفلات المدينة. صدقينى، فإن أكلات العم "بوتى"، مهما فعل العم "بوتى" بأكلاته، أفضل بكثير مما تقدمه الفنادق الفخمة. ولكى تضفى الحيوية على تأكيداتها، كانت الفتاة تصحبها بحركات مبالغ فيها من يدها.

أضافت بعد وقفة قصيرة:

-لست آسفة إلا على الدجاجة، أما الباقى فأمره سهل.

توقف الفتى، مقوس الساقين، ظل قبعته يغطى عينيه، وإبهاماه يختفيان فى سواد الحزام، بجانب الإبزيم.

-أية دجاجة -سأل.

أجابت "لاديس":

كانت أمي، رحمها الله، قد وعدت بتقديم دجاجة لكل بنت منا يوم زفافها. مع أن الأمر يبدو تافها يا "بيكاثا" إلا أن الدجاجة تعتبر من لوازم البيت، فهي تعني بيضة كل يوم، وما هو إلا قليل من الوقت. . .

- لن. . . لن نموت جوعا إذا لم تكن هناك ايضا دجاجة- قال عكر المزاج.

ابتسمت "لاديس". منذ يومين وهي تعيش في الخيال. بالكاد كانت تساعد "لامارثي" في التنظيف صباحا، وفي غسيل الأواني بعد الغداء. أما بقية النهار فقد كان ملكا لها وإذا لم تخصصه للحديث مع "لامارثي" عن المستقبل، فقد كانت تخرج للتنزه مع "البيكاثا" أو ترتب جهازها. أحيانا كانت تنزل إلى شقتها بمفردها وتبسط كنوزها على السرير السفرى: طاقمان داخليان، فوطتان، ثلاث ملاءات والمفرش الأزرق. كانت تتأملها منتشية وتختبر جودة القماش بأصابعها وأخيرا تقول لنفسها وهي مفعمة بالرضا: "لا يوجد شئ واحد قبيح".

بعد سفر العجوز بيومين اشترت ملابس داخلية من النايلون ووسادة.

سألت زميلتها

- "لامارثي" ألن تعلميني التطريز؟

كانت "لامارثي" تتميز غيظا من ترتيبات "لاديس". فالعريف "أرخيميرو" لم يحدد هدفه وكثيرا ما سيطرت عليها فكرة أنه يخرج معها لمجرد التسلية:

- ألست متعجلة شوية، يا حلوة!

- شوفي يا "مارثي"، لم يتبق سوى سنة وثلاثة أشهر- كانت تقول بوجه مشرق-: الوقت يمر بسرعة دون أن نحس به.

ذات مساء، علمتها "لامارثى" التطريز، ومنذ ذلك الحين كانت تمضى أوقات الفراغ منهمكة فى عملها. بالليل، كانتا تنامان سويا على نفس السرير وتُفضى إليها "لاديسِ" بأسرارها. ذات مرة، سألتها "لاديسِ" باستغراب: "ألا تصلى، يا مارثى ؟". ردت عليها الأخرى بشئ من الغضب: "ولماذا؟ حتى لا يسرقونى؟

(سيبك)، يا حلوة، لاأحد يطلب اليوم النعيم المقيم". لكن "لامارثى" كانت تقول تتميز غيظا من كل الكلام الذى قاله "البيكاثا" لصاحبتها عن الزواج. كانت تقول لـ"لاتاسيا": «يُعطى الحَلَق لمن لا أذن له، هل فى هذه القبيحة شئ يسترعى انتباه رجل؟"لكنها كانت تقول لديسى: "ديسى ، يا حلوة، أنت هو أنت، لكنى لم أر فى حياتى من هو أقبح منه". فتسحب "لاديسِ" نفسها فى جانب من السرير لتفسح لها مكانا: "الكل ليس حسن الطلعة، وعلى أية حال، فلست ملكة جمال".

أحيانا أخرى، كانت "لامارثى" تزيد من قسوتها: "لاأعرف ماذا يعجبك فيه، يا حلوة إنه لا يعرف الألف من كوز الذرة"، فلا يفرغ صبر "لاديسِ": "البيكاثا" يقرأ بسلاسة، لكى تعرفى"، كانت تقول. لكن "لامارثى"، التى كانت ترَعش فى قميص النوم مثل قطعة جبن فى خضها، كانت تضيف محركة رأسها حركات تشكيكية: "لاأدرى هل يأكل تبنا أم لا، أما الشعير فهو مؤكد".

فى بعض الأيام كانتا تهبطان سويا إلى الشقة الخالية من العجوز "إلوى" وعندئذ كانت "لامارثى" تفتش فى جميع الأركان، تدخل غرفة العجوز، تفتح وتغلق قطعا الأثاث وتُعَلِّق تعليقات مُرَّة: "هذه هى المرحومة؟"، كانت تسأل وهى تشير إلى صورة. فتبتسم "لاديسِ": "نعم هى" فتصدر عن لامارثى إيماءة احتكار: "وجهها مثل وجه الكلب، من حظك أنك لم تتعرفى عليها". لم تكن "لاديسِ" تجيب فى

مرات أخرى كانت "لامارثى" تجعلها هدفا لهجومها المباشر والشخصى: "يالهـا من أرضيـة!، تنفع لحـرث المحـراث". "مـاذا تقصـدين،، يا مارثى؟"، كانت "لاديسِ" تسـأل بعفوية. فتضحك "لامـارثى،: «أقصد النظافة التى تحتاج إلى تجليخ". كان الخجل يعترى "لاديس" وتقول أن سيدها ليس مـتشددا كما انها تتـرك بعض الاعمال تتراكم عليهـا يوما بعد آخر. وعندئذ انفجرت "لامـارثى": "على (قد) فلوسه، لو قلت لواحدة أنك مرتبطة بالعجـوز نظير مائتى بيرتيـة فلن تصدقك". كانت "لاديسِ" تحاول تبرير مـوقف سيدها، لكن "لامارثى" لم تكن تمهلهـا: "ليشترى لك ثيابا، فليهـرش هذا البخيل جيوبه". كانت "لاديسِ" تحـاول تغيير مجـرى الحديث بذكـر حفلة زفـافها الـقادمة، لكن "لامـارثى" فى تلك الحالة كـانت تحتمى خلـف صمت مطبق، وإذا فتـحت فمهـا فمن أجل تسميم بدنها. ومن هنا فـإن "لاديسِ"، وإن كان ذلك يتم بشكل تلقائى، كانت تحاول تمضـية أكبر وقت ممكن فى الشارع. فـقد كانت تخرج مع "البيكاثا" كل مساء، وعندما يحل الليل كان الفـتى يحاول جرجرتها نحو الظلمة لكنها كانت تقاوم. وبالرغم من هذا، كـانت الفتاة تبقى كالمُعَطَّلة وتفقـد الإرادة والسيطرة على نفـسها بل والشـعور بالخطر كلمـا ورد ذكر حفل الزفاف على لسـان "البيكاثا". وهما يتطارحان الغرام على مـقعد، والقلب مفعم بالأمل كانت الفتاة تغزل أحلاما وردية، حلما بعد آخر:

- يجب أن يكون حفلا صـاخبا، يا "بيكاثا". "البوليـشيه" لا ينفع: فهذه الفرقة الموسيقية لا تساوى خردلة.

- مـ. . . . من جهتى، فالرقص لا يشدنى، كما تعرفين.

ويطبق الصمت

- هل ستتزوج بالبدلة الكاكى؟

- فـ. . . فى هذه الحالة، أوفّر ثمن بدلة جديدة، أليس كذلك؟

- إلزم الهدوء، يا "پيكاثا".

- بـ. . . بالطبع المكان يتسع للجميع، الأطفال و. . . .

تقف الفتاة بوثبة واحدة:

- إنتهى! ألن تتعلم أبداً حفظ يديك اللعينتين هاتين؟

عادة مـا تنتهى جولاتهمـا المسائيـة هكذا. فالفتاة التى تظل، عـامة، سلسلة القياد وعزلاء إذا ذكر "الپـيكاثا" حفل الزفاف، ينتهى بها المطاف إلى الإحـساس بوخـزة فى القفـا إذا تمـادى الفتى فى عـبثـه، وهو نفس الشعور الذى ينتابها فى كنيسة "سـان پدرو" أيام الآحاد عندما يهز مساعد القسـيس الجرس الصـغير. كـانت الفتاة تنسب هذه الظـاهرة إلى التدخل العلوى لعذراء "لاجـيا" وفى المـساء تقدم لهـا الشكر وهى جاثيـة فوق سريرها السّفرى. وبالرغم من ذلك، يبدو أن هذا السلوك المـستقيم للفتاة قد بدأ يسـتهـوى "الپيكاثا" الآن. لم يكن يأخـذ صدودها على المـحمل السيئ وإذا هبّت واقـفة وقالت هيـا نمشى يطيـعها بوداعـة، وإذا قالت إلى "الباى باى"، إلى "الباى باى" إذن، وإذا طلبت أغنية "الريليكاريو"، يغنى "الريليكاريو"، وفى كل الأحوال لم يـكن يبخل أبداً بإنفاق بيزيتـة فى شراء لبّ عباد الشمس أو الـقسطل المشوى. كانت "لاديس" تعيش حلمـا مثيراً وفقط، من حـين لآخر، كانت تتـذكر سيدها وتقـول لنفسهـا بحنان دفين: «تُرى ماذا يفعل هذه السـاعة؟ لابد وأنه يستمتع بلذائذ مـدريد». لكن جميع حواسها كانت فى الغالب مع "الپيكاثا".

ذات صباح صـحبها الفـتى فى جولة بالشارع الرئيسى ورجـعت الفتاة وهى شبه متحولة:

- "مارثى"، لن تتـصورى كيف كان الشارع والكافـتريات وكل شئ. أماه، الناس! وكأنه يوم عيد.

رفعت "لامارثى" رأسها كالحصان:

- تتحدثين وكأنك قادمة من القرية اليوم فقط.

سكتت "لاديس" حتى لا تضطر إلى الاعتراف بأنها المرة الأولى التى تخرج فيها من البيت فى مثل هذه الساعة منذ ثلاث سنوات.

فى يوم آخر ذهبت مع "لامارثى" لمقابلة "الپيكاثا" وقت خروجه من مركز التدريب. كان الجنود المستجدون يمشون فى ضجر، مثيرين سحابة من التراب، ويغنون بصوت نشاز نشيداً عسكرياً، لكن صوت "الپيكاثا" كان يَبُزُّ بقية الأصوات فأخذت "لاديس" رجفة وضغطت على ذراع صديقتها وتمتمت: «أنظرى إليه، يا "مارثى"، إنه يساوى بمفرده فرقة بأكملها». نفس الرجفة الحنون كانت تنتابها كل سبت وهى تغسل قميص الفتى وسراويله فى الحوض، وفى تلك الأحوال، يمكن الحلف على أنها لو أُعطيت القدرة على تسوية ساقى "الپيكاثا" أو تطويل أنفه لما فعلت، لأنها لو فعلت لما أصبح "الپيكاثا" هو "الپيكاثا" الذى تهواه بكل ما له وما عليه.

فى يوم أحد، بعد مرور عشرة أيام على رحيل العجوز "إلوى"، اتفقت "لامارثى" مع "لاديس" على حمل حاكى سيدتها إلى الشقة الخالية للرقص على موسيقاه هناك.

«سنقوم بكنس الشقة وتنظيفها بعد ذلك. لن يدرى العجوز بشئ»، قالت لها "لامارثى". اتفق العريف "أرخيميرو" مع "الپيكاثا" على اللحاق بهما فى تمام الرابعة لكنهما تأخرا. وبقصد شغل الوقت أخبرت "لامارثى" صديقتها بعزمها على شراء فستان طوبىّ اللون لفصل الربيع، لكن "لاديس" لم توافق على الفكرة بإيماءة من رأسها فقالت لها "لامارثى": «أوضحى ما تريدين قوله، يا حلوة».

تمسكت "لاديسِ" بوجهة نظرها:

- بعد إذنك يا "مارثى"، من وجهة نظرى الطوبىّ لا هو لون ولا غيره.

ارتجف لحم "لامارثى" الرَّخْو وكأن به شحنة كهربائية:

- وماذا تعرفين أنت عن الألوان. سيدتى تلبسه ولن تقولى أنها لا تفهم فى اللِّبس. ولكى تخفى استياءها نهضت وأدارت الحاكى.

أضافت "لاديسِ" وهى جالسة على كرسى فى الصالة ويداها ممدووتان فوق حجرها:

- إنه لون الهوانم كما تقولين. والهوانم قد مللن من كل شئ ويلبسن أشياء مملّة. عندئذ صاحت فيها "لامارثى" بأنها لاتزال تحمل القرية فى دمها فردت عليها "لاديسِ" قائلة بأن الذّوق لا يخضع لقوانين مكتوبة فأهاج هذا "لامارثى" التى وصفتها، رافعة صوتها فوق صوت الموسيقى، بأنها أشد فظاظة من حجر بئر وفى كل الأحوال فهى لم تطلب منها المشورة.

بقيتا نصف ساعة تستمعان للموسيقى دون كلام، وأخيراً أقبلت "لاديس" على صديقتها وقالت لها، وهى تلمس بِخجل ذراعها الأبيض البضّ، أن الساعة تجاوزت الخامسة ولم يحضرِ أىّ منهما. ازداد الانتظار توترا بمرور الوقت وفى الخامسة والنصف أَطَلَّت الفتاتان من الشرفة. قالت "لامارثى" جراب "الپيكاثا" ملئ دائماً بالمفاجآت، لكن "لاديسِ" أشارت بأن الطبع السَيئ قد أصبح فى ذمة الماضى وأنها لم تره طبيعيا فى حياته مثل الآن والشئ الوحيد الذى يمكن أن يكون قد حدث هو عدم حصولهماعلى تصريح لمغادرة المعسكر. عندما أعلنت ساعة "سان الديفونسو" السادسة، رأت "لامارثى" أنه من الأفضل النزول إلى الشارع وسؤال أحد زملائهما. وأثناء اتخاذ القرار وصل العريف "أرخيميرو"

مشعث الرأس، مُصْفَرّ الوجه، القبعة في يده وطلب كوبا من الماء ثم جلس خائر القوى على كرسى المطبخ المستدير فأضاءت "لاديسِ" النور لأن المساء كان قد حلّ ولكى تخفف من عتمة الأحداث القادمة والتى أحسّ بها قلبها.

هزت "لامارثى" الأرخيميرو من كتفيه وصاحت فيه:

- تكلم! ماذا حدث؟

اندفع حينئذ من فم العريف "أرخيميرو" سيل من المبهمات، لكن كلماته أخذت تتضح شيئاً فشيئاً ويصبح لها معنى. قال لقد حدث ما حدث عند "لاكابريتشيتوس"، مع إحدى الفتيات، لو لم يعثر "البيكاثا" علي الفأرة الميتة فى الشارع لما وقع شئ، لكنه أمسك بالفأرة الميتة من ذيلها وعندما خرجت "لادومى"، العوراء، من المحل رمى "البيكاثا" الفأرة على وجهها فبكت الفتاة وصاحت فيه يا بن الزانية، وبما أنها سبّت أمه فقد طلب منها "البيكاثا" أن تعتذر وتسحب كلامها، لكن الفتاة لم تكن فى وعيها فصاحت فيه ثانية يا بن الزانية، وكرر تحذيره لكى تسحب كلامها فرددت يا بن الزانية يا بن الزانية، وهو على الجانب الآخر مصرّ على سحب كلامها وهى تعيد وتزيد حتى تملك "البيكاثا" الغيظ، وكان ثملا بعض الشئ، ففتح المطواة وذبحها فى نفس المكان، على عتبة المحل فى أقل من طرفة عين. ارتفع صمت حدادى، وأخيراً سُمع صوت "لاديسِ" وكأنه فحيح:

- يا للعذراء!...

بدت مثل تمثال من الملح، وإصبعها متصلب فوق شفتيها، وعيناها خارج محجريهما. أضاف "الأرخيميرو":

- كانت الفتاة تنزف مثل خنزير. أماه، يا له من منظر مرعب!

غطّى عينيه بكفيه واستطال الصمت لعدة دقائق. نحيب "لاديس" الأجش كان يهز أحشاءها من الأعماق. ثم أخذت تعوى وتبكى بحرقة، لكن "لامارثى" اقتربت منها وجذبت ذراعها بعنف:

- أفعالك هذه لن تفيد بشئ، إخرسى.

لكن "لاديسِ" كانت تصرخ قائلة بأنه الوحيد الذى بقى لها فى هذا العالم وأنه أفضل من كل ما يحيط بها وعندئذ صرخت فيها "لامارثى" غاضبة ومحاولة السيطرة على لوعتها، أما هذا فلا، فقد كان "اليكاثا" دائماً مصدراً للمشاكل ولم يفعل فى حياته سوى توريط نفسه وقد حدث ما ليس منه بدّ. تخلصت منها "لاديس" فجأة ونظرت إليها نظرة مسترسلة وكأنها تنظر إلى امرأة غريبة. ثم ناحت من جديد فالتفت "الأرخيميرو" وقال أن "البيكاثا" استرد هدوءه فى الحجز ومن المؤكد أنهم سيحاكموه كعسكرى ويسجنوه بضع سنوات. كان العالم ينهار حول "لاديسِ" فصرخت صرخة حادة وأخذت تقول أن السبب فيما حدث هو الطبع السيئ وأنها ستخبر القاضى بهذا وستحضر "كولويكو" من القرية ومعها القسيس ليشهدان على هذا وهما أيضاً سيؤكدان بأن العرْق السيئ هو السبب لأن البيكاثا فى غير هذه الحالة العارضة شخص طيب القلب، لكن "لامارثى" أمسكت بذراعها وقالت لها بغلظة:

- العِرْق أو الطبع، لا تملين أبداً من تكرار هذه الكلمة؛ ليس له من عمل سوى البحث عن المشاكل، وهذا ما أضاعه، ضعى هذا حلَقة فى أذنك يا "ديسِ".

دفعتها "لاديسِ" ودون وعى بما تفعل جرت على السلّم، وفى الشارع أحسّت ببرودة أواخر الشتاء، وكلما جرت كانت الصفعات القاسية لواجهات المحلات والومضات المتعددة الألوان للمصابيح الكهربائية والعيون المشدوهة للمارة والأصوات والنباح والأجراس والأزيز الذى لا يتوقف للمدينة العاطلة تجلد وجهها بقسوة، لكنها لم تكن تلاحظ ذلك، كما لم

تكن تحس بأثر الركض المجنون فى عضلاتها ولا فى ركبتيها بالرغم من قصر نَفَسها كما كانت تقول "لاكايا" ، زوجة أبيها، وعندما دخلت المحكمة هبط اليأس والتعب والخوف عليها دفعة واحدة ولم تستطع الكلام، وعندما تمكنت أخيراً قال لها الشرطى لحسن الحظ أن القاضى لم يمنع زيارته حتى الآن وأن القضية ستحال فى الغالب إلى محكمة عسكرية لأن الأمر يتعلق بجندى فى الخدمة وأنه يمكنها رؤيته لبعض الوقت، وعليها أن تودّعه لأن المسألة خطيرة وستنتظر كثيراً للعودة لرؤيته ثانية.

الآن، تختنق "لاديسِ" وهى تهبط درجات السلم الرّطب، من الإحساس بقرب سقف القبو الذى لا يرتفع سوى شبرين عن رأسها، ومن خوفها حتى تلك اللحظة من عدم تصريحهم لها برؤيته. حيّت رجل الشرطة العسكرية بابتسامة موقرة وقام أحدهما باقتيادها إلى الفتي الذى كان يدخّن بالمبسم الجديد وهو جالس على كرسى، جلسة إباءٍ وتحدٍّ.

- لم يغيّر "البيكاثا" من جلسته عندما رآها. قالت بصوت مشروخ:

- "پيكاثا" ، ماذا فعلت، تكلم يا "پيكاثا"؟

كان يدخن دون توقف. قال، بنظرة غائرة وبشئ من الغطرسة:

- كـ. . . كما رأيت.

- "پيكاثا" ، ألا ترى أنك أضعت نفسك؟

لزم الصمت. ارتبكت "لاديسِ" . أضافت منتحبة:

- ما الذى ساقك إلى مكان هؤلاء النسوة، يا "پيكاثا" ، تكلم؟ ماذا كنت تفعل هناك؟

رفع "البيكاثا" عينين لازالتا عكرتين وحادتين:

- الـ. . . السافلة شمتت أمى، وهذا ما لا أقبله.

ألحت "لاديسِ":

- ماذا كنت تفعل هناك، تكلم؟

- كـ . . . كما رأيت.

كانت الفتاة تتململ. نظرت بطرف عينهـا للحارسين، خفضت صوتها وقالت بأهمية:

- أخبرتهم عن الطابع السيئ الذى يلبسك أحيانا؟ -سألت-. أخبرتهم به؟

أخذ نفسـا عميقـاً من السيجارة ولم يجب. حينـئذ تقدمت "لاديسِ" وأمسكت بذراعيه فى عصبية وأخذت تهزه بعنف:

- ماذا كـان عليك فعله هناك، مع هؤلاء النسوة؟ مـا الذى ساقك إلى هناك، تكلم؟

سقطت زهرة السيجارة على البنطلون فسحب "الپيكاثا" أحد ذراعيه ونفض الجذورة بلطمات من كـفّه. بقيت الفتاة سـاكنة تتأمله، بذهول يائس وحنون، لكن عندما اقترب الحارس وأخـذها من ذراع وقال لها: «هيا، الزيارة انتهت»، سرت رعدة بجسدها وحاولت جرجرة "الپـيكاثا" معها، وبما أن الحارس كان يشدها من الذراع الآخر فقد اضطرت أخيراً لترك "الپيكاثا"، وفى تلك اللحظة أصابتها لوثة والتفتت بوجهها المتسخ وصاحت من بين الدموع.

- لو احتجت لشئ، يا "پيكاثا"، أطلبه، أسمعت، ملابس أو أى شئ آخر، "پيكاثا".

وهن صوتها، لكنها استجمعت قـواها وصرخت صرخات كئيبة كانت تزداد حدتها كلما صعدت درجات السلم:

- "پيكاثا"، ألا ترى أنك قـد أضـعت نفسـك؟ ما الذى سـاقك إلى مكان هؤلاء النسوة؟ . . . ماذا كنت تفعل، تكلم؟

-٢٢-

كانت أعراف الجرانيت تصطف خلف النافذة بسرعة تدير الرؤوس والعجوز "إلوى" يتأملها من على مقعده بافتتان ساذج. كان المقعد يابسا وصلبا فجلس على الحافّة لكى يحمى "البروستاتا" من دفعاته الحادة، لكن ساقيه بهذا الشكل كان يصيبهما الخَدر فيضطر إلى الوقوف من حين لآخر لكى يمدهما ويُنَشِّط مرور الدم بهما.

كثيراً ما كانت تهاجمه، على خلاف ما يشتهى، ذكريات مدريد فكان يَهُشُّها بحركة جافة من رأسه. وفى مقابل هذا، كان يفكر فى بيته، وفى قرقرة النار وفى الكرسى المستدير بجوار الفرن، وعلى شفتيه ابتسامة العجائز تلك التى تبدو وكأنها تعويجة أكثر منها ابتسامة، ويستحضر "لاديس" بحنان فائق الوصف ويتخيل ما يمكن أن يحدث له لو عاد إلى البيت ولَم يجدها فيه.

أثناء اجتهاده لمحاولة تخيلها، كانت ملامح الفتاة تتلاشى فيعيد العجوز "إلوى" تشكيل صورة لها عديمة الوزن، دؤوبة وسلسة، ملائكية تقريباً. أمامه، يغشى النعاس فلاحا ذا يدين خشنتين والطفلة التى تصحبه تختلس، بين الفينة والفينة، قطعة خبز كبيرة. تحدث العجوز "إلوى" مع زوجة ابنه، سوثيسو، عن "لاديس" بعد وصوله بثلاثة أيام وعندما أخبرها بتخصيصه ساعتين كل مساء لتعليم الفتاة القراءة والكتابة ضحكت "سوثيسو" ضحكات متقطعة، بإيقاع شبه آلى، وسألت "ليو" الذى كان يسند قفاه، كما هى العادة، على طرف الكرسى، لماذا لم يخبرها أن أباه فى منتهى الظرف. لكن "سوثيسو" ما لبثت أن ملّته على المدى الطويل:

- "إلوى"، لا تحاول، لن تكون ظريفا مثل تلك الليلة -كانت تقول له.

فى الأيام التالية، كررت "سوثيسو" على مسامعه تلك العبارة، بالرغم من أن العجوز لم يكن يحاول الاستظراف بل جعلها تميل إليه وتناديه بكلمة «أبى». تخيل فى بعض الأوقات أن هذا لو حدث لأمكنه تعلّم تلك العادات بل والعيش فى تلك الدار حتى آخر العمر. لكنه كان يدرك تماما أن ما يتخيله لا يمكن حدوثه لأنه مجرد عائق، محتمل فقط لطبيعته المؤقتة.

حتى هذا الوقت لم يكن العجوز "إلوى" قد قرر العودة بالرغم من شدة معاناته فى فترة ما بعد الظهر من عسر الهضم لتخلّيه عن عادة الارتكاز على ركبتيه بعد الغذاء. لكنه صبر على كل هذا واستسلم على أمل رؤية "ليونثيتو" يبتسم ذات يوم أو أن تناديه "سوثيسو" بكلمة «أبى». ومع ذلك فقد ازداد عزوف ابنه وتجهمه يوما بعد آخر. فى بعض الأحيان كان يمر الصباح عليهما وهما جالسان فى الحديقة دون أن يجدا مادة للحديث. تخلّى العجوز "إلوى" عن فكرة عرض ميدالية تشريفه عليه، لأن "ليونثيتو" لم يكن يتحدث تقريباً، وإذا فعل فمن أجل إبلاغه بأحاسيسه المبهمة والكريهة. حاول تشجيعه بشتى الوسائل:

- ماضيك الدراسى باهر ولديك زوجة جميلة وبيت رائع، يا بنى -كان يقول له-. ماذا تريد أكثر من هذا؟

فتعلو وجه "ليونثيتو" أمارات الاشمئزاز:

- ماض دراسى باهر، ياه! وما فائدته؟ تحت يدى وثائق ووصايا، بعضها يصل إلى مائة مليون بيزيتة، حسنا، وماذا بعد؟. أما بالنسبة لوجه زوجتى الجميل فإنه لا يفيد فى تخفيف ألم من آلامى، صدقنى.

وعندئذ ينحنى عليه العجوز.

- ألا يكون السبب أنك تملك أكثر مما كنت تتمنى، يا بنى؟

لم يكن "ليونثيتو" يجيب، كان يبرم بإصبعين من يده شاربه فى عصبية المرة تلو الأخرى ويترك الوقت هكذا يمضى أثناء تأمله القمم المثلجة واللامعة للجبل فى سلبية مطلقة. وعلى نقيض هذا، فقد كان يتكلم كثيراً مع "سوثيسو" على الغداء وغالباً ما كان يستخدم الفرنسية فى حديثه وإذا ضحكت زوجة ابنه فى تلك الحالات تملّك العجوز "إلوى" شعور غامض بعدم الارتياح. وعادة ما كانا يتحدثان عن السيارات وتقول "سوثيسو":

- بعد أن غيّرت البوجيهات لا تستطيع عربة "رولز" أن تسبقنى فى صعود مرتفع يا "ليو". كيف يكون لشئ صغير مثل هذه الأهمية الكبيرة؟

كان "ليونثيتو" يشرح لها وهى تتابع كلماته بشغف طفولى. كانت تخرج بالسيارة كل صباح حتى ساعة الغداء. رجعت فى يوم من الأيام وهى شديدة الهياج:

- لقد صدمت إمرأة عرجاء، يا "ليو" عَبَرَت الشارع دون أن تنظر. ماذا تفعل امرأة عرجاء فى الشارع؟ أليس الأفضل لها البقاء فى البيت بدلا من الخروج وإعاقة حركة المرور؟

استمر كدرها طوال فترة المساء وكلما أراد العجوز "إلوى" أن يُسَرِّى عنها تتذكر العرجاء وتتميز غيظا. فى النهاية، آثر العجوز الصمت. كان يلمح من النافذة العريضة الثلج الشديد الصفاء للقمم العالية، ومع الثلج جاء "جويتو"، ابنه الصغير، على خاطره، وكلما مرّ الوقت أينعت الذكرى وتجددت حتى فاضت مع صباح اليوم التالى، فأبلغ "ليونثيتو" بقصد أن يشاركه همّه، لكن "ليونثيتو" رفض أن يمد له يد العون:

- "جريجوريو" أخذ فرصته يا أبي وخسر، لا داعى للخوض فى هذا مرة أخرى -قال.

تنهد العجوز:

- كان مثالياً- أوضح بخجل.

- مثالى، خا! لندع الترهات جانبا، يا أبى. لقد أراد أن يحصل على الشهادة (بالفهلوة) كما يفعل كثيرون غيره لأنه لم يكن قادراً على الإمساك بكتاب أو تقديم أية تضحية. هذه هى مثاليته. لقد كان أنانياً، لا يعرف سوى مصلحته وبقى هناك، حيث لا يعيره أحد اهتماما من أى نوع. هذا ما يحدث للكثيرين.

في هذه اللحظة بالذات اتخذ العجوز "إلوى" قراره بالعودة إلى بيته. اصطحبته زوجة ابنه إلى المحطة لكنها عند وداعه نادته "إلوى" ولم تقل له يا أبى كما تمنى، وعندئذ فكر فى "لاديس" وركبه الغّم من احتمال عدم وجودها بالشقة فى انتظاره. الآن، عند رؤية اليدين الكبيرتين للفلاحة الصغيرة وهى تقطّع الخبز فى القطار، عاد العجوز إلوى إلى التفكير فى "لاديسِ" وتملكه القلق من احتمال تركها للبيت فى غيابه.

لكنه وجدها وقد امتلأت عيناها، الخاويتان من الشّجى، باللوعة:

- ماذا جرى، يا بنتى؟

شرعت فى البكاء:

- أهو زى ما أنت شايف!

كانت قدماها تحملانها بصعوبة وأخيراً ارتمت على صدر العجوز وهى تنتحب. اختل توازن العجوز فأسند ظهره إلى الحائط. كانت قواه تكفيه بالكاد لنصب طوله لكنه لم يستطع خذلانها فى ذلك الظرف. تركها تبكى

فوق صـدره، وفي النهاية، قـصّت عليه مـا حدث. كـان يواسيهـا مُطَرِّيا صوته: «شدّى حيلك، شدّى حـيلك». فترد عليه مكروبة: «الطابع السيئ هو السبب. قلبـه أبيض لكن العرق السيئ أضـاعه». كان العجـوز يتأمل مذهولا، من فـوق شعـر الفتاة الفـاحم، مسكنه القـديم بألواحه القـديمة وأثاثه القديم وذكرياته القـديمة الحيّة ويحس بنبضه. كان يشـعر بأنه أكثر ثباتا وتماما وانتابته السعادة تقريباً وهو يقول:

- لماذا لا نذهب، يا بنتى، إلى السينما هذا المساء، أنا وأنت؟

اعتدلت بحركة مفاجئة. ابتسمت بخشونة فيما بين الدموع:

- (ده اللى كان ناقص!) -قالت-. هل جرى لعقلك حاجة؟

- هيا، جهزى نفسك.

- أتقدر على مثل هذا العمل!

- هيا، لا داعى للمزيد من الكلام.

قالت له الفـتاة وهى في ظلّ الصالة: «ولو رآنا أحد يـا سيدى؟». رد عليها العـجوز بينما كان (يُعَافر) لإخـراج المنديل: «لا تهتمى، يا بنتى». وأمام صـور الشاشة الكبـيرة خرجت عن وقـارها. كانت تضحك أحـيانا بصـوت عال وتضـرب أحيـانا أخرى ذراعى الكرسى فى تشنج. انتـزعت نفسها، شـيئاً فشيئـاً، من هواجسها. لقد أمضت خـمسة أيام سوداء وهى تبحث بلا جدوى عن مرفـأ يقيها الغرق. لم تعد "لامـارثى" تنفعها الآن بشئ. فلقد سبّت "البيكاثا" ولم تعـد ترغب فى العودة لرؤيتها. منذ ليلة الجريمة و"لاديس" تنـام بمفردها فى الشقة ولم تعـد تحس بالخوف من "لاأدريانا"، جامعـة الصمغ، ولا من موسى، الفتى الذى احتـرق وجهه فى فرن الهندباء. أرادت ذات مـساء استرجاع سكـينتها فبسطـت المفارش

الفخمة على سريرها السّـفرى، لكن منظر الوسادة التى لم يكتمل تطريزها أهاج مشاعـرهاوظلت تبكى لأكثر من أربع ساعات متـواصلة وهى تعصر القمـاش بين أصابعـها. فى اليوم الـتالى سمـعت "لامارثى" تتـحدث مع "لاتاسيا" من مسقط النور وصاحت بأعلى صـوتها لكى تسمعها قائلة أن "البيكاثا" لم يكن يعرف الألف من كوز الذرة وأنه مصدر للمشاكل، وأنه كان يورّط نفسه دائما وأن الحـال قد انتهى به إلى مـا ليس منه بُدّ، لكن "لاديسِ" فعلت المستحيل لتكبح جماح نفسها ولا تطلّ من الشرفة.

بعد أن ظفرت بمأربها بالانتـصار على هوى النفس، وقر فى عقلها أن ما كان بينها وبين "لامارثى" قد انتهى إلى غير رجعة.

بعد عودته بيـومين عرض عليها سـيدها الاقتراح الغريب بالتـوفير من الوجبَات بغرض الإكثار من ارتياد السينما. استدارت عينا "لاديسِ": "من جهتى، لاتحمل هما".

وفى نفس ذلك المســاء تلفعت من جديد بالسـترة الصوفية المنـقوشة وعطرت صدرها وخرجت مع العجـوز إلى إحدى دور وسط المدينة. كانا يمشيان فى صمت وعند الدخول إلى السينما ارتبكت "لاديسِ" قليلا وهى تنبه: "المنديل، يا سيدى". تنظف وتمتم "شكرا" غير مسموعة.

وعلى مقعـدها، فى السينما، فقدت الاحســاس بالواقع. كانت تعيش الملهاة بحواسـها الخمس: أحيانا تنتـحب وأحيانا تضحك بعصـبية وهى تضرب فخذها براحة يدها.

كان العجوز يلفت نظرها: "عليك بالاعـتدال يا "ديسى". فترد دون ان تنظر نحوه: "هيا، يا سـيدى، اليعسوب هذا صاحب الشـارب فيه قوة فرعون". حذرها: "لاتنادينى بسيـدى، يابنتى، فهذا مكانه البيت". لم ترد الفتاة. عندما خـرجا من السينما قالت له: "يلزم كثيـر من الشجاعة

للزّق هذه القبلات أمام الناس" . "أيّة قبلات، يا بنتى" ، سأل. "مرة أخرى! قَبلات السينما- أضافت الفتاة-. كان "البيكاثا" يقول. . . كان "البيكاثا" يقول أن كل ممثلات السينما عديمات الحياء" . هز العجوز رأسه: "لاتعممى، يا "ديسى" . فتحت عينيها بقدر ما تستطيع: "لا . . . ، ماذا؟"

أوضح العجوز: "لاتعممى، يابنتى. ليس كلهن سواء" . هزت الفتاة كتفيها. توقفت أخيرا، وعيناها مسلطتان على جدار أملس، لاثقب فيه. سألت:

-سيدى، ماذا تقول تلك الكلمات المكتوبة هناك؟

تنحنح العجوز بشئ من التكلف:

-تقول، ممنوع لصق الإعلانات واللعب بالكرة" .

-وتحت؟

أطبق عينيه دون أن يغلقهما بالكامل. أجاب:

- النظر لا يسعفنى، يا بنتى.

فى البيت كانا يستعيدان أحداث الأفلام. كانت "لاديسِ تشير إلي البطلين بـ "هو" و"هى" وتشير إلى الخائن دائما بكلمة "الأجرد هذا" . كان العجوز يسأل مستقصيا: "أى أجرد، يا بنتى؟" فتنطفأ: "(حتسوق علىّ العبَط من تانى!)" .

بعد يومين حلّ الربيع الرسمى فقال العجوز للفتاة أنه من أجل الاحتفال بهذه المناسبة سيتناول العشاء معها فى المطبخ مثل ليلة عيد الميلاد. ارتبكت "لاديسِ" :

-هل أنت فى كامل قواك العقلية؟

ألح العجوز:

-هيا، يابنتي، لاتضيعي الوقت.

كانت تتأمله بعينين ذاهلتين، ويداها الكبيرتان معقوفتان فوق حجرها:

-لاتبدأ من جديد- قالت:

لم يكن العجوز يسمعها. فتَّش في حافظة النقود ومد لها يده بورقة مالية:

-اذهبي إلى الكافيتريا، واشتري زجاجة، هيا.

لم تتحرك "لاديسِ".

- ألم تسمعيني؟- عاود الإلحاح، بينما كان ينظف أنفه.

مدت يدها وأخذت الورقة المالية، ثم قالت:

- أحذرك، فلم أعد أتحمل الحفلات.

تغيّر العجوز:

- ليس الأمر كما تظنين، يا بنتي. إفعلي ما آمرك به.

وعندما تناولا كأسين، شرعت الفتاة في الضحك وقالت له أنها اعتقدت منذ يومين مضيا أنها لن تعود إلى الضحك ثانية، لكنها بعد عودته إلى البيت لم تعد تشعر بالوحدة. عندئذ أوضح لها العجوز أنه ولد وحيدا، لأنهم دفنوا والده ساعة ولادته وأن ما حدث للملك أسوأ مماحدث له.

قالت الفتاة:

- دعك من المزاح.

أضاف العجوز في رتابه:

- لا أمزح، يا بنتي. عندما ولد الملك دثروه في ملابس سوداء. وكما ترين، يابنتي، رجل يملك كل شئ، لكنه في المقابل ليس له أب. هذه هي الحياة.

رفع رأسه وأحس بخدر الكحول وجرأته يسريان فى عروقه وسأل الفتاة عما إذا كانت تعرف عدد الثوانى التي يـعيشها الإنسان ودون انتظار لإجابة أخذ جـرعة أخـرى، ثم أخرى، وعندئذ جـال بخاطره أهمـية الدفء فى الحياة، وإن كان الإنسان يحتاج لنوعيـن من الدفء فإنهما، فى الحقيقة، نوع واحد ولهذا السبب البـسيط اخترع الإنسان النار وبعد اختـراعها مضى كل شئ على مـايرام، لأن الناس كانوا يتـحلقون حـولها فـتظهر الـمودة الصادرة من ألسنة اللهب ذاتها ثم تعـود إليها بعد ذلك لأن هذا هو الدفء المزدوج، دفء غـريب آت ورائح. أراد أن يشرح هذا للفتـاة لكن كلماته خرجت متشابكة ودون معنى.

كانـت الفتـاة تنظر إليه بانتـباه، دون أن تفـهمـه وفكرت للحظة فى "الأپولينار"، ابن عم "الأوتروبيو"، زوج أختها، الذى ذهب عقله لأن الريف كان يطبـق على أنفاسه ولم يجـد فى المدينة مـا كان يحلم به، لكنها مدّت فى الحال يدها وأبعدت الزجاجة عن متناول العجوز. قالت فى تسلط:

-لن تتذوق قطرة أخرى.

أراح العجوز عينيه المجهدتين على الفتاة:

-"ديسى"، يا بنتى، لاداعى لما تفعلينه.

خيم صمت سُمع خلاله، بتواتر قـصير، صوت قطرات الصنبور وهى تتسـاقط فى الحوض. شرع العجـوز أخيراً فى الكلام بصوت يتـدفق مثل ينبوع رقيق لكنه ثابت وأخـذ يقول أن الرجال ظنوا بتجمـيعهم للدفء فى المواسـير أنهم حلّوا المـشكلة لكنهم، فى الحقـيقة، خلقـوها فمن غـير المتصور وجودنا بلا دخان وبهذا الشكل تناثر عقد المودة. نظرته الملهوفة الملتاثة كـانت مصوبّة بثـقل وتمادٍ نحو الفـتاة، لكنها لم تشـعر ساعتـها

بالخوف بل بشفقة لاذعة وعندما أمسك العجوز بذراعها فى تشنّج وطلب منها بصوت عالٍ ألا تتركه، ردت فى هدوء:

- مرة أخرى! هل تكلم أحد عن الذهاب؟

أضاف:

- ابنتى، لماذا لا نقتسم القليل الذى أملكه؟

انثنت جبهة الفتاة عن طيّة أفقية عميقة. سألت:

- أيمكن معرفة ما تقصده، يا سيدى؟

أضاف العجوز وكأنه لم يسمعها:

- سأكون عائقاً لك، لكن لزمن قصير. لقد طلعت لى الورقة الحمراء فى دفتر البقرة.

هزّت كتفيها مندهشة:

- إذا لم تزد الأمر وضوحا...

واصل العجوز إلحاحه:

- سيؤول إليك غدا هذا المتاع القليل -تنهد بعمق.

تملكتها الحيرة، وفى النهاية، أخذت كأسا وتجرعت ما فيه حتى الثمالة. بعد أن انتهت، ارتجفت يداها ولمعت عيناها الكليلتان بضوء فجائى. وهى واقفة، نظرت باستسلام إلى العجوز، الذى كان قد نهض أيضاً، وعيناها مغرورقتان بالدموع. قالت بصوت رفيع لا يكاد يُسمع:

- (اللى تشوفه)، يا سيدى.

انتهت الترجمة- د. على عبد الرءوف على البمبى

المشروع القومى للترجمة

اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : لطفى عبد الوهاب / فاروق القاضى / حسين الشيخ / منيرة كروان / عبد الوهاب علوب
مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
الرواية العربية	روجر آلن	ت : د. حصة إبراهيم المنيف

الأسطورة والحداثة	پول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت
نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	ت : المهدى أخريف
بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانوبيا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد

السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود
السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت : حسن بيومى
فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
وسم السيف	ميجل دى ثرباتس	ت : محمد إبراهيم مبروك
المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
هوية فرنسا	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
تاريخ السينما العالمية	ديڤيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : د. أشرف على دعدور

صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدى
ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نينل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
فعل القراءة	ڤولڤانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت : مصطفى ماهر
حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
قضايا التنظير في البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى

صاحبة اللوكاندة	كارلوس جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان
موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبى
خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
التجربة الإغريقية : حركة الاستعمار والصراع الاجتماعى	روبرت ج. ليتمان	ت : منيرة كروان

(تحت الطبع)

الشعر الأمريكى المعاصر

الجانب الدينى للفلسفة

الولاية

المدارس الجمالية الكبرى

مختارات من الشعر اليونانى الحديث

العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل

عدالة الهنود

چان كوكتو على شاشة السينما

الأرضة

غرام الفراعنة

نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية والقوانين المعالجة

العنف والنبوءة

خسرو وشيرين

العمى والبصيرة (مقالات فى بلاغة النقد المعاصر)

وضع حد

التليفزيون فى الحياة اليومية

أنطوان تشيخوف

من المسرح الإسبانى المعاصر

تاريخ النقد الأدبى الحديث (الجزء الرابع)

حكايات ثعلب

شامبوليون (حياة من نور)

الإسلام فى السودان

العربى فى الأدب الإسرائيلى

آلة الطبيعة

ضحايا التنمية

المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر

أيديولوجى

تاريخ الكنيسة

فن الرواية

ما بعد المعلومات

علم الجمالية وعلم اجتماع الفن

المهلة الأخيرة

الهيولية تصنع علماً جديداً

مدرسة فرانكفورت نشأتها ومغزاها

مختارات من النقد الأنجلو - أمريكى

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٠٠٠/١٥٥٧

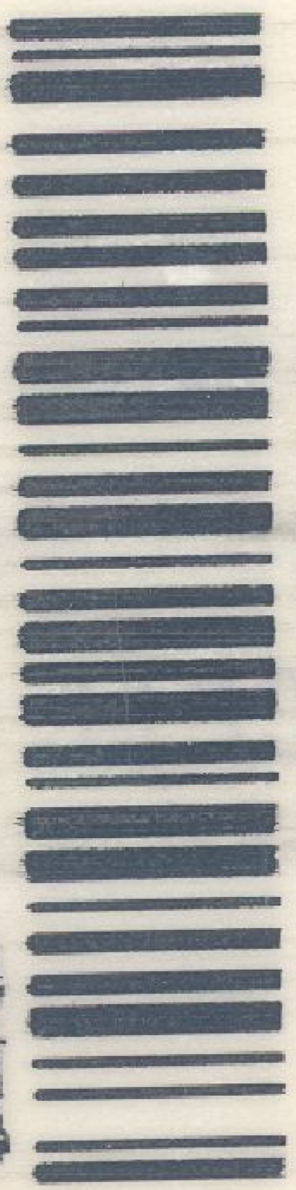
تنفيذ وطباعة: Stampa
تليفون: ٣٤٤٦٨٧٣ - ٣٤٦٠٢٤٤

المجلس الأعلى للثقافة

La Hoja Rojadestinolibro

يعتبر "ميجيل دى ليبس"، من أهم الروائيين الإسبان الذين ظهروا خلال النصف الثانى من القرن العشرين .. وقد اكتسب "دى ليبس" الاحترام والتقدير على جميع الأصعدة ؛لأنه يولى جل اهتمامه للدفاع عن حرية الإنسان وكرامته وحقوقه الطبيعية ، ويحذر- فى الوقت نفسه - من مغبة الاستسلام للآلة ومن عواقب الإخلال بما أودعه الخالق فى الكون من توازن ونظام. ولذلك نجد أن الكاتب يهتم بمعالجة الموضوعات الخالدة فى رواياته ، ويدافع عن القضايا الإنسانية ، ويختار الشخصيات البسيطة العفوية التى تتصرف بتلقائية. والرواية ،التى بين أيدينا، تعكس رؤية الكاتب فى بعض القضايا، مثل الإحساس بالآخر ،وبرودة المشاعر فى إنسان العصر الحديث، ومسئولية الآلة عن تراجع القيم الإيجابية.

ومن أحداث الرواية - التى تدور حول موظف بسيط أحيل إلى التقاعد بعد بلوغه سن المعاش- أن يبرز مسئولية التقدم المادى فى انفراط عقد المودة والحنان بين بنى البشر.



تصميم : عاطف عبد الحفيظ